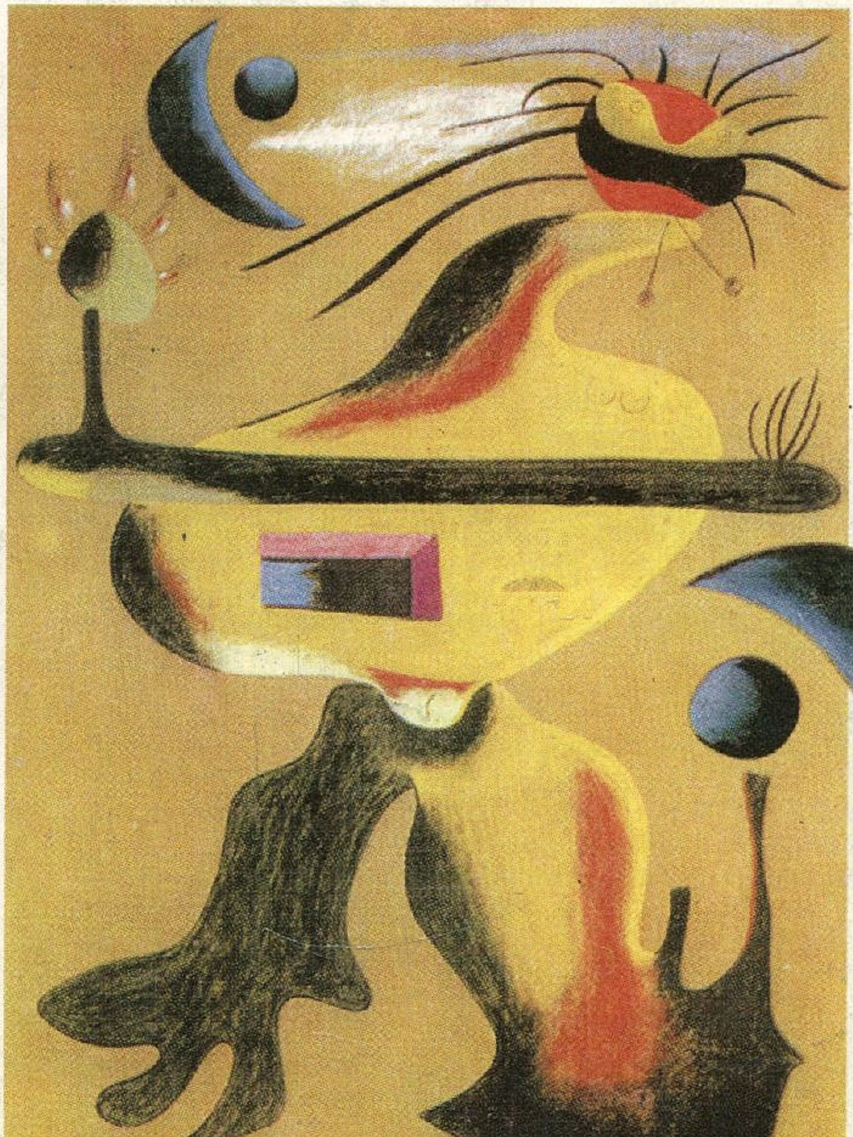
مكتبة الأسرة
مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

ك.ج.يونج
ترجمة: نهاد خياطة

علم النفس التحليلي



لوحة للفنان خوان ميرو

مهرجان القراءة للجميع
للطفل - للشباب - للأسرة
جمعية الرعاية المتكاملة

أمهات الكتب

علم النفس التحليلى

علم النفس التحليلى

ك. ج. يونـــج

ترجمة: نهاد خيّاطة

إعداد: د. محمد محمد عنانى

مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٣

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(سلسلة أمهات الكتب)

علم النفس التحليلى
ك. ج. يونج
ترجمة: نهاد خياط
تصميم الغلاف
والإشراف الفنى:
للفنان : محمود الهندى
الإخراج الفنى والتنفيذ:
صبرى عبدالواحد
الإشراف الطباعى:
محمود عبدالمجيد
المشرف العام :
د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة التنمية المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم:

لا سبيل أمامنا للتقدم والرقى وملاحقة العصر إلاّ بالمزيد من المعرفة الإنسانية.. نور يهدينا إلى الطريق الصحيح، ولأن مكتبة الأسرة أصبحت أهم زهور حدائق المعرفة نتنسم عطرها ربيعًا للثقافة المصرية الأصيلة.. فإننا قطعنا على أنفسنا عهدًا ووعدًا ليس لنا إلا الوفاء به لتثمر شجرة المعرفة عطاءً للأسرة المصرية.

د.سمير سرحان

تصدير

هذا كتاب من أمهات كتب علم النفس الحديث ، وهو يضم محاضرات ودراسات صدرت عام ١٩٣٣ ، وتجمع أهم عمل يميز بين جهود يونج في علم النفس وبين فرويد ألا وهو كتابه الأول الصادر عام ١٩٢٨ بعنوان **دراستان في علم النفس التحليلي** ، ولكن من هو يونج مؤلف هذا الكتاب المهم ؟

عندما يذكر يونج - واسمه بالكامل كارل جوستاف يونج (Carl Gustav Jung) - يذكر الناس النظريات التي وضعها وأشاعها عن الأنماط الفطرية (archetypes) (انظر كتابي حكايات الواحات - القاهرة ٢٠٠٢) ومفهومة عن الشخصية الانطوائية (introverted persanality) والانبساطية (extroverted) ويذكرون نظريته عن اللاوعي الجماعي (The Collective Unconscious) ولكنهم يذكرون قبل ذلك كله خلافه مع سيجموند فرويد - رائد التحليل النفسي (psychoanalysis) - وتقديمه عوضًا عنه ما أطلق عليه علم النفس التحليلي (analytical psychology) .

ولد يونج عام ١٨٧٥ فى مدينة كيسفيل ، فى سويسرا ، وكان والده قسيسًا وأستاذًا فى فقه اللغة ، وعندما شب الصبى «كارل» لاحظ أن إيمان والده الدينى بدأ يهتز ، مع أن كل ما خبره الصبى يؤكد ضرورة هذا الإيمان بل وحتميته ، فحاول أن يعيد إليه الإيمان المستند إلى الخبرة الشخصية والاستبطان (introspection) أى التأمل الذاتى العميق ، ولكن الخلاف استعر بين الصبى ووالده ، فكان أن غيّر الصبى من وجهة حياته وبدلاً من أن يدرس اللاهوت ليصبح مثل والده كاهنًا ، بدأ يميل إلى دراسة الطب ، وفعلاً التحق بجامعة بارل حيث درس الطب من عام ١٨٩٥ حتى ١٩٠٠ ، ثم واصل دراسته العليا فحصل على الدكتوراه فى الطب النفسى (psychiatry) من جامعة زيوريخ عام ١٩٠٢ ، واستقر فى زيوريخ حيث مارس عمله بالطب النفسى فى مستشفى الأمراض النفسية ، وبدأ فى تطبيق منهج التداعى للألفاظ (word associations) وهو المنهج الذى ساعده على اكتشاف الخبىء فى نفوس المرضى ، وبدأ يطلق على العوائق التى لا يعيها المرء وتتسبب فى مرضه النفسى مصطلح «المركّب» (أو العقدة complex) . وسرعان ما أدت هذه البحوث إلى رسوخ مكانته على المستوى الدولى ، وإلى تفهمه لمذهب فرويد ، بل إن مكتشفاته أكدت صحة الكثير من أفكار فرويد ، فبدأ العمل معه بل والتعاون الوثيق معه سنوات طويلة - من عام ١٩٠٧ حتى ١٩١٢ .

ولكن الخلاف كان محتومًا لأن يونج رفض قبول ما ذهب إليه فرويد من أن الأمراض العُصابية (neuroses) تنشأ عن أسباب جنسية ، وكانت فى رأى يونج ترجع إلى أسباب مركبة من المحال أن تقتصر على الكبت الجنسى ، وكتب يونج فى ذلك بحوثًا كثيرة ، ما لبث أن نشرها بعد انفصاله عن فرويد فى عام ١٩١٢ ، ونشر فى عام ١٩١٦ كتابه الشهير **سيكلوجية اللاوعى** (Psychology of The Unconscious) الذى يعارض فيه كثيراً من آراء فرويد .

أما أول انجازاته العظيمة فكان التفريق بين فئتين من الناس وفقًا لنمط الشخصية (character types) فوصف الشخصية الانبساطية بأنها الشخصية التى تتميز بالانفتاح على ما حولها ومن حولها ، والشخصية الانطوائية بأنها الشخصية التى تنطوى على نفسها أى تنغلق على ذاتها ، ثم حدد أنماط الشخصية بأنها تتميز بسيادة عنصر واحد أو أكثر من عناصر عمل العقل أو وظيفته وهى التفكير والشعور والحس والحدس ، فإذا ما ساد عنصر واحد اتسمت الشخصية بسماته وغلبت العناصر الأخرى ، وإذا ساد عنصران تمكنا من التغلب على غيرهما ، وقد يتعادل تأثير هذه العناصر جميعًا أو بتصارع تأثيرها . وقد نشر كتابه الذى يحمل العنوان المذكور (**أنماط الشخصية**) عام ١٩٢١ بالألمانية ثم بالانجليزية عام ١٩٢٣ .

وقد قام يونج بدراسة الأحلام وتوسع في دراستها ، استنادًا أولاً إلى خبرته الشخصية وأحلامه منذ الطفولة ، ثم استنادًا إلى أحلام الآخرين ، وقام بتحليلها فاكتشف أنها تنبع عند الجميع من منطقة من مناطق الوعى المشترك بين البشر جميعًا أطلق عليها اسم «اللاوعى الجماعى» ، واستنتج من هذا أن الإنسان يتميز عن جميع الكائنات الأخرى بنفسٍ واعيةٍ ونفسٍ غير واعية تختلف عن الروح البيولوجية المشتركة بين الكائنات الحية ، وذهب إلى أن ذلك يؤكد حياة النفس الإنسانية التى بثها الخالق جل وعلا في البشر ، ويؤكد وحدة الإنسان فى كل زمان ومكان ، ووحدة «النفس المخلوقة» والتى تحاكى عمليات الخلق التى ترجع إلى الخالق ، وكان ذلك المنحى الدينى فى تفكيره مصدر انتقاد غيره من العلماء الذين رموه بتهمة «التصوف» والابتعاد عن «المنهج العلمى» مع أنه لم يكن يبنى أى نظرية إلا على أساس من البحث العلمى البحت وعلى أسس الحقائق الثابتة ، ولا مناص من أن تؤدى هذه الحقائق إلى الإيمان الدينى ولو وصف بالتصوف .

وكان من ثمار دراسته المذكورة توصله إلى أنماط فطرية (archetypes) أى أنماط غريزية فى كل إنسان تُخلق معه ولا تستمد من الخبرات الدنيوية ، وتتجلى فى صور ورموز قد تفوت على الكثيرين ولكنها تؤكد أيضًا وحدة المصدر وتجاوزه للزمان والمكان ، فهى فطرية بمعنى أن الإنسان مفطور عليها ، أو أنها قائمة فيه بالفطرة ، وهى إنسانية عامة نراها فى غير المتعلم وفى المتعلم ، وفى الطفل وفى البالغ ، وفى

كل اللغات والمهارات الذهنية ، وفى الظواهر النفسية . وقد استفاد كثير من الباحثين فى الأدب من هذه النظرية فطبقوها فى مجالات النقد الأدبى.

وكان من أهم المفاهيم التى أتى بها يونج أيضًا مفهوم عملية التفرد (individuation process) وهى العملية التى يستطيع بها من تعرض لتفتت عناصر شخصيته أن يلم شتاتها فيصبح فردًا متماسكًا من جديد ، وقد اهتدى إليها عندما درس المرضى النفسانيين ، خصوصًا من تقدم بهم العمر وشعروا أنهم فقدوا معنى الحياة ، وكان أسلوب علاجه الذى نجح هو أن يبحثوا فى ذواتهم عن رموزهم الخاصة وأن يعيدوا إقامة العلاقات بين عناصر هذه الرموز ، فإذا اكتشفوا منطق الروح فى ذواتهم و استطاعوا أن يجعلوه رابطة تربط هذه العناصر بعضها بالبعض ، فيتم الشفاء .

وقد عاش يونج حتى الخامسة والثمانين وتوفى عام ١٩٦١ فى زيوريخ.

والله من وراء القصد ،،،

د. محمد عنانى

القاهرة - ٢٠٠٢

مدخل إلى علم النفس التحليلى

١ - يقوم علم النفس التحليلى أساسًا على الخبرة العملية التى تجمعت لصاحبه من اتصاله بمن اتفق لهم أن عُرضوا عليه للمعالجة بحكم عمله المهنى ، ومن دراسته للحالات النفسية التى يتعرض لها الإنسان عمومًا ، سواء أكان إنسانًا سويًا أو معصوبًا أم به جنون . ومع ذلك ليس علم النفس التحليلى نوعًا من علم الأمراض النفسية وإن كان يعتمد المادة التجزيبية لهذا العلم ، بل هو - كما يقول يونج ـ «اقتراحات ومحاولات لصياغة خبرة عملية جديدة عن الكائن البشرى» . والحق إن هذه الخبرة لا تستطيع أى نظرية ـ مهما بلغت من الدقة والشمول ـ أن تحيط بها أو تصوغها : ذلك لأن تسليط الضوء على نقطة واحدة منها ، وإن كان يفضى بنا إلى نوع من تجلية غموضها ، خليق بأن يجعلنا فى منأى عن شبكة العلاقات التى يتكون منها مجمل النشاط النفسى : إن السعى وراء الدقة فى تحديد الخبرة النفسية من شأنه أن يفقدها الكثير مما لها

٢ - وقـــد آثر يونج اصطـلاحى «النـفس» Psyche و «النفـسى» Pychic على «العقل» mind و mental ، لما فى هذين الأخـيرين من صلة وثيقة بـالواعية ، وما فى الأولين من اشتـمال على الواعية والخـافية جميعًا . فـالإنسان الذى يكون محلاً لظاهرات الخافيـة ، يكون عادة غير عـارف بها ، لفـقدان صلة هذه الظـاهرات بواعيـته . وهى إذا اتفق لهـا واقتحمت الواعية - كـما فى الخروج عن الطور الذى لا يتناسب مع سببه البادى - لم يسـتطع إنسان يجهل طبيـعة الخافيـة أن يجد لها تفـسيراً أو تعليلاً . لذلك نجـدنا نقول فى مثل هذه الحالات : «لا أدرى مـاذا جرى لى !» . وظاهرات الخافية لا تقتصر على المرضى وحدهم ، وإنما كثيراً ما تصدر عن الأسوياء تصرفات لا يعرفون شيئًا عن دوافعها .

هذا ، وإن الجانب الخافى من النفس بمثـابة عِوَض من جانبها الواعىّ فى بعض الأحـيان ، على مـا بين الجـانبين من اختـلاف . بل إن يونج ليذهب إلى أن الواعية نفسها «قد نشأت عن الخافية وهى أقدم منه عمراً ، وأن الخافية قـد تعمل متناسقة مع الواعيـة أو حتى رغمًا عنها . «زد على ذلك إصرار يونج على حقيقة النفس التى لا تقل عن حقيقة الفيزياء ، بما لها من بنيـة وقوانين خاصـة بها ، خلافًا للـذين يعتبـرون العقل ظاهرة ثانوية ، أو ظاهرة تالية ، أو «شبحًا فى مَكنة» .

«كل ما أختبـره فهو شأن نفسى ؛ حتى الألم الفيـزيائى نفسه ما هو إلا حادث نفسى يرتد إلى خـبرتى ؛ حتى الانطباعات الحـسيّة - بكل ما

تفرضه عليّ من عالم الأشياء الكتيمة التى تتحيّز المكان - ما هى إلا صُوَر نفسية ، وهى وحدها خبرتى المباشرة ، لأنها وحدها المواضيع المباشرة فى واعيتى . ثم إن نفسى تغير شكل الواقع وتزيّفه ، وإنها لتفعل ذلك إلى حد أضطر معه إلى الاستعانة بوسائل صنعية لكى أحدد ما هى عليه الأشياء فى معزل عن نفسى . وعندئذ أكتشف أن اللحن ذبذبة هوائية بدرجة كذا وكذا من التردد ، وأن اللون موجة ضوئية بدرجة كذا وكذا من الطول . نحن مطوّقون بالصور النفسية إلى حد لا نستطيع معه أن ننفذ إلى قلب الأشياء الخارجة عن نفوسنا ؛ كل معارفنا مشروطة أو مقيدة بالنفس التى هى الشىء الواقعى على أعلى مستوى ، لأن النفس هى الشىء الوحيد الذى يتصف بالمباشرة . نحن هنا بإزاء واقع نفسى بوضع عالم النفس أن يحتكم إليه - وأعنى به الواقع النفسى» .

ولعلنا نستطيع أن نضيف إلى ذلك ما تتمتع به الحقيقة النفسية من قدرة على فرض نفسها وبطرائق شتى ، من ذلك مثلاً نشوء أمراض ، لها كل أعراض الأمراض الفيزيائية البحتة ، ابتداء من الشلل الهستيرى والعمى إلى الصّرع والمعاد (=مرض المعدة) وجملة أخرى من الأدواء الخفيفة . يضاف إلى ذلك أن كل ما يفعله الإنسان له بداياته فى النفس؛ إما أن يكون شيئًا فكّر فيه لتوّه ، وإما أن يكون حلمًا حلم به أو رؤيا رآها . وقد تكون آمالنا ومخاوفنا مستندة إلى «حقائق» يعترف بها غيرنا ، أو قد تكون أضغاث أوهام ، لكنّ الفرح أو القلق الذى تجلبه واحد فى

كلا الحالين . فالذى نختبره حقيقى بالنسبة لنا ، وإن لم يكن كذلك لغيرنا ، ويتمتع بقيمة خاصة تضارع قيمة «الحقيقة» التى يعترف بها الناس، على ما بينهما من اختلاف .

وإن هذا الموقف من حقيقة النفس ليتعارض تعارضًا ظاهرًا مع الموقف الذى طالما وصفه يونج بأنه «مجرد موقف» . فالذين يذهبون هذا المذهب، أو يقفون هذا الموقف ، كثيرًا ما قللوا من شأن المظاهر النفسية ، ولا سيما الاختبارات التى لا يتيسر لنا أن نربطها مع الحوادث الخارجية فتجدنا نشير إليها من غير اكتراث قائلين : «إن هى إلا وهم من الأوهام» أو مسألة ذاتية بحتة» أما يونج فيعطى السياق النفسى أو الداخلى قيمة السياق الخارجى أو المحيطى .

٣ - يفهم يونج النفس نظامًا حركيًا لا يتوقف ، وفى الوقت نفسه ينظم نفسه تلقائيًا Self-Regulating system . ويطلق على الطاقة النفسية اسم «الليبيدو» . ولا ينبغى أن نفهم من «الليبيدو» انطواءها ، بهذه الصفة ، على قدرة بأكثر مما ينطوى عليه مفهوم «الطاقة» فى العلوم الفيزيائية ؛ إنما هى مجرد اصطلاح لوصف الظاهرات الملاحظة .

وتضطرب «الليبيدو» بين قطبين متضادّين . ولعل ذلك يشبه البطين والأذين فى القلب ، أو الموجب والسالب فى الدائرة الكهربائية . ويشير يونج عادة إلى القطبين المتعارضين بـ «الضدين» . وتشتد الطاقة كلما احتدم الاصطراع بين الأضداد ، إذ لا طاقة بادية بدون تضادّ . ويمكننا أن

نعدد هنا أضدادًا كثيرة ذات مستويات متباينة : فهناك مثلاً الإقدام والإحجام ، والواعية والخافية ، والانبساط والانقباض أو الانطواء ، والفكر والشعور إلخ . وللأضداد وظيفة تنظيمية (كما اكتشف ذلك هيراقليط قبل مئات من السنين) : عندما يبلغ أحد الضدين أقصى مداه ينقلب إلى ضده الآخر . وإننا لنجد مثالاً بسيطًا على كيفية انقلاب أحد الضدين ، عندما يصل إلى أقصى مداه ، إلى شيء آخر مختلف عنه كل الاختلاف في سورة الغضب يعقبه سكون ، وفي البغضاء تئول إلى مودّة. ويرى يونج أن الوظيفة التنظيمية للأضداد مركوزة في الطبيعة البشرية ، وأساسية لفهم النفس في قيامها بوظائفها .

والحركة الطبيعية التي تتحركها الطاقة النفسية (=الليبيدو) حركة نواسيّة إلى الأمام والخلف ، ولعلّنا أن نشبهها بحركة المدّ والجزر . ويسمي يونج الحركة الأمامية التي تلبي متطلبات الواعية إقدامًا progression ، والحركة الخلفية التي تلبي متطلبات الخافية إحجامًا regression . فالإقدام ينصرف إلى تكييف الإنسان لنفسه إيجابيًا مع البيئة ، وأما الإحجام فإلى تكييفه لها مع احتياجاته الداخلية . ولذلك كان الإحجام من الإقدام بمنزلة النوم من اليقظة ، بما هو قطب طبيعي مضاد للإقدام ، مادامت الطاقة النفسية تقوم بأداء وظيفتها من دون عائق ، طبقًا لقانون الانقلاب الضدّي Enantiodromia حين تنقلب في النهاية إلى حركة إقدام . وقد يعني الإحجام ، في جملة ما يعني ، عودة إلى

حالة حلمية بعد فترة من النشاط العقلى الموّجه والمركّز ، أو قد يعنى عودة إلى حالة سابقة من التطور . لكن هذه الحالات ليست «أخطاء» بالضرورة، بل لعلها نوع من مراحل إعادة الإنشاء أو «الانكفاء من أجل وثبة أبعد»[1] . وإذا قامت محاولة لقسر الليبيدو على الانصباب فى قناة صلبة ، أو أقام الكبت من بين أيديها سداً ، أو باء التكيف الواعى بالفشل لسبب أو لآخر (ربما لأن الظروف الخارجية أضحت بالغة الصعوبة) ، فعندئذ تصبح الحركة الإقدامية مستحيلة وتنكفىء الليبيدو إلى الخافية فتغدو محمّلة بطاقة أكبر من استيعابها ، وتروح تبحث عن منفذ لها تفرغ فيه شحنتها . فى مثل هذه الحالة قد ترشح الخافية من خلال الواعية وهمًا أو عرضًا عصابيًا ، أو تتبدّى سلوكًا طفوليًا أو حيوانيًا . وقد يصل بها الأمر إلى أن تطغى على الواعية طغيانًا ينشأ عنه خروج عن الطور عنيف ، أو يتطور عنه جنون مطبق . وعندما يحدث ذلك يكون الأمر أشبه بسدّ تهدم فأغرق جميع ما حوله . وفى الحالات القصوى - عندما تفشل الليبيدو فشلاً تامًا فى العثور على منافذ لها - تكون أمام حالة انسحاب من الحياة ، كما فى بعض حالات الجنون الشديد . إن هذا هو الإحجام المَرَضى الذى يختلف عن الإحجام الصحى بما هو ضرورة حياة . ليس الإنسان آلة حتى يستطيع أن يتكيف مع عالمه الداخلى . «وهو ، بالعكس ، لا يستطيع أن يتكيف مع بيئته بصورة دائمية ، بل لا

(١) التعبير مثبت فى النص بالفرنسية Reculer pour mieux sauter .

بدّ له أن ينسجم مع نفسه أيضًا ، أى أن يتكيف مع عالمه الداخلى وهو ، بالعكس ، لا يستطيع أن يتكيف مع عالمه الداخلى ويحقق وحدته الداخلية إلا إذا تكيف مع ظروفه الخارجية» .

٤ - إن الليبيدو طاقة طبيعية تتولى ، أولاً وقبل كل شىء ، القيام بخدمة أغراض الحياة ، لكن قدرًا معينًا ، مما يفيض عن حاجتنا منها لتلبية أغراض غريزية ، قد يتحول فعلاً إنتاجيًا أو يسخّر لأغراض ثقافية. إن توجّه الطاقة على هذا النحو أمر ممكن مبدئيًا حين تتحول شيئًا يماثل فى طبيعته غرض الاهتمام الغريزى . غير أن هذا التحويل غير ممكن بمجرد فعل الإرادة ، فهو لا يحدث إلا بطريقة غير مباشرة . فبعد فترة من النضج فى الخافية ينتج رمز يستطيع أن يجتذب الليبيدو إليه ، ويقوم أيضًا بمهمة القناة فى تحويل الطاقة عن مجراها الطبيعى . والرمز لا ينتجه الفكر إنتاجًا واعيًا ، بل كثيرًا ما يجىء على هيئة وحى أو حدس يتبدّى غالبًا فى الأحلام .

لكن ينبغى أن نلاحظ هنا أن يونج يستعمل كلمة «الرمز» بطريقة محددة فى جميع أعماله ، ولذلك نجده يميز بين «الرمز» Symbol والسمة أو «العلامة» Sign . فالسمة عوض من الشىء الحقيقى أو تمثيل له ، أما الرمز فينطوى على معنى أوسع بما يعبر عن حقيقة رمزية لا يمكن صوغها بصورة أدق .

عند الأقوام البدائية تقوم صلة وثيقة بين الفعل الجنسي وحراثة الأرض[1] ، بينما نجدهم يمهّدون ، من أجل القيام بأفعال أخرى ليس لها مثل هذه الصلة كالقنص والصيد والحرب ، بالرقص والاحتفالات السحرية مبتغين من ذلك تحويل الليبيدو إلى الفعل الضرورى . وإن تقصّى التفاصيل التى تجرى بها مثل هذه الاحتفالات ليظهر لنا شدة الحاجة إلى حرف الطاقة الطبيعية عن مجراها الأصلى .

يقول يونج إن تحويل الليبيدو إلى رموز لم يزل يجرى منذ فجر الحضارة ، وإنه ليرجع إلى شيء عميق جداً من أصل الطبيعة البشرية . لقد أفلحنا ، على مجرى الزمان ، فى اقتطاع جزء معين من الطاقة وصرفناه عن الانصباب فى مجرى الغريزة ، كما أفلحنا فى تطوير إرادتنا تطويراً لم يزل أضعف مما يحلو لنا أن نعتقد ، لكننا لم نزل بحاجة إلى قوة الرمز التحويلية ، وهى القوة التى يسميها يونج بالوظيفة الإعلائية . Transcendent Function

٥ – تنطوى نظرة يونج إلى الخافية على قيمة أكثر إيجابية من النظرة التى تعتبرها مجرد «قُمامة» نلقى إليها كل ما هو مرفوض طفولى أو حيوانى فينا ، ونودع فيها كل ما نريد نسيانه . صحيح أن هذه الأشياء قد

---

(١) يلاحظ أن فعل «الحراثة» يستعمل فى العربية مجازاً عن «الفعل الجنسى» ؛ جاء فى القرآن الكريم : ﴿ نِسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ﴾ سورة البقرة : الآية ٢٢٣ . .

استقرت في الخافية ، وأن الكثيـر من الذى يقتحم الواعية ذو صفة عَمَائية غير متشكلة ، لكن الخافية من الواعية بمنزلة الرحم من الجنين ، وإنما فى الخافيـة ينبغى لنا البحث عن إمكانيات جديدة للحـياة . والجانب الواعى من النفس أشـبه بجزيـرة يحيط بهـا الماء من كل جهة لا يُرى مـنها إلا الجزء الذى لا يغـمره الماء ، أما الخافـية فهى ذلك المجـهول الذى لا يقع تحت أبصارنا ويمتد عمقًا إلى أسفل القاع .

الجزيرة هى «الأنيّة» Ego العارفة المريدة ، وهى مركز الواعية . لكن الذى يمت إلى الواعـية بسبب ، والذى أعـرفه عن نفسـى وعن العالم ، والذى يستطيع التوجيه والمراقبـة كل هذا ليس من أمر الواعية دائمًا . فأنا أنسى وأكبتُ مـا لا أحبّ ، أو ما ليس مـقبولاً فى المجـتمع . (والكبت repression أن نصـرف انتبـاهنا عن فكرة أو شعـور أو حادث بصـورة متعـمدة ومستمـرة - على درجة متفاوتـة من التعمد والاستـمرار - حتى نستبعد هذه الأشياء من الواعية فى النهاية ، فلا نستطيع استرجاعها . أما الكبح[1] suppression ، - وقد يلتـبس بالكبت - أن نصرف انتـباهنا اضطرارًا عن بعض الأشياء لكى نستطيع الانتباه إلى أشياء أخرى ، لكننا

(١) وضعنا «الكبح» ترجمة لكلمة Supperssion لكى تؤدى هذا المعنى حـصرًا . وربما كان للتجانس اللفظى والتقـارب المعنوى بين «الكبت» و «الكبح» أثر فى إغرائنا باعتماد هذه اللفظة ، خصـوصًا وأن التجانس والتقـارب متوفر فى الكلمـتين الإنجليزيتين . المترجم .

هنا نستطيع استرجاع الأشـياء المصروفة على هذا النحو ، بإرادتنا) وإن لى إدراكات حسـيّة ذات قوة غيز كافيـة لبلوغ الواعية ، وأختبـر الكثير مما لا أفهمه إلا جزئيًا ، أو مما لا أعرفه معـرفة تامة . هذه الإدراكات الرفيعة – بالإضافة إلى ما أختـزنه من ذكريات مكبوتة أو منسيّة – تشكل نوعًا من «بلاد الظل» التى تمتـد جسـرًا بين «الأنيّة» والخافـية ، فـتكون بلاد الظل عندئذ منطقـة لا تغمـرها المياه دائمًا ، بل يكون فى وسـعنا استطلاحـها واسترجاعها . بلاد الظل هذه يسميها يونج «الخافية الشخصية» أو الخاصة personal Unconscious ، تمييزًا لهـا من «الخافية الجامعـة أو العامة» Collective Unconscious ، وهى الجـانب النفـسى الذى يـشكل «الخافية» بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى .

وعلى هذا فالخـافية الخـاصة ، وإن كانت لا تخـضع كلها للإرادة ، يمكننا اسـترجاعـها (كمـا هو الحال فى النوم) إن كـان الكبت ضعـيفًا ، ويمكنها أحيـانًا أن ترجع من تلقاء نفسهـا ، أو بفضل تداع طرأ اتفاقًا أو بفعل صدمة عنيفة . ثم هى قد تتـستر وراء الأحلام والأوهام فتنشأ أمامنا ضرورة ملحة للتنقيب عنها وإخراجها إلى حيِّز الوعى إذا ما أخذت تسبب لنا اضطرابات نفسية كما هو الأمر فى العصاب .

٦ – وللوصول إلى هذه الـذكريات ، اعتـمد يونج المنهج التحليلى الذى يعرف بـ «اختـبارات التداعى» Association Tests ، وهو المنـهج

الذى بدأ باستخدامه فى مطلع حياته العملية . أظهرت له هذه الاختبارات ما للبنية النفسية من خصوصية تتبدّى فى جنوح الأفكار إلى التجمع على نوى (ج. نواة) أساسية معينة . وهذه الأفكار ذات اللون العاطفى يسميها يونج «عقدًا» Complexes . فالنواة ضرب من المغنطة السيكولوجية ، وهى ذات قيمة تضارع قيمة الطاقة . وتقوم تلقائيًا باجتذاب الأفكار إليها بما يتناسب شدة أو ضعفًا مع طاقتها . وتتكون نواة العقدة من عنصرين أساسيين : أحدهما فطرىّ ، والثانى محيطى أو مكتسب ؛ أى إن العقد غير مشروطة بالخبرة وحدها ، وإنما بطريقة الفرد فى رَجعه[1] على تلك الخبرة .

والعقدة واعية أو خافية . والواعية تكون كذلك كليًا او جزئيًا ، وتتوقف معرفتنا بالعقدة على ما إذا كانت واعية كليًا أو جزئيًا ، أو على ما إذا كانت ذات طبيعة خافية تامة . وفى هذه الحالة الأخيرة لا نكون عارفين بوجودها أبدًا . والعقدة ، سواء أكانت واعية جزئيًا أم خافية كليًا، تتصرف وكأنها شخص ذو كيان مستقل ؛ لأن الأفكار والعواطف التى تجمعت حولها تدخل إلى الواعية وتخرج منها دون أن يكون عليها

(١) نقترح «الرجع» ترجمة لكلمة Reaction ، التى جرى العرف على ترجمتها بكلمتى «رد فعل» وهما كلمتان يتعذر استعمالهما وصفًا أو نسبة . أما «الرجع» فيسوّغها استعمالها نسبة أو وصفًا فتقول «رجعى»، وهى ترجمة لكلمة Reactionary . وفى جمع «رجع» نقول «رجوعات» تفاديًا للالتباس «بالرجوع» وهو العودة - المترجم - .

ثمة رقيب . هذا ، ومن التكلّف محاولة إقامة سدّ فيما بين المحتويات النفسية ، لكننا - برغم ذلك - يمكننا القول بعقد ترجع إلى الخافية الخاصة ، وأخرى ترجع إلى الخافية العامة أو الجامعة ، وهى المجال النفسى الذى يشترك فيه الجنس البشرى قاطبة .

٧ - والخافية العامة أو الجامعة طبقة أعمق من الخافية الخاصة أو الشخصية وأبعد منها غوراً ، وهى المادة المجهولة التى نشأت منها واعيتنا. وبوسعنا أن نقدّر وجودها جزئيًا من ملاحظتنا للسلوك الغريزى ، بما أن الغرائز حواضّ على الفعل لا دخل فيها للواعية . والحق إن هناك أفعالاً كثيرة ذات حضّ من الخافية ، ومع ذلك غير جديرة باعتبارها أفعالاً غريزية ؛ ذلك أن الفعل الغريزى «موروث وخافىّ» فى آن ، وهو «يحدث فى كل مكان بصورة واحدة ومنتظمة» . فالغرائز معترف بها عمومًا ، لكن الذى غير معترف به فهمنا للحياة واختبارنا لها على نحو رسمه لنا تاريخنا ، تمامًا مثلما نضطر إلى الفعل وفق خطوط عريضة معينة فى ظروف معينة . لا يريد يونج أن نفهم من هذا أن الخبرة التى نختبرها على هذا النحو أو ذاك خبرة موروثة ، لكنه يرى أن الدماغ البشرى نفه شكلته وأثّرت فيه الاختبارات البعيدة التى اختبرتها البشرية فى عهودها الأولى . فكما أن وراثتنا مكوّنة من مسالك فيزيولوجية ، كذلك أوجدت مسالكنا السيكولوجية السياقات العقلية عند أسلافنا . فإذا عادت هذه الآثار إلى واعية الفرد ، استطاعت أن تفعل ذلك على هيئة

سياقات عـقلية ليس غير . وإذا اتفق لهذه السياقـات أن أضحت واعية ، فـإنها لم تصـر كذلك إلا من خـلال الخبـرة الفردية ، فـتبـدو وكأنهـا مكتـسبـات فردية . لـكن الذى تولت الخبـرة الفرديـة «تعبـئتـه» فى هذه السـياقـات ليس أثراً موجـود سلفًا أو موروث ؛ إنما الموروث هو جـدول الخافية السابق الوجود .

هذا الميل ، أو هذه الحاجـة ، إلى فهم الحيـاة واختبـارها على نحو حدّده تاريخ الجنس البـشرى ، يسمـيه **يونج** ميـلاً بدئيًا . وما النـماذج البدئـية إلا «أشكال الفـهم السابقـة الوجود» (= أى مـوجودة قبـل نشوء الوعى) أو «حالات خلقية من الحدس . . . وكما تجبر الغرائز الإنسان على مسلك بشرى ذى وجه مـخصوص ، كذلك تجبر النمـاذج البدئية الحدس والفهم على صيغ بشرية ذات وجه مخصوص» .

وعلى هـذا إن النمـاذج البدئـيـة شأن من الخـافيـة يمكننا مـعرفـته بواسـطة صور نموذجية معـينة تتردد على النفس ، وقد سمّاها يونج ذات مـرة بـ «الـصور البـدئية» Primordial Images (وهـو تعبيـر استفاده من **يعقوب بركهارت**) ، لكنه مـا لبث حـتـى عـدل عنه إلى اصطلاح النموذج البدئى Archetype الذى يشمل المظهـرين من النفس : الخافـية والواعية .

يذهب يونج إلى أن النمـاذج البدئيـة قد تشكلت على مـدى ألوف السنين عندما بدأ الدمـاغ والوعى البشريان ينفـصلان عن الحالة الحيـوانية

لكن صورهما ، أو نماذجهما البدئية ، فى وقت كانت فيه ذات طبيعة أولية تتصف بالمرونة ، طرأت عليها تعديلات أو تغييرات كانت متطابقة مع العهد الذى ظهر فيه الدماغ والوعى على النحو الذى تقدم ذكره . بعض هذه الصور - ولا سيما التى تدل على تغير هام فى الحياة النفسية - يظهر على أشكال هندسية أو مجردة ، كالمربع أو الدائرة أو العجلة (= الدولاب) . وقد تظهر مفردة ، أو مجتمعة فى شىء من الحذق تشكل معه رمزاً نموذجيًا ذا أهمية خاصة . وبعضها الآخر يتبدّى أشكالاً بشرية أو شبه بشرية ، آلهة وإلهات ، أقزامًا وعمالقة ، حيوانات أو نباتات ، حقيقية أو وهمية ، نجد عليها أمثلة لا حصر لها من علم الأساطير .

والنماذج البدئية نختبرها عواطف وصوراً ، ونلاحظ آثارها خاصة فى الحالات البشرية الهامة والنموذجية ، كما فى الولادة والموت والتغلب على عقبة طبيعية ، وفى المراحل الانتقالية من الحياة كالمراهقة ، أو فى حالات الخطر الشديد أو الذعر . في مثل هذه الحالات كثيراً ما تظهر صور بدئية فى أحلام الإنسان العصرى شبيهة بالصور التى أمكن العثور عليها فى كهوف «أوفيران» .

٨ - ويذهب يونج إلى أن الأحلام آثار طبيعية وعفوية تصدر عن النفس ، وتستحق منا أن نوليها الاهتمام اللازم ونأخذها مأخذ الجد ، بما تحدثه فينا من آثار خاصة بها حتى وإن لم نستطع إدراك هذه الآثار أو

فهمها . ولغة الأحلام لغة رمزية تتوسل بالتشبيهات للتعبير عن نفسها ؛ ومن هنا غموضها أو لغوها البادى .

والخافية العامة يمكننا استنتاجها من الإنسان السوىّ مما يتبدّى فى أحلامه من آثار بيّنة على الصور البدئية ، وهى صور لم يكن له بها معرفة واعية . وإنه يصعب علينا أحيانًا أن ننفى مثل هذه المعرفة (ولعل باستطاعتنا دومًا أن نقول باحتمال وجود «كريبتمنيزيا»[1]) ، ولكننا نجد فى حالات معينة من الاضطراب العقلى تطورًا مدهشًا للتخيل الميثولوجى لا يمكننا أن نعزوه إلى الخبرة الفردية الخاصة .

ويقدم لنا يونج مثالاً على هذه الظاهرة حالة كان يتولى العناية بها فى أحد المستشفيات العقلية فى عام ١٩٠٦ . كان صاحب هذه الحالة مجنونًا كثير الاضطراب أحيانًا ، لكنه كان فى فترات هدوئه يصف رؤى غريبة وتصدر عنه صور وأفكار رمزية غريبة جدًا . ولم يكن قد ألقى الضوء على هذه الصور والأفكار إلا فى عام ١٩١٠ ، حين عثر يونج على بردية إغريقية انفكت رموزها حديثًا وكانت تتعلق بموضوع مماثل لرؤى المريض وأفكاره . يقول يونج :

«حدثت رؤى المريض فى عام ١٩٠٦ ، ونشر النص الإغريقى لأول مرة فى عام ١٩١٠ . ولذلك يجب أن نعتبرهما أمرين منفصلين أحدهما

---

(١) الكريبتمنيزيا cryptomnesia شىء قرأناه أو سمعناه ثم نسيناه ثم عاد إلى الذاكرة بطريقة خافيّة(=لا شعورية) فيخيل إلينا أننا نقرؤه أو نراه أو نسمعه لأول مرة – المترجم – .

عن الآخر انفصالاً يجعلنا نستبعد إمكانية الكربتمنيزيا من جانبه وتحويل الأفكار من جانبى» .

٩ - أنفق يونج شطرًا كبيرًا من وقته عاكفًا على درس الأساطير ، فهى عنده تعبيرات أساسية عن الطبيعة البشرية . فالأسطورة تشكلها أو تصوغها الواعية ؛ أى إن هذه تعطيها الشكل الذى يكفل لها الانتقال والشيوع . لكن روح الأسطورة ، أو الحضّ الإبداعى الذى تمثله ، والمشاعر التى تعبر عنها أو تستثيرها ، بل لب موضوعها إلى حد كبير - كل ذلك إنما يأتى من الخافية العامة أو الجامعة . صحيح أن الأساطير تبدو وكأنها محاولات لتفسير حوادث الطبيعة ، كشروق الشمس وغروبها، أو قدوم الربيع بكل ما يحمله من حياة جديدة وخصب ، إلا أنها - فى نظر يونج - أكثر من ذلك بكثير ؛ إنها التعبير عن كيفية اختبار الإنسان لهذه الأشياء : هكذا يصبح شروق الشمس مولدًا للبطل الإلهى من البحر ، الذى يقود عربته فى أقطار السماء[1] ، وعند الغروب تكون التّنينة ، الأم الهائلة ، فى انتظاره لكى تبتلعه . وفى جوف التّنينة يسافر فى أعماق اليم ، وبعد معركة رهيبة مع أفعوان الليل يعود فيولد من جديد عند إطلالة الصباح . هذه موضوعات ميثولوجية تعكس بوضوح محاولات بشرية لتفسير السياق الفيزيائى لشروق الشمس

---

(١) هل يمكن اعتبار ذلك استشرافًا للمركبات الفضائية ؟! - المترجم - .

وغروبهـا ، لكن مضـمونهـا العاطفي يجعلها أكثر من ذلك بكثير . فالأقـوام البدائيـون لا يعرفـون تفريقًا حـادًا بينهم وبين بيئتهـم ، فهم يعيـشون حالـة يسميـها «لاوى بروهـل» بحـالة «المشاركـة الصـوفيـة» Participation Mystique يريد بذلك أن ما يحـدث في الخارج يحدث مثله في الداخل أيضًا ، والعكس بالعكس. لذلك تكون الأسطورة تعبيراً عما جرى في المحيطين الداخلي والخـارجي منذ طلوع الشمس ورحلتها في الفضاء حـتى تتوارى في الحجاب عند هبوط الظلام ، مـثلما تكون تفكراً في الحوادث وتفسيراً لها .

وبما أن الأساطيـر تعبيـرات عن الخافية العـامة أو الجامـعة ، لذلك نجدها متماثلة عند جميع الأقـوام وفي جميع الأزمنة . وحين يفقد الإنسان قدرته على صنع الأسـطورة ، يفقد صلتـه بالقوى الإبداعيـة في وجوده . فالدين والشـعر الفـولكلور وحكايات الجن - هذه كلها تتـوقف على هذه القدرة بالذات . فـالرموز أو الأشخـاص المركزية في جـميع الأديان ذات خـاصيّة بدئيـة . لكن في الأديان البـدائيـة أقل منه في الديانات العليـا المتطورة ، لكن طبيعتها البدئية تكون أظهر في الأولى منها في الأخيرة . على أن أكثـر التعبيـرات صدوراً مباشراً عـن الخافية ما نجـده في الأحلام والحالات العقلية الغريبة وفي أوهام الممرورين من ظهور للنماذج البدئية بما هي صـور أوليّة . فـهذه الصـور تبدو عنـدئذ وكأنهـا تمتلك قوة وطاقـة خاصتين بها : تتحرك وتتكلم ، وتدرك وتسعى إلى غرض ، تخدعنا عن

أنفسنا وتسوقنا سوقًا إلى فعل ما يناهض مقاصدنا الواعية مناهضةً كلّية ، توحي إلينا بالخلق والتدمير : بعمل فنّى أو انفجار غوغائى مجنون . هى «الكنز المكنون» الذى ظلت تمتح منه البشرية فى كل زمان ومكان ، منه أقامت آلهتها وشياطينها وجميع الأفكار ذات الأهمية البالغة والفاعلية الشديدة التى بدونها لا يكون الإنسان إنسانًا . لذلك كانت الخافية ، عند يونج ، ليست مجرد «قبو» يلقى إليه الإنسان نفايته ، بل هى أصل الوعى والتدمير عند الإنسان .

١٠ - أن نحاول تحديد الخافية الجامعة أو تعريفها هو أن نحاول المستحيل ، لأنه لا يمكننا أن نعرف حدودها ولا طبيعتها الحقيقية ، بل كل ما يمكننا فعله بإزائها أن نلاحظ بوادرها ونصفها ثم نحاول فهمها على قدر المستطاع . وقد أفرغ يونج معظم جهده فى سبيل تحقيق هذا الغرض . يقول عن النماذج البدئية : «فى الحقيقة ، لا يمكن أن يفهمها فكرنا ، لأنه لم يخترعها أبدًا» . ومع ذلك هناك إمكانية لتمييز أشكال متنوعة منها تعاودنا في الأحلام والأوهام ، يمكن أن نجد لها معادلاً تاريخيًا وميثولوجيًا فى جميع أنحاء العالم . هذه الأشكال اعتبرها يونج نوعًا من النماذج البدئية الرئيسية التى تؤثر فى فكر الإنسان وسلوكه فأسماها «القناع» persona و «الظل» shadow و «الأنيمة» Anima و «الأنيم» Anim و «الشيخ الحكيم» Old wise man و «الأم الأرضية» Earth mother و «النفس أو الذات» The Self .

وهنا أيضًا يجب أن ننبّه إلى أنه لا يوجد فواصل قاطعة فى البنية النفسية ، لأن النماذج البدئية نفسها قد يكون لها وجه شخصى . فصورة الأنيمة مثلاً مشروطة بخبرة الرجل للمرأة على مدى قرون موغلة فى القدم، لأنها - من ناحية ثانية - ذات صلة بالخبرة الفردية التى تتكون من علاقة رجل معين بالمرأة عمومًا . وعلى هذا يكون بعض النماذج البدئية ذا صفة أعم ، وبعضها الآخر ذا طبيعة أخص كالقناع والظل(*) .

(*) عن :

An Introduction To Jung, Psychology By FRIEDA FORDHAM.

مقدمة الطبعة الإنجليزية

بقلم : كاري ف. باينير

فى العقـد الماضى من هذا القرن ، ظهرت بوادر كـثيرة من مـصادر مختلفة تشير إلى أن العالم الغربى يقف على شفا انبعاث روحى جديد ، أو على تحول أساسى فى مـوقفه من قيم الحـياة . فبعد حـقبة طويلة من التوسع الخارجى ، عـدنا لكى ننظر فى أعماق نفوسنـا مرة ثانية . هناك اتفاق عام على الظاهرات التى تحيط بهذا الانتقال المتعاظم فى الاهتمام من الوقائع بما هى كـذلك إلى معناها وقيمـتها بالنسبـة إلينا بما نحن أفراد ، لكن ما إن نبدأ بتحليل التـوقعات التى يحتضنها مخـتلف الجماعات التى يزخر بها عالمنا عن التحول المرتقب حتى ينتهى الاتفاق ، ويقوم بدلاً منه - آراء تختلف وقوى تتصارع .

فالذين يتتصـرون للديانة المستمدة من الوحى يعتقـدون أن الانبعاث الوشيك انبعاث للكثلكة أو للبروتستـانتية ، على حسب ما يكون صاحب هذا الاعـتقاد كـاثوليكيًا أو بروتسـتانتـيًا . وسندهم فى ذلك أنهم يرون

البشر يتـدفقون بالملايين عائدين إلى أحـضان الكنيسة ، حيث يلتـمسون العزاء عـن وقائع الخيـبة والفـواجع التى حلّت بعـالم ما بعـد الحرب ، ويتعلـمون منها الطرق التـى تؤدى بهم إلى الخروج مما هم فـيه من عَمَاء Chaos . ويقولون إن تجـديد إيماننا بالمسيـحية خليق به أن يعـيدنا إلى طريق الحياة الأمين ، ويعيد إلى العالم الوحى الذى افتقده .

وجماعـة أخرى ترى أن الموقف الجديد الذى يتـعين علينا اتخاذه هو القضاء على الدين كما فهـمناه حتى الآن ، قائلة إن الدين ما هو إلا بقايا خلّفتهـا لنا بدائية تؤمن بالخرافة يجب أن يحل محلهـا عهد من «التنوير» جديد ودائم . وما على الإنسان إلا أن يطبق معرفته تطبيقًا صحيحًا ، ولا سيما معرفـته الاقتصادية و «التكنولوجية» حتى تتبدد هـباءً جميع الغيلان الهائلة المتـمثلة بالفقـر والجهل والطمع الخ ، ويستـعيد الإنسان فـردوسه المفـقود . وعندهم إن الانبـعاث يتـعين أن يكون فى نطاق العقـل وحده بحيث يصبح الفكر هو الحكم الذى يقرر مصير الإنسان .

وبين هاتين النهـايتين القُصـويَين ، . الإيمان التقليـدى والعـقلانيـة القاتلة، نجد كل تفاوت فى الرأى يمكننا تصوره حول هذه المشكلة الكبرى المتصلة بالخطوة التـالية التى سوف تخطوها البشـرية فى تطورها النفسى . ولعلّنا نستطيع القـول إن الموقع الوسط يحتله الذين يعلمـون أنهم تجاوزوا المسيحية كما هى متمثلة فى الكنيسة ، ولكنهم لم يضطروا إلى نفى ما فى الموقف الدينى من قيـمة أساسيـة فى الحياة تماثل مـا فى العلم من أصالة

وصحة . هؤلاء اختبروا الروح اختبارًا حيًا كما اختبروا الجسد ، واختبروا الجسد اختبارًا حيًا كما اختبروا الروح ؛ تجلّت عليهم الروح تجلّيات يتعذر شرحها أو تفسيرها بلغة اللاهوت التقليدى أو بلغة المادية الحديثة ؛ ولا يحسّون رغبة فى قطع عُرى التقوى التى يشعرون بها فى أعماق قلوبهم بسبب هيكل الحقائق العلمية التى يمنحها العقل دعمه وتأييده ، بل يؤمنون أنهم لم يصلوا إلى معرفة أوسع عما تؤديه عقولهم من وظائف داخلية ، وإلى معلومات أوفى عن القوانين اللطيفة - المحددة تحديدًا كاملاً مع ذلك - التى تحكم النفس الإنسانية ، لكان بمقدورهم الوصول إلى الموقف الجديد المطلوب ، بدون أن يُلجئهم ذلك إلى الانكفاء نحو ما هو إلا لاهوت القرون الوسطى متسترًا بغُلالة رقيقة من ناحية ، أو إلى الوقوع ضحية أوهام فلسفة القرن التاسع عشر ، من ناحية ثانية .

إلى هذه الجماعة الأخيرة يتحدث يونج بلغة مُقنعة ، ولا يتهرب من المهمة الصعبة القائمة على دمج معرفته بالروح التى اكتسبها على مدى سنين طويلة فى العمل طبيبًا عقليًا ومحللاً نفسيًا ، بذخيرة من المعلومات المتيسرة لكل إنسان والمنطبقة على كل إنسان . ويعطينا المفاتيح التى تفتح لنا مغاليق الطبيعة والوظائف النفسية التى يتلهف الإنسان الحديث شوقًا أن يمسك بها . ووجهة النظر التى يطرحها أمامنا تشكل تحديًا للروح ، وتستثير تجاوبًا فعّالاً عند كل من يشعر فى نفسه بما يحضّه على النمو إلى ما يتجاوز موروثه .

جميع المقالات التى يتألف منها الكتـاب أُلقيت محاضرات إلا واحدة (وهى «مـوازنة بين فـرويد ويونج» كتـبهـا الأخير بناء على طـلب ناشر ألمانى). والنص الألمانى لأربع منهـا نشر فى كـتاب علـى حدة[1] . أما المقالات الأخرى ، مع عدة مقالات غيرها ، قد تضمنها كتاب سبق وظهر بالإنجليزية[2] .

ندين للسيـدة «فـوليت دى لاسلو» بالكثيـر من الاقتراحات المفـيدة المتعلقة بمقـالة «الاختيار بين الطـبيب النفسى ورجـل الدين» . هـذا وقد تفضـل الدكتور يونج والسيدة حـرمه كلاهما بقراءة الترجـمة ونقدها جزئيًا .

Cary F. Baynes

زوريخ ، آذار (مارس) ١٩٣٣

---

(١) هذه المقـالات الأربع هى : «علم النفس والأدب» و «الاخـتبـار بين الطبيب النفـسى ورجل الدين» و «المنطلقات الأساسية فى علم النفس التحليلى» و «تحليل الأحلام فى التطبيق العملى» . وكان نشرها ما بين أعوام ١٩٢٩ و ١٩٣١ .

(٢) ظهر بالألمانية فى زوريخ عام ١٩٣١ تحت عنوان :

See lenprobleme der Gegenwart, Raacher and Cie, Zurich, ١٩٣١

الفصل الأول

تحليل الأحلام فى التطبيق العملى

ما برح موضوع الاستفادة من تحليل الأحلام فى العلاج النفسى يثير الكثير من الجدل . فبينما نجد كثيراً من الممارسين يعتبرونه أمرًا لا غني عنه فى معالجة العُصاب ، وينسبون إلى الفاعلية النفسية المتبدّية فى الأحلام ما ينسبونه إلى الواعية نفسها من أهمية ، نجد فى الطرف المقابل من ينازع فى قيمة تحليل الأحلام زاعمًا أن الأحلام نفسها ما هى إلا نتاج ثانوى من الفاعلية النفسية ، لا أهمية له .

من الواضح أن ينسب امرؤ إلى الأحلام أهمية تطبيقية ، بما هى تعبيرات مباشرة عن الخافية ، إن كان يعتقد بأن للخافية (= اللاشعور) دوراً رئيسيًا فى تشكيل العُصاب ، وأن يقلل من شأن تحليل الأحلام إن كان ينكر أن للخافية وجودًا أصلاً ، أو كان يعتقد ألاّ دور لها فى تطور هذا المرض . ومما يُؤسف له أننا لم نزل نجد إلى اليوم ، ونحن فى العام ١٩٣١ ، من يعتبر الخافية موضع أخذ وردّ ، أى بعد انقضاء أكثر من

نصف قرن على قيام «كاروس» بصياغة مفهومه عن الخافية ، ومرور قرن ونيّف على كلام «كانط» عن «ساحة الفكر المظلمة . . . التى لا قياس لها»، وما يقرب من مائتى عام على وضع «لايبنتس» مسلّمته عن الفاعلية النفسية غير الشعورية ، ناهيك عما حققه «جانيت» و «فورونوى» و «فرويد» فى هذا الميدان .

فى هذه العُجالة سأقتصر على التطرق إلى مسائل العلاج التطبيقى ، ولن أحاول الدفاع عن فرضية الخافية (= اللا شعور) ، رغم أن تحليل الأحلام يثبت أو ينهار بثبات فرضية الخافية أو انهيارها . بدون الخافية ، تبدو الأحلام وكأنه فلته من الطبيعة ليس أكثر ، أو ركامًا لا معنى له مؤلف من شتات الذكريات المتخلفة عن حوادث اليوم . فلو كان الحلم لا شيء غير هذا لم يَسُغ لنا أنّ نتطرق إلى هذا البحث . ولابدّ لنا من الاعتراف بوجود الخافية إن كان لابدّ لنا من البحث فى تحليل الأحلام ؛ لأننا لا نلجأ إليه طلبًا للرياضة العقلية وحسب ، وإنما لأنه أسلوب يكشف لنا عن محتويات النفس الخافية (= اللا شعورية) التى تتصل اتصالاً سببيًا بالعصاب ، وما لهذا الاتصال من أهمية فى المعالجة . ومن يرفضُ هذه الفرضية ما عليه إلا أن يضرب صفحًا عن مسألة تحليل الأحلام وقيمتها التطبيقية .

لكن ، لمّا كانت الخافية تلعب دوراً سببيًا فى تشكيل العُصاب ، بناء على الفرضية التى نذهب إليها ، وكانت الأحلام تعبر تعبيراً مباشراً عن

فاعليــة النفس الخافيّة ، كـانت محاولة تحليل الأحــلام وتفسيرها لهــا ما يبررها تمامًا من الناحـية العلميــة . وبغضّ النظر عن النتائج العلاجـية ، فقــد نأمل من هذه المحاولة أن تفـضى بنا إلى كشفٍ علمى عن السـببـية النفسـية . على أن الكشف العلمى بالنسـبة إلى الممارس مـا هو إلا نتاج ثانوى نَجَمَ مجّانًا عن الجهود التى بذلها فى ميدان المعالجة . فهو لا يشعر أن عليه أن يطبق تحليل الأحــلام على مرضاه لعلّه أن يواتيـه الحظ فيلقى ضوءًا على مشكلة السبـبية النفسية ، لكنه يعـتقد أن الكشف الحاصل ذو قيمة عــلاجية ، وعندئذٍ يعتبر تحليل الأحلام من واجبـات الحرفة . ولقد بات مَن الأمور المعروفة أن مدرسة «فرويد» تذهب إلى أن الشفاء يحصل بواسطة إلقاء الضوء على العوامل السببيـة الخافيّة بشرحها للمريض شرحًا يجعله عالمًا بمصادر اضطرابه .

إذا سلّمنا بأن الوقائع تؤيد هذا الأمل ، أمكننا الاقتصار على الأسئلة المتعلقة بإمكانية أن يتيح لنا تحليل الأحلام أن نكشف عن أسباب العصاب الخافيّة من غير أن نستـعين بشىء آخر ، أو أن نتبع أساليب أخرى زيادة على تحليل الأحــلام . أمــا أنا فـأرى أن الجـواب «الفــرويدى» على هذه الأسئلة هو من قبيل المعرفة العامة . وخـبرتى الشخصية تثبت هذه النظرة بما وجدته من أن الأحــلام تكشف كشفًا مطردًا لا يخطىء عن المحـتويات الخافيّة التى تشكل العوامل المسبـبة فى العُصاب والأحلام التى تكشف لنا عن هذه العــوامل هى الأحـــلام الأوليـة ، فى الأعم الأغـلب ؛ وأعنى

بالأحلام الأوليــة الأحلام التى يرويهــا المريض عند بدء المعــالجة . وهذا إيضاح لعله أن يعيننا .

جاءنى مرّة رجل يحتل منصبًا بــارزًا فى العالـم ، كان به قلق وفقدان أمن ، ويعــانى أحيــانًا من إغمــاء ينتج عنه غـثيــان ومن ثقل فى الرأس وضيق فى التنفس ؛ هذه الأوصاف تنطبق على أعراض «مرض الجبال» . وكان الرجل أصــاب فى حياته نجــاحًا منقطع النظير ، إذ اسـتطاع بفضل جدّه وطموحــه ومواهبه أن يرتفع فوق نشأته المتواضــعة بما هو ابن لفلاح فقير . ثم أخذ يصعــد السلّم درجةً درجةً حتى وصل إلى مركز هام أتاح له فرصــة الحصول عــلى مزيد ارتقاء فى السلّم الاجـتمــاعى . وقد وصل بالفــعل إلى مكانة فى الحــياة كــان يستطيــع أن يبدأ منهــا صعــوده إلى الدرجات العليا عندما ألمّ به العــصاب على حين فجأة . وعند هذه النقطة لم يتمــالك من إبداء ذلك النوع من التــعجب الذى يبدأ عــادة «بمثل هذه الكلمات : «فى هذا الوقــت بالذات ، عندما بدأتُ . . .» لقد كــان ظهور جمــيع أعراض «مرض الجبــال» عليه مما يتناسب مع وضعــه الخاص الذى وجد نفسه فيه . وعندما جاء لاسـتشارتى كان معه حلمان رآهما فى الليلة السابقة .

كان الحلم كما يلى :

«وجــدتُنى مرة أخــرى فى القــرية التى ولدت فــيهــا . بعض أولاد الفلاحين الذين كانوا يذهبون معى إلى المدرســة كانوا يقفون فى الشارع .

مررت أمامهم متظاهرًا أنى لا أعرفهم سمعت أحدهم يقول مشيرًا إلىّ : لا يعود كثيرًا إلى قريتنا؟» .

لا حاجة بنا إلى التحايل على التفسير لكي نفهم الإشارة إلى البدايات المتواضعة فى حياة صاحب الحلم . الحلم يقول له فى وضوح تام: نسيت كم كنت وضيعًا فى بدايتك» .

ويمضى الحلم الثانى على النحو التالى :

«أنا فى عجلة من أمرى لأنى ذاهب فى رحلة . فتشت عن حقائبى فلم أعثر عليها . الزمن يمضى سريعًا ، والقطار سيغادر فى الحال . أخيرًا أفلحت فى جمع أغراضى بعضها إلى بعض . هرولت فى الشارع فاتضح لى أننى نسيت محفظة صغيرة تحتوى على أوراق هامة . انفتلتُ راجعًا حتى وجدتها ، ثم جريت راكضًا إلى المحطة وما كدت أجد طريقى إلا بشق النفس . ثم بذلت قصارى جهدى واندفعت نحو الرصيف فألفيتُ القطار ينفث البخار فى الرحبة كان قطارًا طويلاً ، يجرى فى منعرج غريب على شكل S . خطر ببالى أن لو كان السائق طائشًا وأطلق العنان للبخار عندما يصير فى المدى المستقيم إذن لظلت حافلات المؤخرة فى المنعرج وانقلبت من شدة السرعة . وفعلاً فتح السائق المخناق وأنا أحاول أن أصيح به محذرًا ، فأخذت حافلات المؤخرة تهتز هزًا عنيفًا ثم انقذفت بعيدًا عن السكة . كانت كارثة رهيبة . ثم استيقظت مذعورًا» .

هنا أيضًا نستطيع أن نفهم الوضع الذى يمثله الحلم بدون صعوبة كبيرة. فهو يصور مقدار ما لدى المريض من عجلة محمومة فى سبيل تحقيق المزيد من التقدم لنفسه . ولما كان سائق القطار الذى في المقدمة يمضى قُدُمًا بدون تفكير في العواقب ، راحت الحافلات الخلفية تهتز ثم تنقلب ؛ أى أن العُصاب يتفاقم ، ومن الواضح أن المريض كان بلغ فى هذه الفترة أعلى نقطة فى حياته ؛ أى أن الجهد الذى بذله لكى يرتقى بعيدًا عن نشأته الوضيعة قد استنفد منه جميع قواه ؛ كان عليه أن يرضى بما حققه ، ولكنه اندفع - بدلاً من ذلك يحدوه الطموح لعله يبلغ قممًا أعلى من النجاح لم يكن مناسبًا لها ، فكان هذا العُصاب بمثابة تحذير له. لقد حالت الظروف دون قيامى بمعالجة هذا المريض ؛ وهو لم يُبد ارتياحه لتشخيصى لحالته . وكانت النتيجة أن أخذت الحوادث مجراها فى الطريق الذى أشار إليه الحلم . لقد حاول استغلال الفرص التى سنحت له وداعبت مطامحه فجرى جريًا عنيفًا بعيدًا عن السكّة حتى تحطم قطار حياته الفعلية . وقد سمحت لنا استعادة المريض لذكرياته أن نستنتج أن «مرض الجبال» قد أشار إلى عجزه عن التسلق إلى أعلى مما وصل إليه . وقد عزّز هذا الاستنتاجَ أحلامُه التى عرضت عجزه بما هو أمر واقع .

هنا نصل إلى إحدى خصائص الأحلام التى يجب أن تأخذ المحل الأول فى كل بحث يتناول تطبيق الأحلام فى معالجة العصاب . فالحلم

يعطينا صورة واضحة عن الحالة الذاتية أو الشخصية ، بينما يرفض العقل الواعى أن يعتـرف بوجود هذه الحـالة ، أو لا يعتـرف بها إلا مكرَهًا إن أنيّة[1] المريض الواعيـة لا تستطيع أن ترى سببًا لعدم مضـيّه قُدُمًا ؛ لقد واصل كفاحه فى سبيل التقدم ، رافضًا أن يسلّم بالحقيقة التى جعلت منها الحوادث التـالية بالغة الوضـوح ؛ وهى أنه بات فى نهاية المطاف عـاجزًا فعلاً . فى مـثل هذه الحالات ، عندما نصغى إلى إمـلاء العقل الواعى ، نكون فى شك دائمًا . إذ نستطيع أن نصل إلى نتائج مضادة للنتائج التى توصلنا إليهـا اعتمـادًا على الذكريات التى يسـتعيـدها المريض . فجندى الصف قد يحمل عـصا المارشالية فى حقيـبة ظهره ؛ وكم من ولد لأبوين فقيـرين وصل إلى أعلى ذرى النجاح ! فلماذا لا يكون الأمـر كذلك في حالة هذا المريض ؟ ولما كـان رأى غير معصـوم عن الخطأ ، فلماذا يكون تخمينى أدعى إلى الثقة من تخمـينه ؟ عند هذه النقطة يتدخل الحلم فيعبر عن سياق نفـسى غير إرادى لا يقع تحت سيطرة النظر الواعيـة ، إذ يعبر عن حالة الذات على ما هى عليه فى واقع الأمر . فهو لا يحترم تخميناتى ولا آراء المريض فيما يتعلق بما يجب أن تكون عليه الأشياء ؛ إنما ينبئنا بما هى عليه فقط . ولذلك اعـتمدت قاعدة وضع الأحلام على صـعيد واحد مع الحوادث الفيـزيولوجية . فإذا ظهر فى البـول سكر ، كان معنى ذلك أن فى البول سكرًا ، لا زلالاً ولا يورروبـلينا أو شيئًا آخـر قد أذهب إلى

(١) الأنيّة (بتشديد اليـاء) هى الترجمة التى اخـترناها لكلمة Ego ، والتى ترد كثـيرًا فى المصطلح الصوفى - المترجم - .

توقعه . وهذا يعنى أننى أعدّ الأحلام وقائع لا تقدّر بثمن فى عملية التشخيص diagnosis .

إن طريق الأحلام معدٌّ لكى يعطينا أكثر مما نطلب ؛ وإن هذا لينطبق على الحلمين اللذين رويتهما تواً على سبيل التوضيح ؛ إذ هما لم يُتيحا لنا أن نطّلع على أسباب العُصاب وحسب ، وإنَّما زودنا بالمطالعة prognosis[1] أيضًا . أكثر من ذلك ، لقد بيّن لنا الحلمان عند أى نقطة ينبغى لنا البدء بالمعالجة : يجب أن يُمنع المريض من المضىّ إلى أبعد مما وصل إليه . وهذا بالضبط هو ما أنبأنا به نفسه فى الحلم .

لكن النقطة هى أن هناك نوعًا من العُصاب لا تنكشف أسبابه الحقيقية إلا فى نهاية التحليل ، وهناك أنواع منه لا يجدى الكشف عن أسبابه شيئًا . وهذا يعيدنا إلي وجهة نظر «فرويد» التى أشرنا إليها آنفًا، ومفادها أن من الضرورى - لأغراض العلاج - أن يعرف المريض معرفة واعية بالعوالم السببية التى أدّت إلى اضطرابه ؛ وهى وجهة نظر لا تعدو أن تكون إحياء للنظرية القديمة المتعلقة بالارتضاض . لا يُنكر أن كثيراً من حالات العصاب ترجع إلى أصل ارتضاضى ؛ لكن الذى أنازع فيه فقط هو أن تُردَّ جميع أنواع العصاب إلى هذا الأصل وأنها جميعًا ناشئة عن خبرة طفولية حاسمة . ينتج عن النظر إلى المسألة على هذا

(١) يُقصد بالمطالعة الرأى الذى يعطيه الطبيب عن تطور حالة المريض بعد الكشف عليه وتشخيص علّته - المترجم - .

النحو طريقـة في المعالجـة تقوم على تلمّس أسبـاب العصـاب في ماضي المريض ، مما يتعيّن معه على الـطبيب أن يسأل دائمًا : ما السبب ؟» وأن يهمل السـؤال الآخر : «لأي غرض ؟» . وهذا كـثيرًا مـا يلحق بالمريض ضررًا كـبيرًا ، لأنه مـضطر إلى التفـتيش في ذاكرتـه - وربما على مدى سنوات - عن حادث مفترض في طفـولته ، في وقت تكون فيه أمور ذات أهمية آنية قد أُهملت إهمالاً فظيعًا . المعالجة السببية الصرف أضيق من أن تنصف ما للحلم أو العـصاب من أهمية . ويكون الطبـيب منحازًا (إلى وجهة نظر معينة)[1] إذا لم يلتفت إلى الأحـلام إلا من أجل غرض واحد هو الكشف عن السـبب الخفيّ الكامن وراء العـصاب ، غـاضًا بصره عن القسم الأعظم من مـساهمة الحلم الفـعلية . والحلمان اللذان رويتهـما توًا يُظهران العـوامل المكونة للعصـاب ظهورًا لا يدع مجـالاً للخطأ ، بل من الواضح أنهما يزودواننا بالمطالـعة المتعلقة بمآل المرض وباقتراح بشـأن سير العلاج . زد على ذلك أنه يجب ألاّ يغرب عن بالنا أن من الأحلام ما لا يتطرّق إلى أسباب العـصاب ، وإنما يتنـاول مـن القضـايا ما يخـتلف اختـلافًا كليًا ؛ مـن ذلك مثـلاً موقف المريض من الطـبيب - بودّي أن أبيّن ذلك بروايـــة ثلاثة أحلام لمريض واحد ، وكان امرأة . استشارات ثلاثة مـحللـين، وعند بداية كل استـشارة كـانت ترى واحـدًا من هذه الأحلام :

---

(١) العبارة بين القوسين من وضعنا - المترجم - .

الحلم الأول : «يجب أن أقطع الحدود إلى البلد المجاور ؛ لكن لا أحد يدلني أين تقع نقطة الحدود وأنا لا أستطيع أن أجدها» .

المعالجة التي أعقبت هذا الحلم انتهت إلى الفشل ، وسرعان ما توقفت .

الحلم الثاني : «يجب أن أقطع الحدود ، الليل حالك الظلام . ولا أستطيع أن أجد دار الجمارك ، بعد تفتيش طويل رأيت عن بعد مصباحًا صغيراً واعتقدت أن نقطة الحدود تقع ثمة . لكن ، لكي أبلغها ، يقتضى أن أقطع واديًا وأمر في غابة مظلمة . هنا فقدت حس الاتجاه . ثم لاحظت أن شخصًا يصحبني . سرعان ما تعلق بي كالمجنون . استيقظت مذعورة» .

انقطعت هذه المعالجة أيضًا بعد بضعة أسابيع ، والسبب هو أن المريضة قد ضلت الاتجاه تمامًا بسبب مواحدة المحلل بها مواحدةً خافيّة (= لا شعورية) .

الحلم الثالث : «وقد رأته المريضة عندما وصلت إليّ . هكذا يمضي الحلم : «يجب أن أقطع الحدود ، أو لعلني قطعتها ، ووجدتُني في دار الجمارك السويسرية . ليس معي سوى محفظة يدي ، وأعتقد أن ليس عندي ما أصرح عنه . لكن موظف الجمرك يفتش في حقيبة يدي ويُخرج منها - يا لدهشتي - فراشين بالحجم الكامل» .

تزوجت المريضة فى أثناء معالجتها عندى ، لكن ليس من دون مقاومة عنيفة لهذه الخطوة ، ولم يتضح لى سبب مقاومتها العصابية إلا بعد شهور عديدة ، ولم يكن فى هذه الأحلام إشارة إليه .

كانت هذه الأحلام جميعًا استشرافًا لما سوف تلاقيه المريضة من صعوبات مع المحللين الذين قصدتهم لأجل العلاج .

وبوسعى أن أروى أحلامًا كثيرة أخرى تئول إلى نفس الغرض . لكن هذه الثلاثة كافية لأن تبيّن لنا أن من الأحلام ما يكون ذا صفة استشرافية ، وفى هذه الحالة لابد لها أن تفقد معناها الخاص لو نحن عاملناها على أساس البحث عن أسباب العصاب حصراً . تمدّنا هذه الأحلام بمعلومات هامة عن الوضع التحليلى ، وهى بالغة الأهمية لأغراض العلاج حين نفهم هذا الوضع فهمًا صحيحًا . لقد فهم الطبيب الأول وضع المريضة فأرسلها إلى الطبيب الثانى . وهنا استخلصت المريضة النتائج التى توصلت إليها من أحلامها وقررت أن تترك . وجاء تفسيرى لحلمها الثالث مخيّبًا لها كثيراً ، لكنها تحلت بشجاعة متميزة وصممت على المضى قُدُمًا برغم كل الصعوبات ، بما أورده حلمها الثالث عن اجتيازها للحدود .

تكون الأحلام الأولية - على الأغلب - شفافة وصريحة حتى لتبعث على الدهشة . لكنها ما تلبث حتى تفقد وضوحها كلما قطع التحليل

خطوات إلى الأمام . فإن تبيّن لنا أنها أحلام استثنائية وظلت محافظة على جلائها ووضوحها ، أيقنّا أن التحليل لم يمسّ حتى الآن جانبًا هامًا من الشخصية . الأصل فى الأحلام أن تقل شفافيتها وتوغل فى الإبهام بعد بدء العلاج مباشرة حتى ليصبح تفسيرها من الأمور الصعبة . ولعل هناك سببًا آخر لهذه الصعوبة هو أن يصل الطبيب فيها إلى نقطة يصبح معها غير قادر على فهم الوضع فى مجمله ، فيما لو قيلت الحقيقة . هذا هو ما عليه الأمر فى حقيقته ، أما أن نقول إن الأحلام غير مفهومة ، فهذا القول ما هو إلا انعكاس لرأى الطبيب الذاتى . لا شىء يستعصى على الفهم ؛ وإنما تبدو الأشياء غير مفهوم ومختلطة عندما لا نفهمها . الأحلام واضحة بحد ذاتها ، بمعنى أنها هى ما يجب أن تكون عليه وفق الشروط المعطاة . ونحن لو عدنا نتدبر هذه الأحلام «غير المفهومة» فى مرحلة متأخرة من العلاج ، أو بعد انقضاء بضع سنوات ، لأصابنا ذهول مما كنا فيه من عمى . ومن الحقائق المقررة أننا كلما قطعنا شوطًا فى التحليل صادفتنا أحلام بالغة الغموض بالقياس إلى الأحلام الأولية . لكن على الطبيب ألا يسرف فى الاعتماد على اختلاط الأحلام المتأخرة أو غموضها ، أو يسرف فى اتهام المريض بالمقاومة متعمداً ، بل حرىّ به أن يسلم بهذه الواقعة دليلاً على مبلغ عجزه عن تفهم الوضع . كذلك يميل طبيب الأمراض العقلية إلى وصم المريض بـ «الاختلاط» ، على حين أنه يُحسن صنعًا لو اعترف بأنه إنما «يُسقط» اختلاطه هو على المريض ويسلم

بذلك ، ذلك أن تفهمــه هو الذى أضحى مختلطًا فى الحقيــقة إزاء غرابة مسلك المريض . رد على ذلك أن من الأمور البالغة الأهمية فى العلاج أن يسلم المحلل بقلة فهمــه من وقت إلى آخر ، لأنه ليس أثقل على المريض من أن يكون مفــهومًا دائمًا . والمريض يعــتمــد كثيــرًا على ما يتــمتع به الطبيب من ثاقب النظر ، وهو إذ يحتكم إلى غروره المهنى إنما ينصب له فخًا مــحفــوفًا بالخطر . والمريض إذ يلجــأ إلى ثقة الطبــيب بنفســه وإلى «عمق» تفهمــه إنما يفقد كل إحساس له بالواقع ويتــورّط فى تحويل معاند ويؤخر من أجل الشفاء .

الفــهم سيــاق ذاتى وقد يكون مــن جانب واحط فــقط ، بمعنى أن الطبــيب يفهم فى وقت لا يفــهم فيه المــريض . وفى مثل هذه الحــالة قد يشــعر الطبــيب أن من واجبــه أن يقنع المريض ، وعندما لا يســمح هذا الأخير لنفسه بالاقتناع يتهــمه الطبيب بالمقاومة . وعندما يقع عبء الفهم كله على عاتقى يكــون من الحكمة أن أتنبّه إلى ما فى فــهمى من نقص . أن يفهم الطبــيبّ أو لا يفهم أمر قــليل الأهمية نسبيًا ، إذ إن كل شىء يتوقف على فــهم المريض . ما نحتاج إليــه حقًا اتفاق متبــادل يأتى ثمرة لتفكيــر مشــترك . ويكون الفهــم من جانب واحد ، وبالتــالى محــفوفًا بالمخاطر ، إذا حكم الطبــيب على حلم من منطلق عقــيدة معينة وأصدر مطالعتــه التى قد تكون صحيــحة من الوجهــة العلمية ؛ وقد تكون غــير صحيحة أيضًا بمعنى أنها ربما تستبق نمو المريض الفعلى فتؤدى إلى تعطيله

إنما نتوجه إلى عقل المريض إذا أردنا أن نقسره على حـقيقة معينة ؛ لكن لو نعاونه على النمو إلى مستوى هذه الحـقيقة نكون قد وصلنا إلى قلبه ، وهذا التوجه أكثر عمقًا وجدوى .

عندما يقوم تفسيـر الطبيب حصرًا على نظرية أحادية ، أو على رأى مُبيَّت ، تكون فرصته لإقناع المريض ، أو للوصول به إلى نتيجة شافية ، متـوقفة على الإيحـاء بصورة أساسـية . ولا ينبغى لأحـد أن ينخدع عن حقيقة الإيحاء وما يـتركه من آثار . فالإيحاء بحد ذاته ليس بالشيء الذى يجب الزراية به ؛ وإنما هو تحديـد خطير ، ويؤثر فى استـقلال شخصـية المريض تأثيرًا غير مرغوب فيه أبدًا . قد يكون مفروضًا فى المحلل الممارس أن يؤمن بما لتوسعة الوعى من قيمة وأهمية - وأعنى بتوسعة الوعى سياقًا يُخرج إلى النـور أجزاء من الشخـصيـة كانت خـافيّة فى السابـق ويقوم بتمـييزها ونقدها نقـدًا واعيًا . وهى مهمـة تتطلب من المريض أن يواجه مشكلاتـه ، وتفرض عليه أن يسـتجـمع قواه لكى يحـاكم ويتخـذ القرار الواعى . وهى مهـمة ليست أقـل من تحدّى حسـه الأخلاقى ، ونداء إلى حمل السلاح واجبُ تلبيته يقع على الشخـصية فى مجملها . ولذلك كان المنهج التحليلى ، بالنسـبة إلى نموّ الشخصية ، يقع فى مـستوى أعلى من مناهج المعالجة التى تعتمد على الإيحاء . فالإيحاء ضرب من السحر يعمل فى الظلام ولا يضع الشخصـية فى مواجهة مطاليبهـا الأخلاقية . ومناهج المعالجة التى تعتمد على الإيحاء إن هى إلا بدائل مؤقتة وخادعة ، لا تتفق

مع مبادىء العـلاج التحليلى وينبغى تجنبهـا . لكن الإيحاء لا يمكن تجنبه إلا إن كان الطبيب عالمًا بالأبواب الكثيـرة التى يستطيع أن ينفذ منها . إذ يبقى ، فى أحـسن الظروف ، إيحاءً خافـيًا (= لا شعوريًا) كـافيًا ، بل أكثر من كافٍ .

يجب على المحلل الذى يريد استـبعاد الإيحاء الواعى أن يعـتبر كل تفسير لحلم لا ينال موافقة المريض تفسيرًا غير صالح ، وعليه أن يواصل البحث حـتى يعثر على صيـغة تنال موافقـته هذه قاعدة أعتـقد أنه يجب مراعاتهـا دائمًا ، خصوصًا فى التعـامل مع الأحلام التى يكون غمـوضها دليلاً على قلة تفـهم ، من جانب الطبيـب والمريض على السواء . يجب على الطبيب أن يعتـبر كل حلم رحلة جديدة ، ومصـدرًا للمعلومات عن أحوال مـجهولة ينبـغى له أن يتعلم منها بمقـدار ما ينبغى أن يتـعلم منها المريض . وغنىٌ عن البيان أنـه يجب عليه ألا يتبنّى آراء مُبيتـة مبنية على نظرية معيـنة ، بل يجب أن يكون على أهبة الاستعـداد ، أمام كل حالة مفردة ، أن يُشيّد نظرية جـديدة عن الأحلام كل الجدّة . إذ ما تزال هناك فرصة لا حدود لها من أجل عمل رائد فى هذا المجال .

النظرة التى تذهب إلى أن الحلم مـا هو إلا تحقيق وهمـى للرغـبات المكبوتة ، هذه النظرة قد صُرف النظر عنها منذ أمد بعيد . صحيح أن ثمة أحلامًا تمثل رغبات ومخاوف مكبوتة ، لكن ما الشىء الذى لا يستطيع أن يمثله الحلم عند الاقتضاء ؟ قد تعبـر الأحلام عن حقائق لا مهرب منها ،

وعن أحكلام فلسفيـة ، وأوهام وتخيلات وحشـية ، وذكريات وخطط ، وتكهنات واختبارات غير عقلية ، وحتى عن رؤى تواصلية (= تلباطيقية)، وعما سوى ذلك مما لا يعلمه إلا الله . شيء واحد يجب ألا ننساه أبداً : نكاد نقضى نصف حياتنا فى حالة خـافيّة (= لا شعورية) تقريبًا . والحلم لغة الخافية تخصيصًا . يمكننا أن نسمى الواعية نهار النفس الإنسانية ، فى مقابل الجانب الليلى من الفعالية النفسية الخافيّة ، الذى هو بمثابة أضغاث أحلام . من الثابت أن الخافية لا تتكون من الرغبات والمخاوف وحسب ، وإنما من أكـثر من ذلك بكثـير ، ومن المحـتمل جـدًا أن تنطوى النفس الخـافيّة على ثروة من المحـتويـات والأشكال الحيّة تسـاوى - إن لم تكن تفـوق - ما تنطوى عليـه الواعـية ، التى تتـميـز بالتـركيـز والتحـديد والاستبعاد.

أما وإن الحالة على ما قد قدّمنا ، فقد بات من المحتم ألا ننتقص من معنى الحلم بحيث يأتى مفصلاً على مقاس عقيدة ضيقة . يجب أن نتذكر أن المرضى الذين يجيدون لغة الطبـيب الفنية أو النظرية ليسوا بالقليلين ، وأن هؤلاء إنما يفـعلون ذلك حتى فـى أحلامـهم . ما من لغـة لا يمكن التعـسف فى استـعمالهـا ؛ وإنه لمن الصعب أن ندرك مـقدار مـا ننخدع باعتساف الأفكار ؛ حتى ليبدو الأمر كـما لو أن للخافية طريقتها فى خنق الطبيب بأحـابيل نظريته . أمـا وإن الأمر كله كذلك ،فـإنى - وأنا أقوم بتحـليل الأحلام - أضرب صـفحًا عن النظريـة على قدر ما أسـتطيع .

بطبيعة الحال ، ليس فى وسعنا أن نتخلى عن النظرية تمامًا ، لأننا نحتاج إليها لكى نفهم الأشياء . فمثلاً ، إنى إذ أتوقع أن يكون للأحلام معنى، فثمة أحلام لا يستطيع أن يفهمها الطبيب ولا المريض . ولكن يجب علىّ أن أعتبرها ذات معنى على أساس الافتراض لكى أجد فى نفسى الشجاعة على التعامل معها أصلاً . والقول بأن الأحلام تسهم إسهامًا بالغ الأهمية فى المعرفة الواعية ، وأن الحلم الذى لا يفعل ذلك لهو حلم لم نستطع تفسيره أصولاً - هذا القول أيضًا عبارة عن إبانة نظرية . لكن يجب على أن أتبنى هذه الفرضية لكى أوضح لنفسى لماذا أقوم بتحليل الأحلام . ومن ناحية ثانية ، كل فرضية حول طبيعة الحلم ووظيفته وبنيته إن هى إلا قاعدة عملية قائمة على الخبرة والتطبيق يجب أن تخضع إلى تعديلات متواصلة . يجب ألا ننسى ، ولو لحظة واحدة أننا إذ نحلل الأحلام فإنما نتحرك فوق أرض غير مأمونة حيث لا يقين فيها إلا الشك .

ولعل خير تحذير نوجهه إلى مفسر الأحلام - لولا أنه تحذير بالغ التضارب - هو «افعل كل ما يحلو لك ، لكن إياك أن تحاول الفهم !» .

عندما نتناول حلمًا غامضًا ، لا تكون مهمتنا الأولى فهمه وتفسيره ، بل تشييد السياق context بعناية فائقة . إن ما أريد قوله ليس دفقًا لا حدود له من «التداعى الحر» الذى يبدأ من كل صورة فى الحلم بل إنارة

واعية ودقيـقة لهذه السلسلة من التداعى التى تتصل اتصالاً مـباشراً بصورة معـينة . يجب أن يتعلم كـثيـر من المرضى القيـام بهذه المهـمة ، لأنهم يشبهون الطبيب فى رغبتهم الملحّة فى الفهم والتفسير الفورى . وهذه هى بالضبط حالتهم عندما يتـعلمون - أو بالأحرى «يتجهلون» - مما قرأوا أو مما سمـعوا عن تحليل سابق تم بصورة خـاطئة . فهم يعطوننا تداعـياتهم طبقًا لنظرية معينة ؟ أى إنهم يحاولون أن يفهموا وأن يفسروا ، وهم فى هذا لا يكادون يحصدون إلا الفشل . إنهم كالطبيب - يريدون أن ينفذوا رأسًا إلى ما وراء الحلم استنادًا إلى أساس غيـر صحيح يقول بأن الحلم ما هو إلا واجهة تخفى وراءها المعنى الحقـيقى ، ربما جاز لنا أن نسمى الحلم واجهة ، لكن يجب أن نتـذكر أن واجهاتِ معظم البيـوت لا تحتال علينا ولا تخادعنا ؛ وإنما تتبع مخطط البناء وغالبًا ما تبين عن ترتيبه الداخلى. صورة الحلم «الظاهرة» هى الحلم نفسه مشـتملاً على المعنى «المستتر» . إذا وجدت سكراً فى البول ، فمعنى ذلك أنه سكر ، لا واجهة تخفى وراءها الزلال . عندما تكلم «فرويد» على «الحلم - الواجهة» ، لقد تكلم ، فى واقع الأمر ، لا عن الحلم نفسه وإنما عن غموضه . وهو عندما فعل ذلك قد «أسـقط» على الحلم عجزه عن الفـهم . وإنما نقول إن للحلم واجـهة زائفة لأننا نعجـز عن النفاذ إلى داخله . وحرىّ بنا أن نقـول إننا نتعامل مع شىء أشـبه بنص لا نسـتطيع فهـمه ، لا لأن له واجهـة بل لأننا لا نستطيع قـراءته . قبل أن ننفذ إلى مـا وراء هذا النص ، يجب أن نتعلم القراءة .

إننا نفلح فى قراءة الأحلام إذا نحن شيّدنا سياقها على نحو ما أسلفنا قبل قليل . ولن نفلح أبدًا ما دمنا نستعين بالتداعيات الحرة بأكثر مما نفلح لو استعنّا بهـذه الوسيلة على حل رموز كتـابة «حثيّة» . التداعـيات الحرة تساعدنى على كـشف الغطاء عن جميع عقدى الخـاصة بى ؛ لكننى لكى أصل إلى هذا الغرض لا أحتـاج إلى البدء انطلاقًا من الحلم ؛ بل يكفى من أجل ذلك أن أتناول جـملة فى صـحـيـفـة يوميـة أو عـلامـة «تمنع الدخول». لو استـخدمنا التداعى الحر فى تحليل حلم ، لتصاعـدت عقدنا إلى السطح تصـاعدًا كـافيًا ؛ لكننا عندئـذٍ لا نستطيع الكشف عن مـعنى الحلم . لكى نكشف عن مـعنى الحلم ، ينبـغى لنا أن نبقى عنـد أقرب شىء إليه ، إلى الصور نفسها . فلو حلم امـرؤ بطاولة خشبية ، وربطها بمنصة كـتابتـه غيـر المصنوعة من الخب ، لم نصنع إلا القليـل . فالحلم يشير إشارة صريحة إلى طاولة خشبية ، وإذا لم يحدث للحالم شىء عند هذه النقطة ، فإن تردده معناه أن ظلمة مـخصوصة تكتنفُ صورة الحلم ؛ وهذا أمر مـشكوك فيه . قد نتـوقع منه أن يربط عشرات الأشـياء بطاولة الخشب ، فإذا لم يستطيع أن يربطهـا ولا بشىء واحد ، كان معنى ذلك أن علينا - فى مثل هذه الأحوال - أن نرجع إلى الصـورة مرة بعد مرة . وعندئذٍ تجـدنى أقول للمـريض : «هب أننى لا أعـرف ماذا تعنيـه طاولة الخشب . صف لى هذا الشىء» . بهذه الطريقـة نفلح فى تثبيت جزء لا بأس به من سيـاق صورة الحلم الخاص بهـا . عندما نفعل ذلك بجـميع صور الحلم ، نكون مستعدين لمغامرة التفسير .

كل تفسير فهو فَرَض ، بما هو محاولة لقراءة نص غير مألوف . أما الحلم الغامض - لو أخذناه بمفرده - فقلما نستطيع تفسيره في شيء من اليقين ؛ ولذلك لا أعلق سوى أهمية ضئيلة على تفسير الأحلام المفردة . أما حين نأخذ سلسلة من الأحلام ، فنستطيع أن نولى تفسيراتنا حظًا أكبر من الثقة ، لأن الأحلام اللاحقة تصحح ما وقعنا فيه من أخطاء عند تناولنا للأحلام السابقة . كذلك نكون في سلسلة الأحلام أقدر على معرفة كُنه المحتويات الهامة والموضوعات الأساسية ؛ ولذلك تجدنى أحضّ مرضاى على فتح سجل دقيق بأحلامهم وما أعطى بشأنها من تفسيرات . كذلك تجدنى أطلعهم على كيفية تشييد أحلامهم حلمًا حلمًا على نحو ما أشرت إليه حتى يصير فى وسعهم موافاتى كتابةً بالحلم والمادة التى تشكل سياقه ، ثم أحملهم على استخلاص التفسيرات فى المراحل المتأخرة من التحليل . بهذه الطريقة يتعلم المريض كيف يرجع إلى الخافية (= اللاشعور) بدون معاونة من الطبيب .

لو كانت الأحلام مقصورة على إعلامنا بالعوامل السببية الكامنة من وراء العصاب لكنّا فى مأمن من ترك الطبيب يعالجها وحده . زيادة على ذلك ، ربما كانت طريقتى فى معالجة الأحلام عديمة الجدوى لو كان كل ما نأمله منها جملةً من اللمحات والفوائد التى تعين الطبيب على أداء مهمته . لكن ، بما أنه من المحتمل - كما بيّنت ذلك فى عدد من الأمثلة - أن تحتوى الأحلام على ما هو أكثر من المعونات التطبيقية اللازمة

للطبيب ، لَزِمَ أن يأخذ تحليل الأحلام محله من الاعتبار . والحق إنه قد يكون مسألة حياة أو موت .

من القضايا التى من هذا القبيل قضية تركت فى نفسى أثرًا عميقًا ، وكانت تتعلق بزميل لى فى زيورخ . كان يكبرنى سناً ، وكنت أراه بين حين وآخر ، وكان كلما لقيته يغمز من اهتمامى بتفسير الأحلام . صادفته يومًا فى الشارع ونادانى قائلاً : «كيف تسير الأمور ؟ أما زلت تفسر الأحلام ؟ بالمناسبة ، رأيت حلمًا أبله آخر . هل له معنى أيضًا ؟ «كان حلمه كما يلى : رأيتنى أتسلق جبلاً عاليًا يطل على جُرُفٍ هارٍ تغطيه الثلوج . صعدت وصعدت وصعدت .. الطقس رائع . وكنت كلما صعدت أعلى شعرت أننى أحسن حالاً قلت فى نفسى : يا ليتنى مضيت صاعدًا هكذا إلى الأبد !» وعندما وصلت إلى القمة بلغت منى السعادة والبهجة مبلغًا جعلنى أشعر أن بوسعى الصعود إلى أجواز الفضاء . ثم اتضح لى أن فى وسعى فعل ذلك ، فمضيتُ أصعد . ثم استيقظت على نشوة حقيقية» .

قلت له بعد أن روى لى حلمه : «يا عزيزى ، أنا أعلم أنك لا تستطيع الإقلاع عن عادة صعود الجبال ؛ لكن اسمح لى أن أناشدك ألا تذهب وحدك من الآن فصاعدًا . وإذا ذهبت فخذ معك دليلين اثنين ، ويجب عليك أن تعطينى كلمة شرف أنك سوف تتبع إرشاداتهما .

«أجابنى ضاحكًا : لا جدوى من أحـلامك !» ثم ودعنى ومضى لشأنه. لم أره بعد ذلك أبدًا .

بعد شـهرين من هذا اللقاء جـاءته الضربة الأولى ، عندمـا كان فى الخارج وحده . غـمره انهيار ثلجى . وفى اللحظة المناسـبة استطاعت أن تنتشـله دوريّة عسكرية قُدّر لهـا أن تكون قريبةً من مـكان الحادث . ولم تمضِ له ثلاثة أشـهر على هذا الحـادث حـتى كانت النهـاية . ذهب إلى التسلق يصحبه صديق له يصغره سنًا ، بدون مرشدين . وقد شاهده أحد هواة التسلق وكان واقفًا إلى مـا دونه ، شاهده يخطو فى الفراغ وهو يلقى بنفسه فوق حائط صخرى . لقد سقط على رأس صديقه الذى كان ينتظر فيمـا دونه ، فتمزق كلاهمـا إربًا واستقرا عند منخـفض السفح ، وكانت تلك «نشوة» بكل ما فى الكلمة من معنى .

لم يكن عندى قدر مـن الشك أو الاحتراس النقـدى يجعلنى أعتـبر الأحلام حوادث لا يؤبه لها . فهى غالبًا مـا تبدو غير ذات معنى ، لكن الشىء الواضح هو أننا نحـن الذين نفتـقـر إلى المعنى والحذق فى قـراءة الرسالـة المبهمـة الآتية إلينـا من الجانب الليلى من النفس . عنـدما نرى الإنسان يقـضى نصف حيـاته على الأقل فى هذا الجانب ، وعـندما نرى الواعية تستمد جذورها من هذا الجانب أيضًا ، ونرى الخافية (= اللاشعور) تعمل إبّان الوجـود اليقظ وخارجـه ، يكون لزامًا على علم النفس الطبى أن يشحذ مـفاهيمه ويدرس الأحلام درسًا منظـمًا . ما من أحد يشك فى

قيمة الخبرة الواعية ، فلماذا نشك إذن فى أهمية حوادث الخافية . هى أيضًا تعود إلى الحياة البشرية ، وهى أيضًا يتكوّن منها الشطر الأصدق من أى حادث من حوادث النهار فى كل ما له صلة بالسرّاء والضرّاء .

إن الأحلام تمدّنا بمعلومات عن أسرار الحياة الداخلية ، وتكشف لصاحب الحلم عن العوامل الخبيثة ، الملونة لشخصيته . ومادام لم يكشف النقابُ عن هذه العوامل ، تظل مصدراً للاضطراب فى حياته اليقظة . ولا تبين عن نفسها إلا فى شكل أعراض مَرَضية . وهذا معناه أننا غير قادرين على معالجة المريض علاجًا ناجعًا انطلاقًا من جانب الواعية وحدها ، بل لابد لنا من إحداث تغيير فى خافيته ومن خلالها . وإلى حدّ ما وصلت إليه معرفتنا الحالية ، ليس ثمة إلا طريق واحد لفعل هذا : يجب أن يكون هناك تمثّل شامل واعٍ لمحتويات الخافية . وأريد بـ «التمثّل» أن تتداخل محتويات الخافية والواعية فيما بينها ، لا - كما شاع كثيراً - أن تُقوّم محتويات الخافية تقويمًا أحاديًا وتُفسّر وتُشوّه من جانب العقل الواعى . أما بخصوص القيمة والأهمية اللتين تنطويان عليهما محتويات الخافية عمومًا ، فالأفكار الفادحة الخطأ موجودة فى كل مكان . لقد بات أمرًا معروفًا جدًا أن مدرسة «فرويد» تعرض لنا الخافية على نحو يبخسها قيمتها ، تمامًا كما تنظر إلى إنسان بدائى وتعتبره أفضل قليلاً من الحيوانات المتوحشة . إن ما روته مدرسة «فرويد» من حكايات الأطفال عن شيخ القبيلة الرهيب ، وما بثّته من تعاليم عن الخافية «المجرمة -

المنحرفة - الطفولية» ، أفـضى بالناس إلى جعل الخافية هُولة[1] خطرة ، بينما هي شيء طبـيعي جداً ، وإلى حُسبـان أن كل ما هو خير ومـعقول وجدير بأن نحيا من أجله قد اتخـذ له سكنًا في الواعية ! ألم تفتح أهوال الحرب الكبرى عـيوننا ؟ أما زلنا عاجزين عن رؤية ما في واعـية الإنسان من شيطانية وانحراف أشدّ وأدهى مما في خافيته ؟

اتُهمتُ مـؤخراً أن تعليمي عـن «تمثّل الخافيـة» ، لو قُبل به ، لدمر الثقافة وأعلى من شأن الحياة البدائيـة على حساب قيمنا العليا . لا أساس لهذه التهمة إلا الاعتقاد الخاطيء بأن الخافية هُولة مخيفة. ومثل هذا الرأي ناجم عن الخوف من الطـبيعـة ومن الحياة كـما هي فعـلاً . لكن ما هو موجود فعلاً لا نستطيع أن نتسامى به باصطناع حيل سيمياوية ، ونحن لو تسامينا بشيء لم يكن أبدًا ما يعتبره التفسير الخاطيء أنه كذلك .

ليست الخـافية هُولة شـيطانية ، بل شيء من الطبـيعة حـيادي تمامًا بمقدار ما قـد يكون عليه الحس الأخلاقي والذوق الجمـالي والحكم العقلي من حـياد . وهي لا تـكون خطراً إلا عندما يـكون موقـفنا الواعي منهـا خاطئًا إلى درجة مـيئوس منها . ويتعـاظم هذا الخطر بمقدار ما نمارس من كبت . لكن مـا إن يبدأ المريض يتمثل المحـتويات التي خفيت عنه فـيما مضى حتى يتضاءل الخطر من جانب الخـافية . وحين يمضي سياق التمثل

---

(١) اصطلحنا على ترجمة monster بـ «الهُولة» (بضم الهـاء وتسكين الواو الممـدودة) . وهي ترجمة - فيما نعرف - لا نجدها في المعاجم التي في حوزتنا - المترجم - .

فى اتخاذ مجراه ، يقوم بوضع حدّ لانفصام الشخصية وتبديد القلق الذى يلازم الفصل ما بين الحيّزين من النفس ويستثيره إن ما يتخوّف منه منتقدىّ - وأعنى به غلبة الخافية على الواعية - حقيقٌ بأن يحدث عندما نستبعد الخافية من الحياة بواسطة الكبت ، أو عندما نسىء فهمها ونقلل من شأنها .

من الأخطاء الفادحة - والكثيرة الشيوع مع ذلك - حُسبانُ محتويات الخافية واضحة لا لَبس فيها ، وتتميز بعلامتى «زائد» أو «ناقص» ثابتتين لكن هذه النظرة - كما أراها مفرطة فى السذاجة . فالنفس «نظام تعديل ذاتى Self - regulatig system يحافظ على توازنه كما يحافظ الجسم على توازنه تمامًا . كل سياق يذهب إلى حده الأقصى ، فلابد له من استدعاء فاعلية تعويض حالاً . بدون هذا التعديل لا تتم عملية «استقلاب» metabolism سويّة ، ولا تقوم نفس سويّة . فكل تفريط فى جانب ، ينتج عنه إفراط فى جانب آخر . والعلاقة بين الواعية والخافية قائمة على المعارضة . ولذلك يكون من المفيد دومًا أن نسأل عندما نشرع فى تفسير حلم : ما الموقف الواعى الذى يعوّض عنه هذا الحلم ؟

رغم ما قد يتخذه التعويض من شكل تلبية وهمية لرغبة ، إلا أنه ، بصفة عامة ، يطرح نفسه بمثابة واقعة فعلية على أظهر ما يكون كلما حاولنا كبتها . نحن نعلم أننا لا نستطيع التغلب على العطش إذا كبتناه.

لذلك ينبغى لنا أن نحمل محتوى الحلم على محمل الجد ونعتبره شيئًا حدث لنا فعلاً ، كما ينبغى لنا أن نعامله على أساس أنه عامل يساهم فى نظرتنا الواعية . ونحن إن لم نفعل ذلك ، احتفظنا بموقف أحداى يستثير تعويضًا خافياً (= لا شعوريًا) فى المقام الأول . لكن هذا الطريق لا ينطوى إلا على أمل ضئيل بأن نحكم على أنفسنا حكمًا صحيحًا أو نحقق توازنًا فى حياتنا .

لو شرع امرؤ فى الاستعاضة عن نظرته الواعية ، وراح يعمل بناء على توجيهات الخافية - وهذه الإمكانية يعتبرها منتقدى أمرًا مخيفًا ، لم يُفلح إلا فى كبت الأولى (= الواعية) التى تعود إلى الظهور تعويضًا خافياً (= لا شعوريًا) . وفى هذه الحالة ، تكون الخافية قد غيرت ، وقلبت موقعها ، وغدت رصينة إلى حد الجبن وعلى تناقض صارخ مع لهجتها السابقة . عمومًا ، لا يعتقد أن الخافية تعمل على هذا النحو ، ومع ذلك يحدث مثل هذا القلب باستمرار ، ويكون منها وظيفتها الأساسية . ولذلك كان كل حلم مصدرًا للمعلومات ووسيلة تعديل ذاتى ، وهذا ما يفسر لنا لماذا كانت الأحلام أكثر أعواننا فعالية فى مهمة بناء الشخصية .

ليست الخافية بحد ذاتها مأوى للمواد المتفجرة ، لكنها قد تصبح كذلك بما نمارسه من مكبوتات اعتمادًا على نظرتنا الواعية المعتدة بنفسها ، أو المكتفية بذاتها ، أو الجبانة ، إذن ، فالعقل كل العقل أن نعير هذا الجانب انتباهنا ! لقد أصبح الآن من الأمور الواضحة لماذا جعلت من

قواعدى العملية أن أسال دائمًا قبل أن أحاول تفسير الحلم : ما الموقف الواعى الذى يعوّض عنه ؟ بذلك - كما يمكننا أن نرى - أربط الحلم بأوثق صلة ممكنة بالحالة الواعية حتى لأذهب إلى استحالة تفسير حلم على درجة من يقين إلا إذا عرفنا ما هو الموقف الواعى . لأننا ، فى ضوء هذا المعرفة فقط ، نستطيع أن نتبين إن كان محتوى الخافية يحمل علامة «زائد» أو «ناقص» . الحلم ليس حادثًا نفسيًا منعزلاً ومنفصلاً تامًا عن الحياة اليومية . وإذا بدا لنا أنه كذلك ، فلأنه وهم ناشىء عن قلة فهمنا. فى الواقع ، إن العلاقة بين الواعية والحلم ذات طبيعة سببية صارمة ، وهما يتفاعلان فيما بينهما على أكثر ما يكون التفاعل دقةً ولطفًا .

بودىّ هنا أن أستعين بمثال لكى أبيّن كم هو مهم أن نجد القيمة الحقيقية للمحتويات الخافيّة . جاءنى شاب بهذا الحلم :

«أبى يقود سيارته الجديدة بعيدًا عن المنزل . . يقودها برعونة . وكنت أتميّز غيظًا من غبائه البادى . كان يذهب فى هذا الاتجاه وذاك . إلى الأمام وإلى الخلف ، ويكرر إقحام السيارة في مكان ضيق . ثم ارتطم بجدار فأصاب السيارة بأضرار بالغة . صحت به وأنا فى منتهى الغضب أن يلتزم جانب الأدب . كان أبى يضحك ثم تبين لى أنه ميت من السكر» .

صاحب الحلم مقتنع أن أباه ما كان ليسلك هذا المسلك أبدًا حتى ولو كان سكران . لكن صاحب الحلم نفسه اعتاد قيادة السيارات . وهو سائق

ماهر ، ومـعتدل جداً فى تناول المشـروب ، خاصة عندمـا يكون عليه أن يقود سيارة . القيادة الهوجاء ، والأضرار التى تصيب السيارة مهما كانت خفيفة ، تغضبه أشد الغضب . علاقة الابن بأبيه جيدة . وهو معجب به لأنه رجل ناجح نجاحًا غير عادى . يمكننا القول ، بدون محاولة للتفسير، إن الحلم يعرض صورة عن الأب ليست فى صالحه . إذن ما المعنى الذى ينبغى أن نستخـلصه من ناحية الابن ؟ هل علاقته بأبيـه جيدة فى الظاهر فقط ؟ هل هى حقًا تتكون من مـقاومات مفرطة فى التـعويض ؟ إن كان الأمر كذلك فعلينا أن نضيف علامة «زائد» إلى محتوى الحلم ، وأن نقول للشاب : «هذه هى عـلاقتك بأبيك . «ولكن بما أنى لم أسـتطع أن أجد التباسًا أو عـصابًا فى الوقائع المتعلقة بصلـة الابن وأبيه ، ليس من حقى أن أمسّ مشـاعر الفتى بهذا الحكم المؤذى ولو فـعلت ذلك ، لأضر ذلك بنتيجة المعالجة .

لكن إذا كانت علاقـته بأبيه ممتازة حقًا ، فلـماذا تعيّن على الحلم أن يختلق هذه القصة البعيدة الاحتمال للتقليل من شأن الأب ؟ لابد أن تكون مقاومـة الفتى لأبيه ناشئة عن غـيرة غذّاها قدر مـعين من شعور النقص ؟ لكن قبل أن نحيـد عن الطريق ونثقل ضمير الفـتى - ومع الشباب ذوى الحساسيـة ثمة دائمًا محذور من أن نفعل ذلك عن قلة اكـتراث - خير لنا أن نسقط من حسـابنا ، ولو مرة واحدة ، سؤالنا عن «سـبب» رؤيته هذا الحلم ، وأن نسـأل أنفسنا «لأى غـرض» رآه ؟ فيكون الجـواب ، فى هذه

الحالة ، هو أن خافية الفتى تحاول أن تقلل من شأن الأب في وضوح ظاهر . ولو فهمنا هذا على أنه تعويض لاضطررنا إلى استنتاج أن علاقته بأبيه ليست جيدة وحسب ، وإنما في غاية الجودة لكن الفتى جدير حقًا بالوصف الفرنسي لِصقُ أبيه[1] . فأبوه لما يزل القائم على شئون الابن ، والابن لما يزل يعيش الحياة التي أسميها بالحياة المؤقتة . فهو يخشى من الفشل في تحقيق نفسه لأن في كل جانب من جوانب حياته شيئًا كثيراً من «الأب» . إن هذا يفسر لنا لماذا اصطنعت خافيته نوعًا من التجديف : إنها تسعى إلى وضع الأب ورفع الابن . ولعلنا نقع تحت إغراء القول : «قضية منافية للأخلاق» . كل أب يفتقر إلى بعد نظر ، فعليه أن يأخذ حذره من هذه الناحية[2] . ومع ذلك لقد أصاب التعويض كلّ الغرض إذ أجبر الابن على مساواة نفسه بأبيه ، وهي الوسيلة الوحيدة التي يستطيع بها أن يصير عارفًا بنفسه .

واضح أن التفسير الذي أوجزناه توّاً هو التفسير الصحيح ، لأنه حقق الغرض إذ لقي قبول الفتى قبولاً عفويًا ، ولم يجرح شعوره حيال أبيه ، ولا شعور أبيه حياله .

لكن هذا التفسير ما كان ممكنًا لولا أننا درسنا علاقة الأب والابن في ضوء جميع الوقائع التي كانت في متناول الواعية ؟ إذ لولا معرفتنا بالحالة الواعية ، لظل المعنى الحقيقي للحلم يكتنفه شك وغموض .

---

(١) العبارة مثبتة في النص بالفرنسية : fils a papa - المترجم - .

(٢) في ثقافتنا الشعبية هذه الوصية الذائعة : «إذا كبر ابنك فآخيه» . - المترجم - .

وفى تمثل محتويات الحلم يأتى فى الدرجة الأولى من الأهمية ألا ننتهك حرمة القيم الحقيقة التى تؤمن بها الشخصية الواعية . فلو تحطمت الشخصية الواعية ، أو حتى تشوهت ، لم يبق لدينا من يقوم بعملية التمثل . إننا نعترف بما للخافية من أهمية ، لا نريد أن نباشر تجربة ترفع الأدنى إلى القمة ، (وتنزل الأعلى إلى الحضيض)[1] ، لأن من شأن هذا أن يقلب الوضع الذى نريد تصحيحه . يجب أن نحرص أن تظل الشخصية الواعية بدون أن تمس ، لأننا لا نستطيع إجراء نقل التعويضات الخافيّة إلى الجهة الدائنة من الحساب إلا إذا تعاونت معنا الشخصية الواعية فى المشروع الذى نحن بصدده . وعندما يصل الأمر بنا إلى تمثل المحتوى لا تكون المسألة مسألة «هذا أو ذاك» ، بل مسألة «هذا وذاك» جميعًا .

وكما يتطلب تفسير الأحلام معرفة دقيقة بالحالة الراهنة للواعية ، كذلك تتطلب معالجة رمزية الحلم أن نأخذ فى الحسبان ما لصاحب الحلم من معتقدات فلسفية ودينية وأخلاقية وإنه لمن بالغ الحكمة عمليًا ألا نعتبر رموز الحلم علامات أو أعراضها ذات صفات ثابتة ، بل يجدر بنا أن نعتبرها رموزًا حقيقية ؛ أى تعبيرات عن شىء لم نعرفه بعد معرفة واعية، أو لم نصغهُ بعدُ صياغة عقلية . زد على ذلك أنه يجب النظر إليها بالنسبة لصاحب الحلم ، ويحسن بنا أن نتبعها فى تطبيقاتنا العملية،

(١) العبارة بين القوسين من وضعنا . - المترجم - .

لأنه - نظريًا - يوجد رمـوز ثابتة نسبيًا لا يرجع مـعناها بحال إلى شيء ذى محتوى معروف ، أو إلى شيء يمكننا أن نصوغه فى مفهوم . ولو لـم يكن ثمة رموز ثابتـة نسبيًا ، لاستحـال علينا تعيين بنية الخافـية ، وامتنع علينا أن نضع يدنا على شيء فيها أو أن نأتى على وصفه .

ربما يبدو أمرًا غـريبًا أن أنسب مضمونًا أو مـحتوى غيـر محدد إلى رموز ثابتة نسبـيًا . لكن المضمون غير المحدد هو ما يمنح الرمـز سمته فى مقـابل مجـرد العلامـة أو العرض . ومـن المعروف أن مـدرسة «فرويد» تستخدم «رمـوزًا» ثابتة وصلبة ، لكن هذه الرموز نفسهـا هى ما ينبغى أن أسميه «علامات» ؛ لأن المقصود منها أن تدل على الجنس ، وهذا يُفترض فيه أن يكون شيئًا محددًا . وحقـيقة الأمر أن مفهوم الجنس عند «فرويد» مفهوم فى غاية المرونة ، وفضفاض حتى ليشمل كل شيء تقريبًا . الكلمة مألوفة بحد ذاتهـا ، وما تدل عليه يصل إلى مجهول غير مـحدد ومتقلب حتى ليـعبر عن الـغدد ونشاطهـا الفيزيولوجى مـن جانب ، وعن أعلى مراقى الروح من جانب آخر . لكن ، بدلاً من أن نتخذ موقفًا دغماطيقيًا يقوم عـلى توهمنا أننا نعرف الشيء إذا كـانت الدنيا كـلمة مألـوفة له ، أفضل أن أعـتبـر الرمز بمثابة إعـلان عن شيء غيـر معـروف ، يصعب التعرف إليه، غير ممكن تحديده تمامًا . خذ ، على سبيل المثال ، ما يسمّى برموز الـذكورة phallus symbols ، والتى يُفـتـرض أنهـا ترمـز إلى الفحولة ولا شيء غير ذلك . سيكولوجيًا ، العضو بحد ذاته صورة رمزية

ذات مضمون أوسع ليس تحديده بالأمر اليسير ، كما بين ذلك «كرانيفلت» مؤخراً . وكما جرت عليه العادة لدى الأقوام القديمة ، مازال البدائيون حتى يومنا هذا يستخدمون رموز الذكورة بكل حرية بدون أن يخطر لهم ببال أبداً أن يخلطوا «الفالوس» ، بما هو رمز طقوسى ، بالقضيب . فهم يعتبرون «الفالوس» دائمًا على أنه الـ «مانا» المبدعة ، قوة الشفاء والإخصاب ، «ذلك الشيء ذو القدرة الخارقة» - على حد تعبير «لهمان». ويعادل «الفالوس» فى الأحلام والميثولوجية الثور والحمار والرمانة والتيس والصاعقة وحافر الفرس والرقص والمساكنة السحرية فى الحفرة ودم الحائض ؛ وهذا غيض من فيض . ما يكمن وراء هذه الصور، بما فى ذلك الجنس نفسه ، مضمون أو محتوى بدئى archetypal content يصعب دَرَكُه ؛ لكنه يجد خير تعبير سيكولوجى عن نفسه فى رمز الـ «مانا» البدائى . فى كل من هذه الصور التى تقدم ذكرها نستطيع أن نتبيّن رمزاً ثابتًا نسبيًا هو رمز الـ «مانا» ولكننا لا نستطيع مع ذلك أن نقطع بأنها لا تعنى شيئًا آخر عندما نجدها فى أحلامنا .

لكن الضرورة التطبيقية قد تتطلب منا تفسيراً مغايراً تمامًا . إذ من المسلّم به لو كان علينا أن نفسّر الأحلام تفسيراً شموليًا وفقًا لمبادىء العلم، لكان علينا أن نرد كلاً من هذه الرموز إلى نموذج بَدْئى archetype لكن ، فى التطبيق العملى ، ربما كان هذا النوع من التفسير خطأ فادحًا نرتكبه بحق المريض الذى قد يحتاج إلى كل شىء إلا

الإصغـاء إلى نظرية فى الأحلام . لذلك يحسن بنا ، من أجل أغراض الشفاء ، أن نبحث فى معنى الرموز من حيث علاقتها بالحالة الواعية - بعبارة أخرى ، أن نعاملها كما لو كانت رموزاً غير ثابتة . وهذا تماماً يساوى القول بأنه يجب علينا أن نتخلّى عن جميع آرائنا السابقة ، مهما كنا معتدّين بمعرفتنا ، وأن نحاول اكتشاف معانى الأشياء بالنسبة إلى المريض . وهى ، فى الحقيقة ، قد تقصّر جداً من هذه الناحية . فالممارس الذى يُسرف فى استخدام الرموز الثابتة ، يقع فى محذور الروتين والدغماطيقا مما يجعله يخفق فى تلبية احتياجات المريض . ومن سوء الحظ ، كان ينبغى أن أدخل فى تفصيلات أكثر مما يسمح به هذا المجال لكى أوضح ما تقدم ، إلا أننى نشرت فى غير مكان بحثاً إضافياً يعزّز إباناتى تعزيزاً كبيراً .

سبق وبينا أنه كثيراً ما يحدث عند بدء المعالجة أن يكشف الحلم للطبيب المعالج عن الاتجاه العام الذى تسير فيه الخافية (اللاشعور) فقد يكون من غير المجدى ، لأسباب عملية ، أن نبين للمريض ما ينطوى عليه حلمه من معنى عميق ، وهو ما يزال فى المرحلة الأولى من المعالجة. إذ تفرض علينا متطلبات الشفاء أن نلتزم بهذه القاعدة أيضاً . وإذا اكتسب الطبيب مثل هذه النظرة البعيدة ، فإنما يكتسبها بفضل خبرته لموضوع الرموز الثابتة نسبياً . فقد يكون لهذه النظرة قيمة عظمى فى التشخيص وفى المطالعة على السواء .

دُعيت مرة للاستشارة في حالة فتاة في السابعة عشرة من عمرها . وكان أحد أصحاب الاختصاص ذهب إلى أنها ربما كانت في المراحل الأولى من ضمور العضلات التدريجي ، بينما ذهب آخر إلى احتمال إصابتها بالهستيريا . وإنما دُعيت بسبب هذا التشخيص الأخير . الصورة السريرية جعلتني أذهب إلى أنها مصابة بمرض عضوي ، لكن الفتاة أبدت أيضًا عن أعراض هستيرية . طلبت منها أن توافيني بأحلامها فأجابتني على الفور :

«نعم ، أشاهد أحلامًا مفزعة . حلمت مؤخرًا أني أتيت إلى البيت ليلاً . كان كل شيء ساكنًا كالموت ، وكان الباب المفضي إلى حجرة الجلوس مفتوحًا نصفه ، ورأيت أمي مدلاة من شمعدان وهي تتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ، وكانت الريح الباردة تهب من نافذة مفتوحة ، وفي وقت آخر ، كنت حلمت بضوضاء مخيفة وقعت ليلاً في المنزل . ذهبت لأرى ماذا يحدث فوجدت حصانًا مذعورًا يفتح الحجرات في هياج شديد . ثم اقتحم الباب المفضي إلى الردهة وقفز من نافذة الطابق الرابع إلى حيث ارتطم بأرض الشارع . انتابني هلع شديد حين شاهدته ممددًا على الأرض وقد تشوه كله» .

كلا الحلمين يشير إلى الموت إشارة تكفي لأن تجعلنا نقف ونفكر . لكن كثيرًا من الرمزين البارزين : «الأم» و «الحصان» . هذان الشكلان يجب أن يعادل أحدهما الآخر ، كلاهما يفعل نفس الشيء : ينتحر

«الأم» ترمــز إلى نموذج بدئى archetype ، يدل على مــوطـن النشــأة والطبـيـعـة المـادية والجـزء السـفلى من الجـسم (الرحـم) وعلى وظائف الإخصاب ، وتدل رمزية «الأم» أيضًا على الخافـية (اللاشعور) وعلى حياة الغـريزة والطبيـعة والمجـال الفيـزيولوجى والجسـد الذى نسكنه أو الذى يحـتوينا . و «الأم» هى الـوعاء أيضًا ، والشكل الأجـوف الذى يحـملنا ويمدّنا بالغـذاء ؛ وهى بهـذا ترمـز إلى الأساسـات التى تنهض عـليهـا الواعيـة. أن يكون المرء داخل شىء ، أو محـاطًا بشىء ، أمر يوحى له بالظلمة والليليـة ، بحالة الخوف والقلق . وإنى ، بهـذه الإشارات ، إنما أعرض «فكرة الأم» فى كثـير من تحولاتها الميـثولوجية والإيتمـولوجية (= جذورها اللغوية) ، كما أعرض جزءاً كبيراً من مفهوم الـ «ين» فى الفلسفة الصينيـة . لقد اشتمل الحلم على هذه الأشـياء جميعًا ؛ وهـى أشياء لم تكتـسبهـا فتـاة السابعـة عشـرة فى وجودها الفـردى ؛ إنما هى إرث من الماضى. وهذا الإرث من الماضى لم يزل حـيّاً فى اللغة من ناحـية ، وفى بنية النفس من ناحيـة ثانية ؛ ولذلك نجده فى جمـيعّ الأزمنة وعند جميع الشعوب .

إن كلمة «الأم» المألوفة لدينا تشيـر إلى الأم التى نعرف عنها أكثر مما نعرفه عن كل أم أخـرى ؛ إنها تشير إلى «أمى» . بينـما تدل رمزية الأم على معنى أكـثر غموضًا وأكـثر استعـصاءً على الصيـاغة الفكرية ، ولا يسعنا فهمه إلا على نحو غير محدد بما هو الحياة الخبيئة المقيدة فى الجسد.

ومع ذلك يظل هذا التعبير يضيق عن استيعاب المعنى ، ويستبعد الكثير من المعانى الجانبية التى تتصل به . لأن ما ينطوى عليه من حقيقة نفسية بلغت مبلغًا من التعقيد لا نستطيع معه أن نفهمها إلا أن يكون فى وسعنا تبينها عن بعد ؛ وحتى ، فى هذه الحالة ، لا نتبينها إلا فى غموض شديد . وأمثال هذه الحقيقة هى مما يتطلب التعبير الرمزى .

ونحن لو رحنا نطبق ما تكشّف لنا من الحلم لكان معناه : أن الحياة الخافية (اللا شعورية) تدمر نفسها . تلك هى رسالة الحلم إلى العقل الواعى لدى صاحبة الحلم ، إلى كل من له أذنان يسمع بهما .

و «الحصان» أيضًا نموذج بدئى archetype كثير الشيوع فى الميثولوجيا والفنون الشعبية (الفولكلور) . بما هو حيوان ، يمثل النفس غير البشرية ، والجانب الحيوانى الأدنى من الإنسان ، وبالتالى يمثل الخافية . ولهذا يجعله الفولكلور أحيانًا يرى الرؤى ويسمع الأصوات ويتكلم . وبما هو حيوان حَمل ، يمتّ بصلة وثيقة إلى نموذج الأم mother archetype . فقبائل الـ «وال كيريز» يحملون البطل الميت على «وال هلاّ» ، وحصان طروادة المعروف باحتوائه للإغريق . وبما هو حيوان أدنى من الإنسان ، يمثل الجزء الأسفل من الجسد ، كما يمثل الغرائز الحيوانية التى تستمد نشأتها منه . والحصان طاقة حركة ووسيلة نقل ؛ ينقلنا بعيدًا كما تنقلنا شحنة غريزة ؛ يصاب بالذعر كما تصاب به جميع المخلوقات الغريزية التى تفتقر إلى واعية عالية ، كذلك له صلة

بالسحر وتعاويذ السحرة ، ولا سيما الحصان الحالك السواد الذى ينذر بالموت .

واضح ، إذن ، أن «الحصان» هو المعادل «للأم» مع فارق طفيف فى المعنى . فالأم ترمز إلى الحياة فى نشأتها ، والحصان إلى حياة الجسد . ولو رحنا نطبق هذا المعنى على الحلم لقلنا : إن الحياة الحيوانية تدمر نفسها .

كلا الحلمين يؤكد نفس الشيء تقريبًا ، لكن ثانيهما - كما هى الحال فى العادة - أكثر تحديدًا . ويظهر فى كلا الحلمين ، ما يتصف به الحلم عمومًا من لطافة خصوصية من خلال إغفال الإتيان على ذكر الموت صاحبة الحلم . فالمعروف أن الإنسان كثيرًا ما يرى نفسه ميتًا فى المنام ، لكن هذا ليس فيه خطر ، لأن الحلم يتكلم لغة أخرى عندما يتعلق الأمر بموت حقيقى . إذن ، كلا الحلمين يدل على مرض عضوى خطر ، بل قاتل . وقد جاءت الوقائع مصدقة لهذه المطالعة بعد قليل .

أما فيما يتعلق بالرموز الثابتة نسبيًا ، فهذا المثال يعطينا فكرة لا بأس بها عن طبيعتها العامة . وهناك عدد كبير منها ، وقد تختلف فيما بينها اختلافات لطيفة فى معانيها من فرد إلى آخر . ولا يتأتّى لنا تعيين معانيها علميًا إلا إذا درسناها دراسة مقارنة حيثما وجدناها فى الميثولوجيا والفولكلور والدين واللغة . ويمكننا أن نتبيّن مراحل التطور التى مرت بها النفس البشرية على أوضح ما تكون وهى فى الحلم مما هى فى اليقظة أو

الوعى . فالحلم يخاطب بالصورة ويُنطق الغرائز ، وهذه اللغة مستمدة من أدنى مستويات الطبيعة بدائيةً . لكن الواعية ما أيسر ما تنأى بنفسها عن قانون الطبيعة ؛ لكنها ما تلبث أن تعود لتنسجم معها فى تمثيلها لمحتويات الخافية . وإننا إذ نأخذ بهذا السياق فلكى ندل المريض على التعرف بقانون كينونته .

لم يسعنى فى هذه العجالة إلا تناول عناصر الموضوع دون سواها . إذ لم أستطع أن أشيد أمام أبصاركم البناء الذى يقيمه كل تحليل من مواد الخافية ويأتى على نهايته عند إعادة تشييد بناء الشخصية برمتها . فطريق التمثلات المتعاقبة يصل بنا إلى نتائج أبعد بكثير من النتائج الشفائية التى تعنى الطبيب على وجه الخصوص . إذ تصل بنا فى نهاية المطاف إلى ذلك الهدف البعيد (الذى ربما هو الحضّ الأول على الحياة) ، وأعنى به الإتيان بالكائن البشرى كله إلى الواقع ؛ أى تحقيقه الفردى . لكننا لا نكون فى وضع يسمح لنا بدراسة سياق التغيير السويّ الذى يستغرق سنين أو عقود سنين إلا عندما يحدث الشفاء . فلو كنا نعلم بالمرامى التى تسعى إليها الخافية ويسعى إليها النمو النفسى ، ولو كانت رؤيتنا النفسية غير مستمدة حصراً من المرحلة المرضية ، لكانت فكرتنا عن السياقات التى كشفت عنها الأحلام أقل اختلاطًا ، ولكانت معرفتنا بما تمثله الرموز أجلى وأوضح . ولذلك أرى أن من واجب كل طبيب أن يعلم أن علم الشفاء النفسى عمومًا ، وتحليل الأحلام خصوصًا ، إجراء ينقسم إلى :

غائيّ ، ونموّ مستـمر ، مرة هنا ومرة هناك ، فيفرد له مراحل خـصوصية قد يبـدو أنها تسيـر فى اتجاهات متـضادة . ولما كان كـل تحليل لا يظهر بذاته إلا جزءًا أو جانبًا واحدًا من المجرى العميق من النمو ، كان ما ينتج من المقارنات الاحـتياليـة لا يعدو أن يكون اختـلاطًا ميئـوسًا منه . لهذا السـبب آثرت الاقتـصـار عن المبادىء الأوليـة الخـاصة بالموضـوع وعلى الاعتبـارات التطبيقية . وليس كـالاحتكاك الفعلى بالوقائع ، كـما تحدث فعلاً ، ما يجعلنا نصل إلى اتفاق يبعث على الرضا .

الفصل الثانى

مشكلات العلاج النفسى الحديث

العلاج النفسى ، أو علاج العقل بالاعتماد على مناهج علم النفس ، يتواحد اليوم مع الفكر العـامّى مع التحليل النفسى Psychoanalysis . وقد بلغت هذه الكلمة من الشـيوع مبلغًا بدا معه وكأن كل من يسـتعملها يفهم مـعناها ، على حين قلّ من غير أرباب الاخـتصاص من يعـرف ما تشتمل عليه بالضبط .

ولكن هذه الكلمة لا تنطبق -بحسب ما قصد إليه صاحبها «فرويد»- انطباقًا مناسبًا إلا على منهجه الخاص القائم على تـفسير الأعراض النفسية بصيغة الكبت لدوافع معينة . ولما كانت هذه التقانيّة»[1] قد جاءت نتيجة

---

(١) «التقانية» (بكسر التاء) مصدر صناعى من «التِقانة» ، آثرتها تعريبًا لكلمة technology بدلاً من «تقنية» التى شاع استعمالها خطأ على غـير قياس يراعى خصائص العربية . والوجه فى «التقانة» انطباقها على وزن «فِعالة» ، مصدر ما يدل على حرفة أو علم أو فن . تقول : سياسة وزراعة وطبابة وكتابة إلخ – المترجم – .

لفهمّ الحياة عـلى نحو خاص ، جاءت فكرة التحليل النفسى مـشتملة على فرضيات تتفق مع نظريات معينة ، ومنها نظريـــة «فرويد» فــى الجنس و «فرويد» نفسه ، مـؤسس مدرسة التحليل النفسى ، يؤكـد هذا التحديد صراحـةً . لكن غير المخـتص يطبق مفهـوم «التحليل النفـسى» رغمًا عن «فرويد» على كل نوع من المحـاولات الحديثة الرامـية إلى فـحص العقل بالأساليب العلمية . وبحسـب هذا المفهوم الخاطىء ، صارت تدمغ مدرسة «أدلر» بتبعيتها إلى مدرسـة التحليل النفسى» ، بالرغم من التعارض البيّن القائم بين وجهة نظر «أدلر» ومنهجه من جهة ، وبين وجهة نظر «فرويد» ومنهجه من جهة ثانية . وبسبب من هذا التعارض ، لم يطلق «أدلر» على تعليـمه اسم «التـحليل النفـسى» بل «علم النفس الفـردى» individual psychology وآثرتُ أنا أن أطلق على مفهومى الخاص اسم «علم النفس التحليلى» analytical psychology . وإنما ابتغـيت من هذا الاصطلاح أن يدل على مفهـوم عام يشمل كلاً من «التـحليل النفسى» و «علم النفس الفردى» وكل جهد آخر يبذل فى هذا الميدان .

وبما أن العقل ملك مـشترك بين الناس جـميعًا ، بدا لغيـر المختص امتناع وجـود غيـر علم نفس واحد ؛ ولذلك نجده يـحسب الاختـلافات القائمة فـيما بين المدارس مردّها إلى حذلقـات كلامية شخـصية ، أو إلى اعتـماد تلك الطريقـة الشائعة من التـستر علـى جهود أصـحاب الملكات المتواضعة ممن يسعون إلى اعتلاء سدّة العرش . وبوسعى أن أستفيض فى

تعداد «علوم النفس» فآتى على ذكر مدارس أخرى لا تنضوى تحت عنوان «علم النفس التحليلى» . فهناك كثير من المناهج والمنطلقات والآراء والعقائد كلها يخاصم بعضها بعضًا ، مما ترتب عليه أن أيّاً منها لم تستطع أن تعترف بقيمة الأخرى . إن تعدد جوانب الآراء المتعلقة بعلم النفس وتنوعها أقلّ ما يوصف به أنه يبعث على الدهشة ؛ ومما يحيّر غير المختص ويلبّس عليه امتناع إجراء كشف عام بها .

عندما يقع فى يدنا كتاب فى علم الأمراض يصف علاجًا لمرض معين أشد الأدوية اختلافًا ، يحق لنا أن نقطع واثقين بأن أيّاً منها ليس بالدواء الناجح . كذلك عندما نجد مناهج مختلفة كل منها ينصحنا باتباعه زاعمًا أنه خير منهج لفهم النفس البشرية ، يحق لنا أن نطمئن أن أيّاً منها لن يؤدى بنا إلى الهدف ، ولا سيما النهج الذى ينتصر لنفسه بطريقة تتّسم بالتعصب ؛ فهذا أقلها باعثًا على الاطمئنان . لقد بلغ عدد «علوم النفس» من الكثرة حدًا يجعلنا نعترف بما يحدث فينا من بلبلة وتشويش . وقد انغرس فى نفوسنا بمرور الأيام أن الوصول إلى العقل أمر بالغ الصعوبة ، وأن العقل نفسه مشكلة شائكة فلا غرو بعد هذا أن تتضاعف الجهود المبذولة ، مرّة من هنا وطورًا من هناك ، وأن تتنوع وتتضارب الآراء ، بما هى نتيجة لا مفر منها .

ولا شك أن القارىء يوافقنا ، ونحن نبحث فى التحليل النفسى ، على وجوب عدم الوقوف عند تعريف هذا العلم بمعناه الضيق ، بل يتوقع

منا أن نتناول بعناية ما أسفرت عنه من نتائج ناجحة وفاشلة مختلف المحاولات المعاصرة الرامية إلى حل مشكلة النفس ؛ وهذه المحاولات هي التي اصطلحنا على انضوائها جميعًا تحت مفهوم «علم النفس التحليلى» .

إنما لماذا اشتد الاهتمام فجأة بالنفس البشرية بما هى شىء ينبغى لنا اختباره ؟ فالقضية لم تكن أبدًا على ما هى عليه الآن على مدى آلاف السنين . إنما أردت فقط أن أطرح هذا السؤال الذى يبدو وكأنه لا علاقة له بموضوعنا وبدون أن أسعى للإجابة عنه ؛ مع أنه فى حقيقة الأمر ليس بدون علاقة به ، لأن هذا الاهتمام يختبىء وراء جميع الحركات العصرية من مثل الثيوسوفيا (= الحكمة الإلهية) والعلوم الخفية occuttism والتنجيم وغير ذلك .

كل ما تشتمل عليه اليوم فكرة غير المختص عن «التحليل النفسى» مستمد من الممارسة الطبية ، ومعظمها من علم النفس الطبى بالتالى . فهى تحمل بصمة لا تخطىء من عيادة الطبيب ؛ وهذه حقيقة لا تتضح فيما اشتملت عليه من مصطلحات وحسب ، وإنما فى إطارها النظرى أيضًا . فكثيرًا ما تصادفنا مسلمات أخذها الطبيب عن العلوم الطبيعية ، ولا سيما علم الحياة (= البيولوجيا) . وقد أسهم هذا الاقتباس فى العداء بين علم النفس الحديث والميادين الأكاديمية الأخرى كالفلسفة والتاريخ والدراسات الكلاسيكية . فعلم النفس علم تجريبى قريب من الطبيعة ، بينما تقوم هذه الدراسات على إعمال العقل والنظر . والفجوة بين الطبيعة

والعقل ، التي «يصعب ردمها في أحسن الأحوال ، تتسع كلما استخدمنا المصطلحات الطبية والبيولوجية التي ربما تكون ذات فائدة تطبيقية أحيانًا ، لكنها تكون عبئًا على نيّاتنا الحسنة في أكثر الأحيان .

بالنظر إلى بلبلة المفاهيم الموجودة حاليًا ، رأيت من الضروري الإشارة إلى الملاحظات التي تقدم ذكرها . ويودي الآن أن أعود إلى المهمة العاجلة فأنظر في الإنجازات الفعلية التي تحققت في ميدان علم النفس التحليلي . لما كانت المحاولات المختلفة التي يشتمل عليها هذا الاصطلاح بالغة الاختلاف والتنوع ، كان من الصعوبة بمكان الأخذ بمنطق كليّ الشمول . وأنا إن حاولت أم أميّز أصنافًا معينة ، أو بالأحرى مراحل معينة ، بالنسبة للأهداف التي ترمي إليها هذه المحاولات ، فإنما أفعل ذلك في شيء من التحفظ ، وأعتبره تدبيرًا مؤقتًا ليس غير ، مسلّمًا بأنه ربما كان إجراء تحكميًا أشبه شيء بمخطط لبلد يرسمه موظف مساحة. مهما يكن من أمر فقد أقمت على ترتيب مجمل الاكتشافات في أربعة عناوين رئيسية هي : الاعتراف confession والتفسير explanation والتعليم education والتغيير transformation . وسأمضي الآن في بحث معاني هذه الاصطلاحات غير المعتادة بعض الشيء .

يجب أن نبحث عن البدايات الأولى لكل معالجة تحليلية في مثالها الأصلي ، وأعني به «الاعتراف». غير أن فقدان الرابطة السببية المباشرة بين الممارسة الدينية وممارسة التحليل النفسي ، على الرغم من تفرعها عن

جذر نفسي مشترك ، يجعل من الصعب على القادم الغريب أن يرى من فوره العلاقة بين أساس التحليل النفسي والمؤسسة الدينية المتمثلة في «الاعتراف» . ما إن يصبح الإنسان قادراً على فهم فكرة الإثم حتى يلجأ إلى التستّر النفسي ، أو إلى الكبت repression ، على حد المصطلح التحليلي . كل ما نتستّر عليه فهو سرّ . وربما كان هذا السمّ بلسمًا لا يقدر بثمن لو أخذناه على جُرَع صغيرة ، لا بل أوّليّة جوهرية في تمايز الفرد[1]. حتى في المستوى الابتدائي ، كثيراً ما يشعر المرء أنه بحاجة لا تقاوم إلى اختراع الأسرار ؛ لأن امتلاكه لها ينقذه من الانحلال في خافية حياة الجماعة ، وينقذه - بالتالي - من أذى نفسيّ قاتل . ومن المعروف أن كثيراً من الأديان الباطنية ، وما تشتمل عليه من طقوس سرّية ، تعمل على تغذية فطرة التمايز . حتى أسرار المسيحية كانت في أيام الكنيسة الأولى بمثابة أسرار باطنية ، وكان يُحتفل بها - مثلما كان عليه الحال في سر المعمودية - في ملاجيء خصوصية لا يُشار إليها إلا من وراء حجاب الرمز .

مهما كانت فائدة السر الذي يقتسمه عدد من الأشخاص ، فإن للسر الذي نحتفظ به على وجه الخصوصية البحتة أثراً تدميريًا ؛ فهو أشبه

(١) ليس المقصود بتمايز الفرد هنا على حساب الجماعة ، كما ترمي إلى ذلك بعض المذاهب الفلسفية أو الاقتصادية ، وإنما مجرد انتقال الإنسان من حالة «الرقمية» غير المتمايزة - إن جاز لنا التعبير - إلى حالة يتحقق فيها بإنسانيته . وما الاسم يُعطاهُ كل إنسان إلا من قبيل تمييزه فرداً من غيره من أفراد الجماعة - المترجم - .

بعبء الإثم يفصل صاحبه السيء الحظ عن مشاركة غيره من أبناء قومه . ومع ذلك ، فإن كنا نعرف ما نخفى ، يكون الضرر أقل مما لو كنا لا نعرف ما نخفى أو نكبت ، أو مما لو كنا لا نعرف إن كان لدينا مكبوتات أصلاً . فى هذه الحالة لا نكون قد أخفينا محتوى ما إخفاءً واعيًا ، بل نكون أخفيناه حتى عن أنفسنا . وعندئذٍ ينشطر هذا المحتوى عن الواعية ويشكل عقدة مستقلة ، تعيش حياة منعزلة فى الخافية ، حيث لا يكون بمقدور العقل تصحيحها أو التدخل فيها . بهذا تكون العقدة عبارة عن شطر مستقل من النفس ينمّى - كما دلت الخبرة - حياة وهمية خاصة به. وما نسمّيه وهمًا أو تخيلاً ما هو إلا فاعلية نفسية عفوية ، تتصاعد إلى الأعلى كلما ضعفت قدرة العقل عن الكبت أو توقفت قدرته توقفًا تامًا ، كما هو الحال فى النوم إذ تتكشف هذه الفاعلية فى صورة الأحلام ؛ ثم نظل نحلم فى اليقظة فيما دون وصيد الواعية ، خاصّة عندما تكون هذه الفاعلية محكومة بعقدة مكبوتة أو خافيّة . ولابد هنا من ملاحظة عابرة وهى أن المحتويات الخافيّة ليست قاصرة على المحتويات التى كنا على وعى بها فيما مضى ثم أصبحت عُقدًا خافيّة بعد كبتنا لها . على العكس من ذلك تمامًا ، إن للخافية محتوياتها الخاصة بها التى تتصاعد بطيئة فى الأعماق ثم ما تلبث حتى تتدخل فى الواعية . ولذلك يجب ألاّ نصوّر النفس الخافيّة أبدًا مجرد وعاء لا ينطوى إلا على محتويات نبذها العقل الواعى .

إنما يؤثر فى فاعليتنا الواعية جميع المحتويات النفسية التى تقترب من وصيد الواعية طالعةً إليها من الأسفل ، أو التى غاصت قليلاً فيما دونها. ولما كانت المحتويات ذاتها غير واعـية ، كان لابد وأن تكون تأثيراتها غير مباشرة . ولعل أكثر زلات اللســان والقلم والذاكرة وما أشبه ذلك تُعزى إلى هذه الاضطرابات ، شأنها فى هذا كشأن جـميع الأعراض العصابية . وتكاد تكون هذه الأعـراض من منـشأ نـفسى دائـمًا ، اللهم إلا أن تأتى نتيجة لصدمة أحدثهـا انفجار قنبلة أو أسباب أخرى . ولعل أخف صور العصـاب هى «الزلات» التى أشرنـا إليها توًا كـزلات اللسان والنسـيان المفاجىء للأسماء والتواريخ والبلادة المبـاغتة المفضية إلى الأذى والحوادث وإساءة فهم الدوافع الـشخصية أو إسـاءة فهم ما سمعـناه أو قرأناه، وما يُسمى بهلوسات الذاكرة التى تحـملنا على الظن خطأ أننا قلنا أو فعلنا هذا أو ذاك . في جمـيع هذه الحالات يُظهـرنا التحرّى علـى وجود محـتوى يحبط أداءنا الواعى إحباطًا خافيًا غير مباشر .

لذلك نستطيع القول بعـامة إن السر الذى نخفيه غـير دارين به أشدّ ضرراً من السر الذى نخفيه ونحن دارون به . قـد شاهدت مرضى كثيرين وقعوا فى مآزق حرجة فى حياتهم لو وقع فيها ضعاف الطباع لأفضت بهم إلى الانتحار ، لكن ما بهم من رجحـان عقل حال دون الحضّ الانتحارى أن يطفو إلى سطح الواعية . لكنه مع ذلك ظلّ يعـمل فى الخافية (= فى الخفاء) ويأتى بجميع أنواع الحوادث الخطرة ؛ من ذلك مثلاً نوبة إغماء أو

تردد أمام دراجة نارية ، أو تجرع سمّ زعاف (= سليماني) ظنًا بأنه دواء سعال ، أو حماس مفاجىء للقيام بأعمال بهلوانية خطرة ، وهكذا دواليك. عندما نستطيع أن نجعل الميل إلى الانتحار شأنًا من شئون الوعي، يصبح بمقدور العقل السليم أن يتدخل ، وعندئذٍ يستطيع المريض أن يعرف الأوضاع التي تغريه بتدمير نفسه فيجتنبها .

رأينا أن لكل سر شخصي تأثير الإثم أو الذنب ، يستوي في هذا أن يكون السر خاطئًا أو غير خاطىء ، من وجهة نظر الأخلاق العامة . ثم إن هناك نوعًا آخر من التستّر يتجلّى في «الإمساك» أو «الامتناع» أو «ضبط النفس» ، من حيث إنه انفعالات أو عواطف نحسبها في العادة . وكما هو الحال بالنسبة للأسرار ، كذلك هنا يجب أن نضع تحفظًا : ضبط النفس أمر صحّي ومفيد ، بل فضيلة . وهذا هو ما جعل تهذيب النفس وتقويم اعوجاجها من أقدم ما عرف الإنسان من فضائل . حتى عند الأقوام البدائية نجد لهذه الفضائل مكانًا في احتفالات «الشدّ والتلقين[1] initiation ، خصوصًا في صور الزهد والعفّة والصبر الرواقي على الألم والخوف . لكننا هنا نمارس ضبط النفس داخل الجمعية السرية بما هو شيء نؤديه في صحبة الآخرين . أما لو كان ضبط النفس شيئًا خصوصيًا ليس غير ، أو كان خاليًا من كل جانب ديني ، لأضرّ بنا بمثل الضرر الذي

---

(١) نحن مدينون بترجمة هذا الاصطلاح على هذا النحو للدكتور عبد الرحمن بدوي - المترجم - .

يورثه لنا الاحتفاظ بسرّ شخصى . وإنما تأتى أطوارنا القبيحة ونوبات الغضب والهياج تنتاب المسرفين فى التمسك بالفضيلة ، إنما تأتى من هذا النوع من ضبط النفس وكبت الانفعال . لأن انفعالاً نمسكه هو أيضًا شيء نخفيه ، شيء نستطيع أن نخفيه حتى عن أنفسنا ؛ وهو فنّ يتفوق فيه الرجال بخاصة ، على حين أن النساء - مع استثناءات قليلة جدًا - ينفرن بطبعهن من ممارسة هذا اللون من العنف بحق عواطفهن . إننا إذ نمسك انفعالاتنا ، فإنما تميل بنا إلى العزلة وتورثنا القلق ، تمامًا كما يفعل سرّ ليس فى واعيتنا ، وهى - مثله - مثقلة بعبء الذنب .

وكما تضمر لنا الطبيعة شرًا لو احتفظنا بسر نحجبه عن سائر الناس، كذلك هى تضمر لنا المقت لو أمسكنا عواطفنا تجاه أقراننا . فالطبيعة تمقت الفراغ من هذه الناحية مقتًا شديدًا ؛ لأنه - فى السياق الطويل - لا شيء أثقل عبئًا علينا من فتور العلاقات الشخصية الذى يورثه ضبط العواطف . فالعواطف المكبوتة - على الأغلب - نوع مما نريد أن نبقيه طىّ الكتمان ؛ لكن السر الذى يستحق هذا الاسم لا وجود له فى الأعم الأغلب ؛ فما ثمّ إلا عواطف نستطيع أن نجاهر بها ، لكنها أصبحت خافيّة لمجرد حبسنا لها فى مناسبة هامة .

من المحتمل أن نجد عصابًا تحكمه سيادة الأسرار ، وشكلاً آخر تحكمه سيادة ضبط الانفعالات . فصاحب الهستيريا ، الذى يطلق

لعواطفه العنان ، هو - في الأغلب - صاحب سر . بينما مريض الـ «سيكستينيا»[1] يعانى من عجز فى هضم انفعالاته .

الاحتفاظ بالأسرار ، والتحكم بالانفعالات ، مخالفات نفسية من أجلها تقوم الطبيعة بزيارتنا ومعها المرض ؛ أى عندما نرتكب هذه المخالفات فى السرّ . أما عندما نفعلها ، بالاشتراك مع الآخرين ، فإنما نلبّى بذلك حاجة طبيعية حتى لتُعدّ من الفضائل المفيدة . إن التحكم بالانفعالات لا يكون ضاراً إلا عندما نمارسه وحدنا ومن أجل أنفسنا . يبدو الأمر وكأن للإنسان حقًا لا يُنازع أن يرى فى أقرانه كل مظلم وناقص وغبى ومذنب - وهذه الأشياء التى نحتفظ بسرّيتها بغية أن نحمى أنفسنا . ويبدو أن الطبيعة تعتبرنا آثمين إذا نحن أخفينا عيوبنا ، تمامًا كما لو عشنا على جانبنا المعيب وحده . ويبدو أن فى الإنسان ضميراً ينزل أشد العقاب بمن لا ينقطع عن حماية نفسه وتوكيدها بطريقة ما وفى وقت ما ومهما غلا الثمن الذى يتكلفه من كبريائه ، بدلاً من أن يقر بعجزه ويعترف بإنسانيته[2] . وإلى أن يستطيع ذلك ، ينهض بينه وبين ممارسته للخبرة الحية التى تشعره بإنسانيته سور صفيق لا سبيل إلى اختراقه . هنا نجد مفتاح المغزى العظيم الذى ينطوى عليه «الاعتراف»

---

(١) لم نعثر ، فيما لدينا من معاجم - وفيها معجم للمصطلحات الفنية - ، على تفسير لهذا المرض - المترجم - .

(٢) يذكرنا هذا بمخاطبة الشاعر عمر أبو ريشة لفيلسوف المعرة :

لست تسطيع أن تكون إلهًا ... فإن استطعت فلتكن إنسانًا

- المترجم -

الحقيقى ، غير المتجسد في قوالب ؛ وهو معنى حرفته جميع النحل المريدية initiatic وديانات الأسرار في العالم القديم ، كما يظهر ذلك في قول يُنسب إلى الأسرار الإغريقية : «هب كل ما عندك حتى تنال» .

يمكننا اتخاذ هذا القرار دليلاً نسترشد به ونحن فى المرحلة الأولى من المعالجة النفسية . ومن الحقائق المقررة أن تقتصر بدايات التحليل النفسى ، بصفة أساسية ، على التنقيب العلمى عن حقيقة قديمة ؛ حتى اسم التطهير catharsis الذى أُسمى به أول منهج فى العلاج النفسى إنما جاء من طقوس الإغريق المعتمدة فى الشدّ والتلقين . لقد قام منهج التطهير الأول على أساس يجعل المريض يعقد صلة مع مؤخرة عقله ، بواسطة التنويم أو بدونه ؛ أى وضع المريض فى الحال التى تدعوها أنظمة «اليوغا» الشرقية بحال التأمل أو التفكر . وفى مقابل التأمل الذى نجده فى رياضة اليوغا ، يرمى التحليل النفسى إلى ملاحظة الصور الظليلة - سواء أكانت فى هيئة صور أم مشاعر - التى تتكشف عنها النفس الخافية وتظهر على الإنسان الذى ينظر فى الداخل بدون طلب منه . بهذه الطريقة نعود فنعثر على الأشياء التى كنا كبتناها أو نسيناها . وهذه الطريقة ، رغم ما لعلّه أن يكون فيها من إيلام ، تُعتبر كسبًا بحد ذاتها ، لأن ما هو ناقص، أو حتى لا قيمة له ، ينتسب إلىّ بما هو ظلّ لى ، ويهبنى قوامًا وكتلة . كيف يكون لى قوام ولا ظلّ لى ؟ لابد لى من جانب مظلم أيضًا إن كنت أبتغى لنفس كمالاً ؛ وكلما وعيت ظلّى تذكرت أيضًا أننى

كائن بشري مثلي مثل غيري من الناس ، على كل حال ، عندما أحتفظ به لنفسي ، يعيلني التنقيب عنه ، وهو ما يجعلني كلاً متكاملاً ، إلى نفس الحالة التي كانت قبل وقوع العصاب أو انشطار العقدة . فإن احتفظت بالموضوع سراً ، لم أصل إلا إلى شفاء جزئي ، لأني عندئذ أظل في مسألة عزل . وليس كالاعتراف ما يعيننى على إلقاء نفسى فى أحضان الإنسانية التى تحررت أخيراً من عبء المنفى الأخلاقى . والهدف الذى يرمى إليه العلاج بواسطة التطهير هو الاعتراف الكامل ، لا مجرد إقرار العقل بالوقائع بل تشبيت بواسطة القلب ، وإطلاق فعلى للمكبوت من الانفعالات .

ولعلنا نتصور أن لمثل هذه الاعترافات أثرًا عظيمًا فى نفوس بسطاء الناس ، وإن الشفاء الذى ينتج عنها غالبًا ما يبعث على الدهشة . ومع ذلك لا أريد الإشارة إلى أن شفاء بعض المرضى كان تحقيقًا رئيسيًا للعلاج النفسى عند هذا المستوى ؛ ما أريد لفت الانتباه إليه هو التوكيد المنهجى الذى يرتديه مغزى الاعتراف . فهو الذى يعيدنا إلى الألفة جميعًا ؛ لأننا جميعًا نظل متفرقين على نحو أو آخر بسبب من أسرارنا ؛ وبدلاً من السعى إلى إقامة الجسور فيما بيننا بواسطة الاعتراف ، نتخيّر الطريق الجانبى الأسهل وما يتضمن من آراء وأوهام خادعة . إنى ، إذ أقول هذا لا أريد أن أنطق بحكمة عامة . لأن من الصعب أن نسرف فى اتهام ما فى الاعتراف المشترك المتبادل بالآثام من قلة ذوق . الحقيقة التى

أقرها علم النفس هى هذه : نحن إنما نتعامل مع قضية بالغة الحساسية ؛ فلا نستطيع أن نتناولها مباشرة أو بذاتها لأنها تطرح أمامنا مشكلة ذات «قرون مدبّبة» لم نعتّد عليها . ولسوف يجلّى هذه المسألة النظر فى المرحلة الثانية ، وأعنى بها مرحلة التفسير explanation .

واضح تمامًا أن التطهير لو كانِ دواء يشفى من كل الأمراض ، لظل علم النفس الجديد واقفًا عند مرحلة الاعتراف ولم يتجاوزها . فأولاً وقبل كل شىء ، ليس بالمستطاع دومًا أن تُدنى مرضى معيّنين من الخافية قربًا يتيح لهم الوصول إلى الظلال . والحق إن مرضى كثيرين - معظمهم معقد وعلى مبلغ من الوعى - يتشبثون بالواعية تشبثًا شديدًا حتى لا يستطيع شىء أن ينزع أيديهم عنها . وغالبًا ما يُبدون أعنف المقاومة كلما بدت محاولة لطرح الواعية جانبًا ؛ يريدون أن يتحدثوا إلى الطبيب عن أشياء يعونها وعيًا شديدًا ؛ يريدون أن يجعلوا مصاعبهم مفهومة وأن يبحثوا فيها ، ويقولون إن عندهم الكثير لكى يعترفوا به ، ولذلك يجب ألا يُلتفت إلى الخافية من أجل ذلك . لمثل هؤلاء تمسّ الحاجة إلى «تقانية» كاملة لكى ندنيهم قربًا من الخافية .

هذه إحدى الحقائق التى تقيد حريتنا منذ البداية فى اعتماد منهج التطهير ، والقيد الثانى الذى سنكشف عنه بعد قليل تفضى بنا مناقشته فى التوّ واللحظة إلى مشكلات المرحلة الثانية ، وهى مرحلة التفسير . لنفرض أن الاعتراف المطلوب بواسطة منهج التطهير قد حصل فى حالة

معـينة ، وبأن العصـاب قد اخـتفى ، أو أن الأعراض قـد تلاشت على الأقل. فى مثل هذه الحالة ربما نعتبر المريض قد شُفى إن كان الأمر متوقفًا على الطبيب وحده . لكن المريض - أو المريضـة بخاصة - لا يخلص ، لأنه يظل «متـعلقًا» بالطبيب بفـعل الاعتراف . فإذا انـقطع هذا التعلق ، الذى لا معنى له بحسب الظاهر ، انقطاعًا قـسرياً ، فإن نكسة خطرة لابدّ واقعة .

ومن الأمور الغـريبة والهامـة معًا أن توجد حـالات لا يحصل فيـها تعلّق ، إذ ينصـرف المريض وقـد شُفى ظاهريًا ، لكنـه يُضحى مـغـرمًا بمؤخرة عـقله غرامًا يجعله يمضى فى عـملية التطهيـر بنفسه على حـساب تكيّفه مع الحياة . لقـد أضحى متعلقًا بخافيتـه - بنفسه - لا بالطبيب - واضح أنه قـد أسـهم بقسطـه من خبـرة «ثيسيوس» ورفيـقه «بيريثوس» نزولهمـا إلى الجحيم من أجل إعادة إلهـة العالم السفلى . ولمّا أعيـاهما التعب جلسا فى بعض الطريق يلتمسان حـظًا من راحة فما راعهما إلا أن ألفيا نفسيهما فى الدرك الأسفل ولم يستطيعا نهوضًا .

هذه الحوادث الغـريبة والمفاجـئة يجب أن نشـرحها للمـريض . أما الحالات التى أتينا على ذكرها أولاً . وهـى حالات المرضى الذين يمتنعون على التطهيـر ولا يستجيبـون له ، فيجب أن نعالجـها بطريقة التفـسير . ورغم أن الفريقين من المرضى مختلفان ظاهريًا ، لكنهما يلتقيان عند نفس النقطة التى تتطلب البـدء بالتفسـير ؛ وأعنى بها النقطة الـتى تنشأ عندها

مشكلة التثبيت fixation ، على ما بيّنها «فرويد» . ويكون التثبيت في أوضح حالاته عند المرضى الذين عولجوا بواسطة التطهير ، ويكون واضحًا جدًا خصوصًا عند من يظلون متعلقين بالطبيب . وقد لوحظ شيء مماثل أثمر نتيجة غير سارة عن المعالجة بواسطة التنويم المغناطيسي ، وكانت الآلية الداخلية لهذه الرابطة غير مفهومة في حينها . أم الآن فيبدو أن هذه الرابطة تنطبق أساسًا على العلاقة بين الأب والابن . يقع المريض في تواكل صبياني لا يستطيع له دفعًا حتى ولو استخدم عقله وأنفذ بصيرته . ويبلغ التثبيت أحيانًا مبلغًا من الشدة يبعث على الدهشة حتى ليرتاب المرء في أن تكون تغذيته آتية من قبل قوى خارجة عن المألوف . لكن بما أن سياق التحويل transfernce سياق خافيّ (= لا شعوري) ، يجد المرء نفسه عاجزًا عن إعطاء معلومات عنه . وواضح هنا أننا نتعامل مع عرض مرضي جديد ، مع تشكل عصابيّ مستمدّ من المعالجة . ولذلك ينهض أمامنا السؤال التالي : كيف نتغلب على هذه الصعوبة الجديدة ؟ العلاقة الخارجية التي لا تخطيء على هذا الوضع هي صورة الذكرى عن الأب وما تحمله من شعور بيّن تتحول إلى الطبيب . وبما أن هذا الأخير يتخذ دور الأب طوعًا أو كرهًا ، ما يلبث المريض حتى ينزلق في علاقة صبيانية . طبعًا هو لا يصير صبيانيًا بسبب هذه العلاقة ؛ لقد كان فيه دائمًا شيء من الصبيانية ، لكنها صبيانية مكتومة ؛ أما الآن فقد صعدت إلى السطح . وبما أن الأب الذي فقدناه منذ مدة طويلة قد عدنا فلقيناه ، نجد هذه الصبيانية تحاول أن تسترجع الوضع الطفولي في العائلة .

لقد أعطى «فرويد» هذا العرض الاسم المناسب له ، وهو التحويل transference . إن قدراً من الاتكال على الطبيب الذى قدّم لك العون أمرٌ سوىّ بالطبع ولعلنا نفهمه تمامًا . لكن الذى يشذّ عن السويّة ويفجؤنا هو العناد غير العادى الذى يتصف به التحويل وامتناع إيصاله إلى التصحيح الواعى .

لقد كان أحدُ إنجازات «فرويد» البارزة تفسيرَهُ لطبيعة هذه الرابطة ، على الأقل فى ضوء تاريخ الإنسان الشخصى ، وفتحَهُ الطريق أمام تقدم هام فى المعرفة السيكولوجية . ولم يعد اليوم أدنى شك أن هذه الرابطة ناشئة عن تخيلات خافيّة ، وأن هذه التخيلات تتمتع بصفة الزنا (بالقرابة القريبة) incest بصفة رئيسية ، ومن شأن هذا أن يفسّر بقاءها فى الخافية وامتناع صعودها إلى السطح مهما بلغ الاعتراف من شمول وإحاطة . رغم أن «فرويد» كان يتكلم دائمًا على تخيلات الزنا (بالقرابة القريبة) ، بما هى تخيلات مكبوتة ، لكن تقدم الخبرة يظهر لنا أن هذه التخيلات ما كانت قط واعية فى كثير من الحالات ، أو أن أصحابها قد أحسّوا بها ولو إحساسًا غامضًا ؛ ولهذا يمتنع أن تكون مكبوتة قصداً . وما كشفت عنه المباحث الحديثة أن تخيلات الزنا (بالقرابة القريبة) تخيلات خافيّة عادةً وأنها تبقى كذلك حتى تخرج إلى النور بواسطة المعالجة التحليلية . لا أريد بهذا صعودها إلى الأعلى من أعماق الخافية تدخل من طبيعة يجب اجتنابها ، وإنما أردت أن أبين أن هذا الإجراء

يكاد أن يبلغ من العنف ما تبلغه عملية جراحية . لكنه أمر لا يمكننا تفاديه كليّةً ، لأن الإجراء التحليلي يستثير «التحويل» ، وهو أمر غير طبيعي ، ولا يعالج إلا بالوصول إلى تخيلات الزنا (بالقرابة القريبة) .

في الوقت الذي تعيد فيه طريقة التطهير إلى الآنيّة محتويات هي في متناول الواعية ومندرجة فيها ، تقوم بطريقة تجلية التحويل بإنارة محتويات تكاد بطبيعتها أن تكون ممتنعة على الواعية . هذا هو الفرق الرئيسي بين مرحلة الاعتراف ومرحلة التفسير .

بحثنا – فيما تقدم – في فئتين من الحالات : حالات المرضى الذين لا يستجيبون لطريقة التطهير ، وحالات الذين تثمر معهم هذه الطريقة . ثم تناولنا – زيادة على ذلك – حالات المرضى الذين يتخذ التثبيت لديهم صورة التحويل . وإلى جانب هؤلاء وأولئك أناس أتينا على ذكرهم ممن لا يحدث لهم تعلق بالطبيب ، بل بالخافية وهو يشبه الوقوع في فخ . وفي هذه الحالات لا تنتقل الصورة الأبوية إلى الموضوع البشري ، بل تبدو تخيلاً ، لكنها مع ذلك تحدث نفس قوة الجذب ، وتورث نفس التعلق الذي يورثه التحويل .

نستطيع أن نفهم المرضى الذين لا يمكنه إسلامُ أنسهم بدون تحفظ إلى العلاج بطريقة التطهير ، في ضوء البحث الفرويدي[1] ، إذ نستطيع

(١) الذي يذهب إلى أن تخيلات الزنا (بالقرابة القريبة) كانت مرة في الواعية ثم انسربت إلى الخافية .

أن نرى فيهم توحداً identification مع الأبوين حتى قبل مجيئهم إلى الطبيب ، يستمدون منه سلطة قوية واستقلالاً وقوة نافذة تمكنهم من مقاومة العلاج مقاومة ناجحة . معظم هؤلاء مثقفون أفردوا شخصياتهم عن كتلة المجموع . على حين نجد آخرين وقعوا ضحايا ، لا شفاء لها ، لصورة الأبوين الخافيّة[١] يستمدون القوة من توحد أنفسهم مع أبويهم توحداً خافيّاً .

في موضوع التحويل ، لا نستطيع الوصول إلى نتيجة مثمرة اعتماداً على الاعتراف . وكانت هذه المسألة هي التي حملت «فرويد» على إحداث تجديد أساسي على تقانيّة «بروير» الأصلية القائمة على التطهير وعلى ما دعاه هو نفسه بـ «المنهج التفسيري» وقد جاءت هذه الخطوة عن اضطرار ، لأن العلاقة التي تحدث نتيجة للتحويل تتطلب الشرح والتفسير . الرجل العادي قلما يستطيع إدراك أهمية ذلك ، لكن الطبيب الذي يجد نفسه واقعًا في شبكة من المفاهيم التخيلية التي يتعذر فهمها يدرك أهمية ذلك بجلاء . يجب عليه أن يفسر التحويل للمريض ؛ أي أن يشرح له ما «يُسقطه» على طبيبه . وبما أن المريض لا يدري ما هو ، يُضطر الطبيب إلى إخضاع ما يمكنه الحصول عليه من شذرات التخيل التي تصدر عن المريض إلى التفسير التحليلي . والأحلام ، أولاً وقبل كل شيء ، هي التي تزوّدنا بهذه المادة الهامة . لقد قام «فرويد» وهو يبحث في كبح

(١) أي أن هذه الصورة ما كانت في الواعية أصلاً ، بل منشؤها الخافية – المترجم -

الرغبات التى تتصادم مع منطلقاتنا الواعية ، قام بدراسة الأحلام سعيًا لتعرف هذه الرغبات . وإنه لفى سياق بحثه إذ اكتشف محتويات الزنا (بالقرابة القريبة) التى تكلمت عنها . لكن الذى كشف عنه «فرويد» لم يكن هذه المحتويات وحدها . وإنما جميع القذارة التى بمقدور الطبيعة البشرية أن تنطوى عليها . ومن المعروف أن وضع قائمة بها ، ولو غير دقيقة ، مهمة تستغرق العمر بأكمله .

كانت النتيجة الختامية التى أثمر عنها منهج «فرويد» فى التفسير بيانًا مفصلاً عن الجانب المظلم (= الظل) من الإنسان على نحو لم يقم به أحد قط من قبل . وكان هذا البيان أنجح ترياق قد يخطر بالبال من أجل تبديد جميع الأوهام المثالية التى نحكيها حول طبيعة الإنسان ؛ ولذلك لا عجب أن تنهض فى وجه «فرويد» ومدرسته أشد أنواع المعارضة من جميع الجهات .

والحق إنه لا يمكننا أن نتوقع شيئًا آخر ممن يؤمنون بالأوهام عن عقيدة ومبدأ . لكنى أعتقد أن فئة غير قليلة ممن لم تستحوذ عليهم الأوهام بالجانب البشرى المظلم كانوا فى جملة من اعترضوا على منهج التفسير ؛ وكان وجه الإعتراض عندهم أنه لا يجوز رسم صورة الإنسان انحيازاً إلى جانبه القاتم وحده . وبعد ، ليس الظل بالأساسى ، بل الجسم الذى يلقيه .

يعتمد منهج «فرويد» فى التفسير على إيضاحات تبتغى رد الأمور إلى أصولها ، وهذا يؤدى بنا بإطّراد نحو الخلف ونحو الأسفل ؛ وإذا بالغنا

فى استخدام هذا المنهج بطريقة أحـادية ، كان له تأثير مدمر علينا . ومع ذلك استفاد علم النفس فـائدة عظيمة من عمل «فرويد» الرائد ؛ إذ تعلم (علم النفس) أن للطبيعة البشرية جانبها الأسود أيضًا ، وإن الإنسان ليس وحده الذى عنده هذا الجانب ، وإنمـا أعماله ومؤسسـاته وعقائده أيضًا ، حتى أنقى معتقداتنا وأقدسها يمكننا ردّها إلى أكثر أصولها خاميّةً (= نسبة إلى المادة الخام) ؛ بل حـتى هذه الطريقة من النظر إلى الأشياء . فـبداية جميع العضويّات الحيـة بدايات بسيطة ومتدنيّة ؛ وإنما نبنى بيوتنا بدءًا من الأساس ثم نـرفعهـا إلى أعلى ما من مـفكر ينكر أن تفـسير «سـلومون رايناخ» للعشاء الأخير بصيغة التوتمية البدائية قد جاء محمّلاً بالمعنى ، وما من أحد يعترض على أن موضوع الزنا (بالقـرابة القريبة) قد بيّنته أساطير آلهـة الإغريق . ومن المؤلم - ولا نكـران فى ذلك - أن نفسـر الأشيـاء المضيئة من الجانب الظلم (= الظل) ، وبذلك نعيدها ، بمقياس ما ، إلى أصولهـا من القذارة الـكئيبـة . لكن يبدو إلـى أن ثمّة نقصًا فى أشـياء الجمال، وضعـفًا فى طبيعة الإنسان ، إن كان للتفـسير من الجانب المظلم تأثير مدمّر . ومـا مردّ الرعب الذى نشعر به من تفـسيرات «فرويد» إلا إلى سذاجتنا البربرية أو الصبيانية التى تذهب بنا إلى حد الاعتقاد بوجود مرتفـعات بدون منخفـضات تقابلها ، ممـا يُعمينا عن الحقـيقة «النهـائية» القائلة إن الأطراف تتـلاقى عندما تُحمل إلى حدودها القُصـوى . ومنشأ

الخطأ أن نحسب المضيء لا يعود له وجود إذا نحن فسّرناه من الجانب المظلم . وهذا خطأ يؤسف له ، وقد وقع فيه «فرويد» نفسه ، ومع ذلك يرجع الظل إلى النور ، مثلما يرجع الخير إلى الشر ، والعكس بالعكس. لذلك تجدنى لا آسف لما يورثه فينا عرض أوهامنا وحقارتنا الغريبة من شعور الصدمة ؛ على العكس ، أرحب بهذا العرض وأعلق عليه أهمية تكاد لا تُقدر بثمن . . لأنه إحدى النوسات التى تنوس لكى تعيد الأمور إلى نصابها الصحيح ، كما أظهر لنا التاريخ ذلك فى كثير من الأحيان . ويجبرنا على القبول بالنسبية الفلسفية الحاضرة على النحو الذى صاغه إينشتاين فى الفيزياء الرياضية ، والتى هى فى الأساس حقائق الشرق الأقصى التى لا يسعنا التنبؤ بآثارها النهائية علينا .

الأفكار الأقل تأثيرًا فى سلوكنا هى الأفكار التى ينتجها العقل . لكن عندما تعبر الفكرة عن خبرة نفسية تؤتى ثمارها فى أقاليم منفصل بعضها عن بعض ، كانفصال الشرق عن الغرب ، ومبرأة من العلاقة التاريخية ، عندئذ يجب أن ننظر فى الأمر فى إمعان ؛ لأن هذه الأفكار تمثل قوى هى من وراء التبرير المنطقى والتأييد الأدبى أو الأخلاقى ؛ هى دائمًا أقوى من الإنسان وأقوى من عقله . والإنسان يؤمن إيمانًا حقيقيًا بأنه هو الذى يصوغ هذه الأفكار ، لكن هذه الأفكار هى التى تصوغه فى الحقيقة ، وتجعل منه الناطق باسمها وهو لا يدرى .

عَوداً إلى مشكلة التثبيت ، أحب أن أتناول الآثار التى تترتب على سياق التفسير . يصبح المريض عارفًا بوضعه غير السليم من حيث علاقته بالطبيب عندما يرتد التحويل إلى أصوله المظلمة ؛ فلا يستطيع أن يتجنب رؤية ما في مطالبه من قلة لياقة ومن صبيانية . فإن كان به غرور عمل على استبدال موقع أوضع بموقعه الأرفع ، وعلى التسليم بأن فقدان الأمن أصح وأكثر عافيةً . وإن كان ظل متمسكًا بمطالبه الصبيانية يبغى أن يحل محله شعور متعاظم بالمسؤولية . والحصيف من يتخذ قراراته الأخلاقية بنفسه ، عارفًا عيوبه ، ويتخذ من هذه المعرفة درعًا يقى بها نفسه ؛ يخوض غمار معترك الوجود ويستنفد شيئًا فشيئًا بالعمل والخبرة تلك الطاقة من الحنين التى كانت من وراء تشبثه عنيداً بفردوس الطفولة ، أو لا ينظر إليه – على الأقل – إلا من فوق كتفه . ويصبح من مبادئه الأخلاقية الهادية أن يتكيف مع عيوبه ويصبر عليها ، ويسعى أن يحرر نفسه من العاطفية والأوهام . والنتيجة الحتمية التى تترتب على ذلك انصرافه عن الخافية كما ينصرف عن مصدر ضعف وغواية ، عن ميدان هزيمته الأخلاقية والاجتماعية .

المشكلة التى تواجه المريض الآن هى أن يتعلم كيف يصبح كائنًا اجتماعيًا ، وبذلك نأتى إلى المرحلة الثالثة . حسبُ الذى عنده حس أخلاقى أن ينظر فى نفسه بما لديه من قوة دافعة تكفى لأن تنقله إلى موقع متقدم . أما صاحب الخيال الضعيف من ناحية القيم الأخلاقية ، فهذا

غيـر كافٍ . هذا لا تعـود عليه مـعرفتـه بذاته بأى نفع إلا إن كـان ثمة محرّض من ضرورة خارجـية ، حتى ولو كان مقتنعًا بها قناعـة عميقة ؛ هذا ، ناهيك عمن صـدمته تفسيـرات المحلل وظل يرتاب بها مع ذلك . هذا الأخيـر إنسان منضبط عقلـيًا أدرك حقيقـة التفسيـر الذى يرد الأمور الرفيعـة إلى أصلها «الوضيع» لكنه لا يستـطيع التسليم به لأنه يتنافى مع آماله ومثله العليا . فى مثل هذه الحالات لا يكفى مجرد النظر فى الذات. إن ضعف منهج التـفسير أنه لا يُفلح إلا مع الأشـخاص ذوى الحساسـية الذين يسـتطيعون اتـخاذ قرارات أخـلاقيـة مستـقلة مسـتقـاة من فهـمهم لأنفســهم. صحيح أننا نستطيـع أن نقطع فى التفسيـر خطوات إلى الأمام أبعد مما نـستطيع أن نفعل ذلـك بالاعتراف غـير المفـسّر وحده ، بما هو تدريب للعقل ، وربما إيقاظ للقوى الراقدة التى تستطيع أن تتدخل تدخلاً مسعـفًا بالتالى . لكن الحقيـقة الباقيـة هى أن أشمل التفسـيرات وأنفذها يجعل الإنسان فى أكثر الحالات إنسانًا ذكـيًا ، لكنه يتركه طفلاً عاجزًا . المشكلة هى أن التفـسيرات «الفرويدية» القـائمة على مبدأ اللذة وإرضـائها تفسيـرات أحادية وبالتالى غيـر كافية ، خصـوصًا إذا نحن طبقناها على المراحل المتأخـرة من التطور . هذه النظرة لا تصلح تفسيـرًا لكل إنسان ؛ لأنه ، وإن كـان كل إنســان يمتلك هذا الجـانب ، ليس بالجـانب الأهم دائمًا. الفنان الجائع يفضل الخبز على لوحة جميلة ، والمحب يفضل امرأة على حياته العامة ؛ ومع ذلك تظل اللوحة عند أحدهما ، والوظيفة العامة

عند الآخر ، ذات أهمية بالغة . بعامة ، لعلنا نستطيع أن نعزو إلى مبدأ اللذة أسباب نجاح الذين يستطيعون أن يتكيفوا مع المجتمع ويحتلوا مركزاً مرموقًا فيه أكثر من الذين لم يستطيعوا تكيفًا معه بما لديهم من عيوب اجتماعية تتركهم يتحرقون لهفةً على السلطة والمكانة الرفيعة . فالأخ الأكبر الذى يسير على خطا أبيه ، ويصل إلى مركزه الآمر الناهى ، قد يكون معذبًا بشهواته ؛ لكنّ الأخ الأصغر الذى يشعر أنه مكبوت ، وأن الاثنين الآخرين قد أخفيا ظلّه ، قد يكون الحافز عنده الطموح واللهفة إلى الاحترام ؛ إذ ربما يستسلم لعواطفه كليّة ، ولا يرى فى سواها أمراً حيويًا .

عند هذه النقطة ندرك مبلغ ما فى تفسير «فرويد» للأشياء من نقص، وعند هذه النقطة بالذات قام تلميذه السابق «ادلر» بسدّ الفجوة . لقد بيّن «ادلر» وكان بيانه مقنعًا، أن كثيراً من حالات العصاب نستطيع لها تفسيراً مُرضيًا على أساس «دافع السيطرة» بأكثر مما يستطيع «مبدأ اللذة» أن يفسّرها . ولذلك قام تفسيره على أساس أن يبيّن للمريض أنه «يرتب» أعراضه ويستغل عصابه سعيًا للوصول إلى مكانة وهمية ، وأن تحويلاته وتثبيتاته الأخرى لا عمل لها سوى خدمة شهوته للسيطرة ، وهو (العصاب) يمثل «احتجاجًا مذكرًا» على خضوعه الموهوم . من الواضح أن «ادلر» قد ركّز نظره على المكبوتين والفاشلين اجتماعيًا ممن استحوذت عليهم شهوة واحدة هى توكيد الذات self-assertion . هؤلاء معصوبون

لأنهم يتصورون أنفسهم مضطهدين دائمًا ، ويصوّبون رماحهم نحو طواحين هوائية من صنع تخيلاتهم ؛ وبذلك يرفعون الهدف الذى يرمون تحقيقه ، أكثر من كل هدف آخر ، إلى ما فوق متناولهم .

فى اعتبار الأساسيات ، يبدأ منهج «ادلر» فى المرحلة الثانية ، وهو يفسّر الأعراض التى أشرنا إليها توآ ، ويكون مفهومًا لدى المريض عند هذا الحد . ومع ذلك إن ما يتميز به «ادلر» أنه لا يتوقع الشيء الكثير من الفهم ، بل يخطو خطوة إلى الأمام باعترافه صراحةً بالحاجة إلى التربية الاجتماعية . فى الوقت الذى يُعتبر فيه «فرويد» باحثًا ومفسرًا يعتبر «ادلر» مربيًّا بصفة رئيسية . وهو إذ يرفض أن يترك المريض فى حالة صبيانية ، يائسًا رغم فهمه الثمين ؛ وهو إذ يجرّب كل طريقة لكى يعلمه ويجعل منه كائنًا متكيفًا اجتماعيًا سويًا ؛ وهو إذ يجرّب كل هذا - على ما يبدو - اعتقادًا منه أن التكيف الاجتماعى والحالة السويّة أمران لا غنى عنهما للكائن البشرى ، بل هما من أكثر الأهداف إلحاحًا ، وأكثر التحقيقات مناسبةً . والتأثير الاجتماعى الذى أشيع عن مدرسة «ادلر» إنما جاء نتيجة لهذه النظرة ، شأنه فى هذا كشأن إهماله للخافية ، ذلك الإهمال الذى يصل به إلى حد انكاره لها إنكارًا تامًا . ولعل هذا الإنكار هو النّوسة إلى الطرف الأقصى المضاد ؛ إلى الارتداد الحتمى الناجم عن توكيد «فرويد» على الخافية الذى يتطابق مع الانجراف الطبيعى إليها الذى لاحظناه فى المرضى الذين يكافحون فى سبيل التكيف والصحة . ذلك

أننا عندما نعتبر الخـافية مجرد وعاء تُلقى فيه جـميع أشياء الظل الشريرة من الطبيـعة البشـرية . بما فى ذلك الرسوبات الطينيـة الأولى ، فإننا لا نرى لماذا يجب علينا أن نظل نتسكع على حافـة هذا المستنقع الذى سقطنا فيه فى وقت من الأوقات . قد يرى البـاحث فى بركة وحل صغيرة عالما حافلاً بالعجائب ، بينما لا يرى الإنسان العادى غير شىء يفضل أن يدير إليه ظهره . وكـما تَعَيَّنَ على البوذية ألا تعترف بإله لأنه كـان عليها أن تتحرر من إرث ما يقرب من مليـونين من الآلهة ، كذلك يتعيّن على علم النفس أن يرفض رفضًا قاطعًا مفهومًا عن الخـافية مثل مفهوم «فرويد» إن كان يريد لنفسه أن يتطور قُدُمًا .

تبدأ مـدرسة «ادلر» وما اشـتملت عليـه من مقاصـد تعليمـية ، عند النقطة التى تتركها مدرسة «فرويد» ، وبذلك تُعين المريض ، الذى تعلم أن ينظر فى نفســه ، على إيجـاد طريق يوصله إلى حـياة سـويّة . من الواضح أنه ليس يكفيه أن يعلم كيف وقع المرض ولا لماذا وقع فيه ؛ لأن معرفة أسباب المرض لا تفعل إلا القليل في سبيل الإقلال منه . يجب ألا ننسى ما تفضى إليه ممرات العصاب الملتوية من اكتساب لكثير من العادات العنيدة ، لا يُقلع عنها المريض إلا أن يحل محلها عادات أخرى ، بالرغم من كل قـدر من تفـهم يحـصل عـليـه . لكن العـادات لا تُكتـسب إلا بالممارسـة ؛ والوسيلة الوحـيدة إلى هذه الغاية التـعليمُ المناسب . لذلك يجب أن نحمل المريض على السير فى ممرات أخرى ؛ وهذا يتطلب دائمًا

إرادة للتعليم . من هنا كـان سبب ما لقيه مـفهوم «ادلر» من عطـف من رجال الـدين والتعليم ، بينمـا كان أنصـار مدرسـة «فرويد» من علمـاء الطبيعة ورجال الفكر ، وكلهم مُربٍ أو معلم فاشل .

لكل مرحلة من التطور النفسي نهاية خاصـة بها . فبعد أن نكون قد اختبـرنا التطهير وما يرافقـه من اعتراف شامل ، نشعـر أننا بلغنا الهدف الذى كنا نسعى إليه : فكل خبيء ظهر ، وكل مجهول عُلِم ، وكل تعلق تبدّد ، وكل دمعة أُريقت ، وكل شيء سوف يسير على ما يجب أن يسير عليه . بعد مـرحلة التفسيـر ، نصبح قانعين أننا صرنا نعـرف كيف نشأ العصـاب . فالذكـريات الأولى تم الكشف عنها ، والجـذور العميـقة تم التنقيب عليـها ، والتحـول لم يكن غير توهُم إشـباع رغبـة فى فردوس الطفولة أو انكفاءٍ إلى الوضع العائلى القديم ، والطريق إلى حياة سويّة لا أوهام فيـها بات سالكًا وممهـدًا . ثم بعد ذلك تأتى مرحلـة التعليم التى تجعلنا نتـحقق أن ليس الاعتراف ولا كل قـدر من التفسيـر بقادر على أن يكفل لنا نموًا مستقـيمًا لشجرة معوجّة ؛ إذ لابد لها من بسـتانى يتعهّدها بالعناية قبل أن يصبح الوصول إلى تكيف سوىّ أمرًا ممكنًا .

هذا الإحسـاس الغريب بالنهاية ، الذى رافق كل مـرحلة من مراحل التطور ، هو الذى يجـعلنا نرى أناسًا ما سـمعـوا قط شيـئًا عن تفسـير الأحلام يلجؤون إلى ممارسة التطهير . فهناك «فرويديون» لا يفهمون كلمة من «ادلر» و «ادلريون» لا يريدون أن يسـمعوا كلمـة عن الخافـية (= اللا

شعور) ؛ جميع هؤلاء وأولئك خدعهم إحساس بالنهاية الذى يستدعى مثل هذا التصلب العنيد فى كل الاتجاهات ؟ لا أستطيع تفسير هذا لنفسى إلا على أساس أن كل مرحلة من مراحل التطور تشكل إجمالاً لحقيقة أساسية ؛ فهناك حالات تتكرر المرّة تِلْو المرّة وتثبت فيها هذه الحقيقة ثبوتًا ظاهرًا جدًا . لقد حفل عالمنا بالضلالات حتى باتت الحقيقة فيه شأنًا لا قيمة له ، ومن يعثر عليها لا يريد لها أن تفلت منه بسبب بضعة استثناءات لا تتفق معها . ولذلك يُنظر إلى من يشك فيها كما يُنظر إلى كافر شرّير ، بينما تتسلل إلى المناقشة لهجة من التعصب وقلة التسامح على جميع الجهات .

ومع ذلك بوسع كلّ منا أن يحمل مشعل المعرفة حتى مرحلة من الطريق إلى أن يتناوله منه شخص آخر . هل بمقدورنا أن نقبل هذا بطريقة غير شخصية ؟ هل بمقدورنا الاعتراف أننا لسنا المبدعين الشخصيين لحقائقنا ، وإنما نحن عارضون لها وتقتصر مهمتنا على تفصيل الاحتياجات النفسية ليومنا ؟ لو كان بمقدورنا هذا كلّه ، إذن لوفّرنا على أنفسنا كثيرًا من السمّ والمرّ وأصبحنا قادرين على إدراك استمرارية الحقل البشرى العميقة وفوق الشخصية .

كثيرًا ما نُسقط من حسابنا أن الطبيب الذى يعتمد التطهير أسلوبًا فى العلاج هو أكثر من تجسيد لفكرة مجردة تنتج التطهير ولا شىء غيره تلقائيًا ، وننسى أنه إنسان أيضًا . فقد يكون تفكيره محدودًا بحقل

اختصاصه ، وهذا شيء أكيد ؛ لكنه في سلوكه يمارس تأثير كائن بشرى كامل . وهو يفعل الشيء الكثير في طريق التفسير والتعليم من غير أن يقصد إلى ذلك ، ومن غير وعي ظاهر منه ومن غير أن يسمّيه ؛ وهناك محللين آخرين يفعلون مثله في طريق التطهير من غير أن يرفعوا ذلك إلى مستوى المبدأ .

ليست المراحل الثلاث من علم النفس التحليلى التى عالجناها حتى الآن من النوع الذى يمكن أن تحل فيه المرحلة الأخيرة محل الأولى أو الثانية . فالمراحل الثلاث موجودة معًا في وقت واحد ، وتشكل مظاهر بارزة لنفس المشكلة لا يُبطل بعضها بعضًا كما لا يبطل الاعتراف الغفران. نفس الشيء ينطبق على المرحلة الرابعة ، وهى مرحلة التغيير transformation ، الذى ليس له أن يدّعى أنه تحقق نهائيًا ، أنه وحده الحقيقة الثابتة . فدوره يقوم على سدّ الخلل الذى خلّفته المراحل السابقة ، ومهمته أن يلبى حاجة إضافية مازالت بدون تلبية .

ولكى نجلىّ القصد الذى ترمى إليه المرحلة الرابعة ، ونلقى شيئًا من الضوء على اصطلاح «التغيير» ، يجب علينا أولاً أن نأخذ في اعتبارنا حاجات الإنسان النفسية التى لم تأخذ مكانًا لها في المراحل الأخرى . بعبارة أخرى ، يجب أن نستيقن مما قد يبدو مرغوبًا فيه أو يؤدى إلى أبعد من الزعم أن المريض أصبح كائنًا اجتماعيًا ومتكيفًا سويًا لكن نفس مفهوم «الإنسان السوىّ» يوحى لنا باقتصاره على الكائن المتوسط ، كما

يوحى لنا أيضًا بمفهوم «التكيّف» . والإنسان الذى يصعب عليه أن يتلاءم مع عالمه اليومى هو وحده الذى يرى فى هذا الاقتصار تحسنًا مرغوبًا فيه ؛ أى الذى لا يؤهله عُصابه للتلاؤم مع الحيـاة السـويّة . أن يكون المرء «إنسانًا سويًا» هو أروع مثل أعلى للفـاشلين الذين لم يتكيفوا بعد . لكن الوقوف عنـد «السويّة» بالنسـبة لمن يتمـتعـون بمقدرة أكـبر مما يتمـتع به «المتوسط» ، ولمن لا يصـعب عليهم أن يحققـوا نجاحًا أو يسهمـوا بقسط أبكر مما يتمتع به «المتوسط» ، ولمن لا يصعب عليهم أن يحققوا نجاحًا أو يسهـموا بقسط فى صنع الـعالم ، لهو بمثـابة سرير «بروكروسـتيس» ، وضجر لا طاقة لهم به ، وعقم وقنـوط كالجحيم . وقد ترتّب على ذلك أن نجد كثـيرين قد نال منهم العـصاب لمجرد كونهم أسـوياء ، وآخرين يرتد عصابهم إلى قصورهم أو عـجزهم عن «السويّة» لهو عندهم كابوس لا يُطاق ، فأعمق احتياجاتهم أن يصبحوا قادرين حقًا على أن يحيوا حياة «غير سويّة» .

بوسع الإنسان أن يأمـل بتلبية حـاجة لم يمتلكها بـعد ، لكن ليس بوسعه أن يجـد لذة فيما عنده منه الشىء الكثيـر . أن يكون المرء متكيفًا اجتماعيًا ليس فيه مـا يفتن إنسانًا عنده أن يكون كذلك هو من قبيل لعب الأطفال . أن تفعل دومًا ما هو صحـيح يصبح باعثًا على الضجر عند من يعرف كيف يفعله، بينما يظل يداعب الصانع الذى تنقصه المهارة تطلّع خفى لأن يكون صحيحًا، ولو مرة واحدة ، فى وقت ما من المستقبل البعيد .

حاجات الأفراد وضرورياتهم تتفـاوت بين فرد وآخر . وما قد يحرّر إنسانًا قد يسجن آخـر ؛ ويصدق هذا القول على السويّة والتكيّف . ورغم الحكمة البيولوجـية القائلـة إن الإنسان حيـوان اجتمـاعى وإنه لا يكون صحيحًا مـعافى إلا أن يعيش فى جماعة ، إلا أن القضـية التى نلاحظها وكأنهـا تقلب هذه الإبانة رأسًا على عقب ، ونثـبت أن الإنسان لا يكون صحيحًا معًا فى إلا أن يعيش حياة غير اجتماعية وغير سويّة . ومن سوء الحظ الا يستطيع علـم النفس التطبيقى أن يقـدم وصفات وقـواعد سلوك صالحـة على وجه العمـوم . فما ثمـة إلا حالات فردية لهـا احتيـاجات ومتطلبات تختلف فيـما بينها اختلافًا كبيرًا . وقد بلغ اخـتلافها مبلغًا بتنا معه غير قادرين على استشراف الطريق الذى سوف تسلكها حالة بعينها . ولذلك يحسن بالطبيب أن ينبذ المسلّمات الفجّة ، من دون أن يعنى ذلك أن عليه أن يرفع جـميع مـسلّماته على الرفّ ، بل أن يعـتبرها مـسلّمات افتراضية إزاء كل حالة على حدة .

ومع ذلك لا تقـتصر مـهمـة الطبيب على تعليم المريض أو إقـناعه وحسـب ؛ وإنما عليه أن يبين له كـيف يكون رجع (= رد فعل) الطبـيب على حالته الخاصة . لأننا إن لجأنا إلى اللف والدوران ، تبقَ العلاقة بين الطبيب والمريض علاقة شخصية فى إطار المعـاجلة المهنية غير الشخصية . ومهمـا كانت وسائلها ، فليس بمقـدورنا أن نجعل من المعالجة أمـرًا بعيدًا عن التـأثير والتأثر المـتبادلين اللذيـن يلعب فيـهما دوره كل من كـينونة

المريض والطبيــب . وقد يكون نطاق الوعى عند كليــهما مــعروفًا معــرفة يقينيــة واضحة ، ولكنهمــا يجلبان معهــما نطاقًا من الخافيــة لا حدّ لمداه أيضًا. لهذا السـبب غالبًا مـا تكون نتيجـة المعالجة ذات صــلة بشخصــية الطبيب والمريض أكثر مما يقوله الطبيب أو يظنّه ، رغم أنه يجب ألا نقلل من قيمة العــامل الأخير من حيث كونُهُ سببًا فى الاضطراب أو الشفاء .
إن اجتماع الشخصيتين أشبه ما يكون باتصال مادتين كيماويتين : إن كان ثمة تفــاعل يغير كلتــاهما . ولعلنا نتوقع أن يكون لــلطبيب على المريض تأثير فى كل معالجة نفسيــة ناجحة ؛ لكن هذا التأثير لا يحدث لولا تأثر الطبيب بالمريض ايضًا. إنك لا تستطيع أن تحدث تأثيرًا إن لم تكن أنت قابــلاً للتأثر . وليس يُجــدى الطبيبَ أن يحــصّن نفســه من المريض وأن يحيط نفسه بستار من دخان السلطة الأبوية أو الحرفية . وإن هو فعل ذلك حَرَم نفسه من الإفادة من عنصر المعلومات البالغ الأهمية ، ومع ذلك يظلّ المريض يؤثر فيه تأثيرًا خافيًا . فالتأثيرات الخافيّة التى يحدثها المريض فى الطبــيب يعرفــها كــثيــر من أطباء النفس ، وهى اضطرابات - أو حــتى أضرار ناشــئة عن المهنة - تبين بجلاء تأثيــر المريض شبه «الكيــماوى» . ومن هذه التأثيــرات المعروفة التحــويل المضاد conuter - transference الذى يستثيره التحــويل. لكن أغلب هذه التأثيرات أدقّ وأخفى ، وأفضل مما يعبّر عنها فكرة «عفريت المريض» القديمة . بحسب هذه الفكرة ، ينقل المريض مرضه إلى شخص صحــيح يقع «العفريت» تحت سيطرة قواه لكن ليس بدون تأثير سلبى على صحة المعالج .

فى العلاقـة بين الطبيب والمريض نصـادف عوامل لا قيـاس لها ولا وزن تحدث تغييرًا وتغيّرًا متبـادلين . وفى هذا التبادل ، الشخصية الأثبت والأقوى تحسم النتيجة . لكننى شاهدت حـالات كثيرة أثبت فيها المريض أنه أقوى من الطبـيب رغمًا عن كل نظرية يشكلهـا هذا الأخير أو قـصد يريد الوصول إليه . إن حدث شىء من هذا القـبيل كان ذلك فى مصلحة الطبيب فى أكـثر الأحيـان ، وإن لم يكن كذلك دائمًا . التأثيـر والتأثر المتبادلان ، وكل ما يصـاحبهما من آثار وأعراض ، يسـتتران تحت مرحلة التغييـر . ولقد احتاج الأمر إلى ربع قرن من الخبـرة العملية حتى وصلنا إلى اعتراف صريح بهذه المظاهر . وقد سلّم «فرويد» نفسه بأهميتها وأثنّى على مطالبتى بوجوب خضوع المحلل للتحليل .

لكن ما هو المعـنى الأوسع لهذه المطالبة ؟ إنهـا لا تعنى أقل من أن الطبيب ، وهو يمارس التـحليل ، لا يختلف عن المريض فى شىء ؛ وأنه جزء مـن سيـاق العلاج النفـسى ؛ وأنه - كالمريض - عُرضـة لما يورثه التغيـير من آثار . والحق إنه لو كان الطبـيب ممتنعًا على هذا التأثر بعض الامتناع ، لامتـنع عليه التأثير فى المريض بنفس المقـدار ؛ ولو كان تأثره بالمريض خـافياً فـقط ، لكان نقص واعيـته يمنعـه من رؤية المريض رؤية صائبة . فى كلتا الحالتين تكون المعالجة غير ناجحة .

المطلوب من الطبيب ، إذن ، أن يواجه المهمة التى يريد من المريض مواجهتـها . فإن كان المطلوب من المريض أن يتكيف مع الجـماعة ، كان

على الطبيب نفسه أن يتكيف معها ؛ أو بالعكس ؛ أن يكون متكيفًا معها على حساب ما يناسبه . طبعًا ، ثمة ألف جانب من هذه المهمة فى عملية الشفاء ، وفقًا للوضع المطلوب فى حالة معينة . فطبيب يؤمن بوجود التغلب على الطفولية - إن هذا يترتب عليه أن يتغلب هو أيضًا على طفوليته ، وآخر يرى وجوب تصريف العواطف والانفعالات - الأمر الذى يوجب عليه تصريف عواطفه وانفعالاته . وثالث يؤمن بالواعية الكاملة - وهذا يقتضيه أن يبلغ مرحلة متقدمة من الوعى . فى كل الأحوال ، يجب على الطبيب أن يثابر على محاولة جميع المتطلبات العلاجية الخاصة به إن كان يريد أن يضمن لنفسه تأثيرًا خاصًا فى مريضه. إن جميع هذه المبادىء العلاجية المرشدة تضع الطبيب وجهًا لوجه أمام واجبات أخلاقية هامة نُجملها فى قاعدة واحدة : كن ذلك الإنسان الذى تريد من خلاله أن تؤثر فى الآخرين . الكلام المجرد أجوف دائمًا ؛ وما ثمة حيلة - مهما بلغت من براعة - تتيح للإنسان أن يجتنب هذه القاعدة البسيطة طويلاً . أن تكون مقتنعًا ، لا أن تكون مادة إقناع ، هى الحقيقة التى يقام لها وزن دائمًا .

لا تتطلب المرحلة الرابعة من علم النفس التحليلى أن يتغير المريض وحسب ، وإنما أن يطبق الطبيب على نفسه نفس النظام الذى يصفه لمرضاه فى كل حالة تصادفه ، والطبيب إذ يعالج نفسه ، يجب عليه أن يبدى نفس الشدة والصلابة والدأب الذى يبديه إذ يعالج مرضاه . أن

يشتغل على نفسه فى تركيزه على مرضاه ليس بالمهمة الهيّنة ، لأن عليه أن يبذل كل الانتباه وأن يدقق فى الحكم الذى يتطلبه إظهار مرضاه على طرائقهم وقراراتهم الخاطئة وحيلهم الصبيانية . لا أحد يكافىء الطبيب على جهوده الاستبطانية (التى بذلها فى تقويم نفسه)[1] ، فضلاً عن أننا لا نُعنى بأنفسنا العناية الكافية . فنحن ، بعامة ، نقلل من شأن ما فى النفس البشرية من مظاهر عميقة حتى لنعدَ فحص النفس أو الاهتمام بها أمرًا يكاد أن يكون مَرَضيًا . واضح أننا نرتاب أن يكون علق بأنفسنا أشياء غير صحية مما تخلّفه غرفة المرضى . يجب على الطبيب أن يتغلب على هذه المقاومات فى نفسه ، لأنه ما من أحد يستطيع أن يعلّم غيره وهو نفسه غير متعلم ، وأن ينير صحبه وهو فى ظلمة عن نفسه ، وأن يطهّر غيره وهو نفسه غير طاهر !

الانتقال من مرحلة تعليم الآخرين إلى تعليم النفس أمر مطلوب من الطبيب فى مرحلة التغيير ؛ لأنه النتيجة الطبيعية المترتبة على طلبه من المريض أن يغيّر نفسه ، وبذلك يُتم المراحل الأولى من المعالجة . لكن هذا التحدّى الذى يواجه الطبيب أن يغيّر نفسه لكى يحدث التغيير فى المريض لا يحظى بالقبول إلا قليلاً ؛ ولذلك أسباب ثلاثة : أولها ، أنه غير عملى . وثانيها ، أن ثمة تحاملاً على الاهتمام بأنفسنا ، وثالثها ، أنه قد يكون من المؤلم أن نحمل أنفسنا على العيش فى مستوى كل ما

---

(١) العبارة بين القوسين من وضعنا – المترجم – .

نتوقـعه من المريض . ولعل هذا الأخيـر هو السبب الأقـوى الذى يجعلنا نمتنع - على نطاق واسع - عن مطالبة الطبيب أن يفحص نفسه ؛ لأنه إن فحص نفسه صـادقًا فسرعان ما يكتشف فى نفسه أشـياء تتعارض كليّاً مع وضعيـة «الإنسان السوىّ» ، أو تظل قابعـة فى نفسه فى داخله تثـير أشد أنواع الاضطراب بالرغم من التفـسيرات الضـافية واتباع وسـائط تصريف العـواطف والانفعـالات . ماذا يجب عليـه أن يفعل مـخلصًا حيـال هذه الأشياء ؟ هو يعلم دائمًا ما ينبـغى على المريض أن يفعل بإزائها - إذن ، إن واجبـه المسلكى يحمله على أن يفـعل مثله . لكن مـاذا يجب عليه أن يفعل مخلصًا حيال هذه الأشياء عندما تكون متعلقة به أو بأقربائه الأدنين؟ لو فحص نفسه لاكتشف فيهـا جانبًا ناقصًا يُدنيه من مريضه دنواً خطرًا قد يفسد عليه سلطته . كـيف يعالج هذا الكشف الذى يعذبه ؟ هذا السؤال ، «العصابـى» من بعض الأوجه ، سوف يُقضّ عليه مـضجعه ، مـهما ظنّ نفسه إنسانًا سويًا . ثم تبين له لدى الفحص أن الأسئلة النهائية التى تلح عليه ، كما تلحّ على مرضاه ، لا تجد لها حلولاً بأى قدر من «المعالجة» . لسوف يخلى بينهم وبين أن يروا فـى توقع الحلول من الآخرين شكلاً من البقاء فى حالة الطفولية . ولسوف يرى بنفسه - إذا لم يكن الحل ممكنًا - أن عليه أن يعود فيكبت هذه الأسئلة .

لن أمـضى بعـيـدًا فى مسـألة فـحص الذات ومـا ينشـأ عنهـا من مشكلات، لأن الغمـوض الشديد الذى لم يزل يكتنف درسـنا للنفس لا

يسـمح لنا أن نوليهـا من الاهتـمام إلا أقله . وإنما بودّى أن أشـدد على أهمية ما قد قلته توّاً : تواجـهنا أحداث التطورات الحاصلةو فى ميدان علم النفس التـحليلى بعناصر لا قـياس لهـا ولا وزن من عناصر الشـخصـية الإنسانية ؛ لقد تعلمنا أن نضـع فى المقدمة شخصية الطبيب نفسه عاملاً شافيًا أو ضاراً؛ وبدأنا نطـالبه بتغيير نفسـه ، أى بتعليم المعلم . كل ما حـدث للمريض يجب أن يحـدث مثله لـلطبيب ، وعليـه أن يمر بمراحل الاعتـراف والتفسـير والتعليم كى لا تأتى رجـوعاته (= ردود فعله) غـير مناسبة للمريض. ولعل الطبيب ، فى هذه الحالة ، لا تعود تؤرقه مصاعبه الخاصـة به عندما يعالج مـصاعب الآخرين ، ويتـذكر أن من يشكو من خُراج جارٍ لا يناسبه أن يجرى عملية جراحية لغيره .

وكما أجبر جانب الخافية الظليل مدرسة «فرويد» على التعامل حتى مع المسائل الدينية ، كذلك جـعلت المراحل الأخيرة من تطور علم النفس التحليلى من موقف الـطبيب الأخلاقى مشكلة لا يمكن اجتنابهـا . فالنقد الذاتى والفحص الذاتـى المطلوبان منه يبدّلان نظرتنا إلى النفس الإنسـانية تبديلاً جـذريًا . فالنفس الإنسانيـة لا يتيسـر لنا فهمهـا من منطلق العلم الطبيعى ؛ لأنها ليست المريض وحسب ، وإنما هى الطبيب أيضًا ؛ وهى ليست وظيفة من وظائف الدماغ ، بل هى الشرط اللازم للواعية نفسها .

ما كـان يُعتـبر فى السابق أسلوبًا فـى المعالجة الطبـية أضـحى اليوم أسلوبًا فى التعلـيم الذاتى أو التعلم ، وبذلك يتسع عـلم النفس الحديث

سَعَةً لا حدود لها . فلم تعد شهـادة الطب التى نحصل عليها هى الشىء الحاسم ، وإنما هى الصفة الإنسانية . وهذه هى خطوة هامة . فقد تطورت جميع وسائلنا فى العلاج النفسى والممارسة السريرية وتهذبت وتبوّبت ، وهى الآن مـوضوعـة فى خـدمتنا ويمكننـا الإفادة منهـا فى تعليم أنفـسنا والارتقاء بها إلى حـيث الكمال . لم يعد علم النفس التحليلى مـحصوراً بين جدران عيادة الطبيب ؛ لقد تقطّعت أغلاله . وبات من حقنا أن نقول إنه قـد تجاوز نفـسـه ؛ وها هو ذا يمضى قُدُمًا لكى يملأ الفـراغ الذى ظل حتى الآن يسِم الثقافـة الغربية بالقصور فى ميدان النفس مـقارنة مع ثقافة الشرق . لقد تعلمنا نحن الغربيين أن نروض أنفسنا ونخضعها لسيطرتنا، لكننا لم نتعلم شيئًا عن تطورها المنهجى ولا عن وظائفها . فحضارتنا لم تزل شابّة ؛ ولذلك نحن بـحاجة إلى جـميع الوسائل اللازمـة لترويض الحيوان لكى نجعل من ذلك الوحـش الجرىء الذى فى داخلنا حيوانًا طيّعًا بمقياس ما . ولكن ، عندما نصل إلى مـستوى ثقافى أعلى ، يجب علينا أن نتخلّى عن الإكـراه ونلتفت إلى تطوير أنفـسنا . من أجل ذلك تلزمنا المعرفـة بطريق أو منهج ، لكننا لا نعـرف حتى الآن ولا واحـدًا منها . ويبدو أن مـا كشف عنه واختبـره علم النفس التحليلى يصلح أن نعتـمده أساسًا على الأقل ؛ لأنه فى الوقـت الذى يتطلب فيه العـلاج النفسى أن يقوم الطبيب بترقية نفسـه والارتفاع بها إلى مستوى من الكمال - فى هذا الوقت بالذات يكون قد تحرر من أصوله السـريرية ولم يعد مجرد أسلوب

أو منهج فى علاج المرضى . إذ يغدو هذا موضوعًا فى خدمة الأصحاء أيضًا ، أو على الأقل فى خدمة الذين يحق لهم أن يكونوا أصحّاء ، وأمراضهم فى معظمها المعاناة التى تعذبنا جميعًا . لهذا السبب يحق لنا أن نأمل فى رؤية علم النفس التحليلى أعمّ فائدة حتى من المناهج التى تشكل منه مراحله الأولية التى تحمل كل منها حقيقة عامة . لكن ما بين تحقيق هذا الأمل والحاضر الراهن فجوة عميقة لا يقوم عليها جسر . يبقى علينا أن نشيده حجراً حجراً .

الفصل الثالث

أهداف العلاج النفسى

بات من المتفق عليه اليوم بعامة أن العُصاب اضطراب وظيفى فى النفس يقتضى لشفائه اتّباع مناهج نفسية فى المعالجة . لكن . عندما نصل إلى مسألة تشكل العصاب ، وإلى المبادىء الأساسية فى المعالجة ، ينتهى كل اتفاق توصّلنا إليه ، ويبدأ عندئذ الاختلاف فى وجهات النظر . ولابد لنا من الاعتراف أننا إلى الآن لا نملك مفهومًا نرضى عنه كل الرضا لا عن طبيعة العصاب ، ولا عن مبادىء العلاج . وصحيح أن هناك اتجاهين أو مدرستين حظيتا باهتمام خاص ، غير أن تعاليمهما لا تستغرق جميع الآراء المختلفة التى صرنا نعبّر عنها اليوم . كذلك يوجد من غير هاتين المدرستين من كوّن لنفسه وجهة نظر خاصة وسط هذا التنازع العام فى الآراء . ولذلك لو رحنا نرسم صورة شاملة للوضع الراهن ، لتعيّن علينا أن نتدرج فى ألوانها تدرّج قوس قزح فى ألوانه اللطيفة الدقيقة

ولو كـان فى مقـدورى رسم مثل هذه الصـورة لكان هذا من دواعى سـرورى وابتهـاجى ، ذلك أننى كنت دائمًا أشـعر بحـاجة إلى إجـراء المقارنة بين العديد من وجهات النظر . لكننى - فى السياق الطويل - لم أخفق أبدًا فى إعطاء هذه الآراء المتبـاينة ما هى جديرة به . لأن هذه الآراء ما كانت لتنهض - بل ما كانت لتلقى من يتبـعها وهو أقل أمانًا بكثير - لو لم تكن متفقة مع استعـداد من نوع معين ، وشخصية من نوع معين ، وخبرة نفسية أساسـية من نوع معين ، عمّ وانتشر بهذه الدرجة أو تلك ، ولو كان علينا أن نسـتبعـد هذه الآراء لمجرد أنها خـاطئة ولا قيمـة لها ، لكان علينا أن ننبـذ هذا الاستـعداد الخـاص ؛ أو هذه الخبـرة الخاصـة ، ونعتبرها تفسيرًا خـاطئًا - أى ، لكان علينا الإضرار بمادّتنا التجريبية التى بين أيدينا . إن القبول الواسع الذى لقيه تفسير «فرويد» للعصاب بصيغة السببية الجنسية ، ونظرته القائلة بأن الحوادث النفسية ترتد فى الأساس إلى لذة طفولية وتلبـية لهذه اللذة ، يجب على العالم النفـسى أن يتعلم منها الشىء الكثيـر . فهى تُظهره على أن هذه الطريقـة من التفكير والشـعور تتوافق مع ميل أو تيار روحى واسع الانتشـار نسبيًا ظهر بمعزل عن نظرية «فرويد» فى أمكنة وأزمنة أخرى ، وفى عـقول كثيرة وأشكال مـختلفة . ينبـغى أن أسمّى هذا الميل تجليًا أو ظـهورًا للنفس الجـامعـة collective psyche علىّ أن أشـيـر أولاً إلى أعمـال «هافلوك أليس» و «أوغست فوريل» وإلى من ساهمـوا فى تحرير الـ Anthropophyteia ؛ وكذلك

إلى الموقف من الجنس فى بلاد الأنكو- سكسون فى الحقبة ما بعد الفكتورية ، وإلى المناقشات التى دارت مع الواقعيين الفرنسيين . وما «فرويد» إلا واحد ممن يمثلون سابق استعداد نفسى ظهر فى هذا العصر ، له تاريخ خاص به ، ولأسباب واضحة لا يسعنا أن نخوض فى هذا التاريخ من هذا المقام .

والقبول الذى لقيه «أدلر» على كلا ساحلى المحيط - ولم يكن أقل مما لقيه «فرويد» يسمح لنا بأن نخلص إلى نفس الاستنتاج ، لا نكران فى أن عدداً كبيراً من الناس يرتاح حين يفسر اضطراباته بصيغة «حض السيطرة» الناشيء عن شعور بالنقص . ولا أحد ينازع فى أن هذه النظرة تفسر حوادث نفسية فعلية لم يعطها حقها نظام «فرويد» ولا حاجة بى إلى أن أذكر بالتفصيل قوى النفس الجامعة والعوامل الاجتماعية التى تستتر وراء نظرة «أدلر» وتستوجب هذه الصياغة النظرية تحديداً . فهذه المسائل واضحة تماماً .

ولعله خطأ لا يُغتفر أن نغض الطرف عن عنصر الحق فى كلتا وجهتى النظر «الأدلرية» و «الفرويدية» ، لكن ما لا يغتفر أكثر أن نأخذ بإحداهما أو الأخرى على أنها الحقيقة الوحيدة . كلتا الحقيقتين تتفقان مع وقائع نفسية .

ثمة حـالات فعلية يكون خيـر وصف لها أو تفسـير اعتمـاد إحدى هاتين النظريتين أو الأخـرى . لا أستطـيع اتهام أىّ من هذين الباحـثين بالخطأ ، وإنما أحاول تطبـيق كلتا الفـرضيتين على قـدر المستطاع ، لأنى أسلم تسليـمًا تامًا بجـدواهما النسـبيـة . ولولا أننى عـثرت على وقـائع اضطرتنى إلى تعـديل نظرية «فرويد» ، مـا كنت لأحيـد عن طريقـه ؛ ونفس الشيء ينطبق على علاقتى بوجهة نظر «أدلر» . كذلك يخيل إلىّ أن ليس ضروريًا إضافة اعتبارى ما فى نظرتى الخاصة من حقيقة نسبية بما أعتبر نفسى ممثلاً لسابق استعداد معين .

وليس كعلـم النفس التطبيقـى ميدان يتـوجب علينا فيـه أن نتواضع ونمنح القيمة لعدد كبير من الآراء المتـعارضة ظاهريًا ؛ فمازلنا بعيدين عن امتلاك شيء كـالمعرفة النافذة والشـاملة بالنفس الإنسانية - الميـدان الأكثر امـتناعًا على البحث العلـمى . ففى الوقت الحـاضر لا نملك سـوى آراء متفاوتة فى درجة الوضوح لـيس من السهل الجمع بينها . لذلك ، عندما أتولىّ عـرض ما لدىّ من وجـهات نظر عـرضًا عامًا ، أرجـو ألا يسىء فهمى أحد لأنى لست بصدد الدعوة إلى حقيقة جديدة وأقل من ذلك أنى أبشر بإنجـيل نهائى . إنما أستطيع الكلام على مـحاولات قمت بها بغـية إلقاء الضوء على وقائع نفسية كانـت غامضة علىّ ، أو على جهود بذلتها بغية التغلب على مصاعب تتصل بالمعالجة .

ويطيب لي أن أبدأ بهذه المسألة الأخيرة ؛ ففيها نشعر بأمسّ الحاجة إلى إجراء تعديلات . لقد بات من الأمور المعروفة أن بوسع المرء أن يتفق مع نظرية علاجية غير مكافئة . في ممارستي للعلاج النفسي - وقد استغرقت ما يقرب من ثلاثين عامًا - صادفت عددًا لا بأس به من حالات أخفقت في شفائها ، وكانت أوقع أثرًا في نفسي من الحالات التي أفلحت فيها . يكاد يستطيع كل شخص أن يحقق نجاحًا في ميدان العلاج النفسي ، بدءًا من الساحر البدائي إلى قارىء التعاويذ ، لكن الطبيب النفسي لا يتعلم إلا القليل ، أو لا يتعلم شيئًا ، من الحالات التي حقق فيها نجاحًا . لأن معظم هذه الحالات تثبته على أخطائه ؛ على حين تعتبر الحالات التي أخفق فيها اختبارات لا تقدر بثمن من حيث إنها لا تفتح أمامه طريقًا إلى حقيقة أعمق وحسب ، وإنما تضطره إلى تغيير وجهات نظره وطرائقه .

وإني لأعترف بسبق «فرويد» ثم «أدلر» لي فيما قمت به من عمل ، وأعتمد منطلقاتهما في العلاج التطبيقي الذي أعالج به مرضاي ، كلما كان ذلك ممكنًا . غير أنني صادفت حالات انتهت إلى الإخفاق ، وكان ممكنًا تفاديه لو أنني أخذت بعين الاعتبار المعطيات التجريبية التي اضطرتني فيما بعد إلى إدخال تعديلات على نظرياتهما . يستحيل عليّ وصف جميع الحالات التي واجهتني ، لذلك سأقتصر هنا على ذكر بضع حالات نموذجية . كانت أكبر المصاعب التي لقيتها ما كان من جانب

المرضى المتـقدمين فى السـنّ ؛ أى من الذين تجاوزوا الأربعين . أمـا فى معالجتى للشباب فكنت أجد وجهات النظر المعروفة عن «فرويد» و «أدلر» قابلة للتطبيق تمامًا ، إذ كانت تتيح عـلاجًا للمريض يصل به إلى مستوى معين من التكيف والسـويّة ، بدون أن يترك ظاهريًا ذيولاً أو مضـاعفات مزعـجة . لكـن لم يكن الحال كـذلك مع المتقـدمين فى السن فى أغلب الأحيان ؛ هذا بحـسب خبرتى . ولقد بدا لى أن عناصـر النفس تتعرض مع الأيام إلى تغـيير بالغ الأثر حـتى لنستطيع أن نميـز بين سيكولوجـية «صبح» الحيـاة وسيكولوجية «عصـرها» . الأصل أن تتميز حـياة الشاب بتفتح عام وسعى دائب نحو غايات محسوسة ، فإذا ألمّ به عصاب أمكننا إرجاعه إلى تردده أو إنكفائه عن هذه الضرورة . لكن حياة من تقدمت به السن تتميز بضمور القوى أو تقلصها وتثبيت ما قد تم إنجازه والتوقف عن تحقيق مـزيد من نمو . وإنما يأتى عصابه من تعلّقه بموقف شـبابى أضحى الآن فى غيـر أوانه . وكما يخاف الشـاب المعصوب من الحيـاة ، كذلك ينكفىء الشـيخ عن الموت . وما كـان هدفًا سويًا عند الـشاب ، فـهو لا محـالة عقبة عـصابية لدى الطاعن في السن . في حـالة الشاب لابد وأن يصبح ما قـد كان فى وقت ما اعتمـادًا سويًا على الأبوين - أن يصبح زنا (بالقرابة القريبة) incest من خلال تردده فى مواجهة العالم ، وهى علاقة منافية للحياة . ويجب أن نتذكر، بالرغم من كل المشابهات ، أن المقاومة والكبت والتحويل و «الخيالات الهـاوية» إلى غير ذلك ليس لها إلا معنى واحد عندمـا نجدها لدى الشبـاب ، بينما لهـا معنى آخر عند الشـيوخ .

لذلك كان لابد لنا من إدخال تعـديل على أهداف العلاج لكى نواجه هذه الحقيقة . ولذلك يبدو لنا عمر المريض «شاخصة»[1] على درجة كبيرة من الأهمية .

لكن هناك أيضًا شواخص مختلفة نلاحظها فى فترة الشباب نفسها . ولذلك أرى أن الطبـيـب يقع فى منزلق «تقـانى» إذا عـالج مـن منطلق «فرويدى» مريضًا لا ينطبق عليـه غير سيكولوجـية «أدلر» ، أى شخـصًا فاشلاً تسيطر عليه حاجة طفولية إلى توكيد ذاته . وعلى العكس ، يكون من فادح الخطأ أن نقحم نظرة «أدلر» على إنسان ناجح نسـتطيع أن نفهم دوافعه بصـيغة مبـدأ اللذة . وفى الحالات المشتبـه بها ربما تفيدنا مـقاومة المريض باعـتمادها «شـواخص» قيّمـة . وإنى لأميل منذ البـداية أن آخذ بالمقاومة العنيفة مأخذًا جادًا ، مهما بدا فى ذلك من غرابة لأنى مقتنع أن الطبيب ليس بالضـرورة فى وضع يمكّنه من معرفـة ما هو مطلوب معـرفة أفضل من البنية النفـسية الخاصة بالمريض ، التى ربما تكون خـافية (= لا شـعورية) حـتى بالنسـبة إلى المريض نفـسـه . هذا التواضع من جـانب الطبيب مناسب لوضـعنا اليوم مناسبةً تامـةً ؛ لا لأننا لا نملك حتى الآن سيكولوجـية صالحـة للتطبيق تطبيـقًا عامًا وشمـوليًا وحسب ، وإنما لأن

(١) «الشاخـصة» هى الاصطلاح الحديث الذى تعتـمده شرطة المرور (فى سوريـا) علامة على الطريق يسترشد بـها سائق السيارة . وقد رأيناها ملائمـة لترجمة indicilum اللاتينية المثبتة فى النص الإنجليزى - المترجم - .

التركيب النفسى متفاوت تفاوتًا لا حدود له ، ولأن ثمة نفوسًا مفردةً تأبى أن تندرج فى أى تصنيف عام .

فيما يتعلق بالبنية النفسية أو التكوين النفسى ، بات معلومًا أنى أطرح أمرًا مسلمًا موقفين أساسيين مختلفين تبعًا للفروقات النفسية التى تلمّسها كثير ممن درسوا الطبيعة البشرية ، وهما : الموقف الانبساطى ، والموقف الانطوائى . هذين الموقفين أيضًا آخذهما «شاخصتين» هامتين ، شأنهما فى هذا كشأن سيادة وظيفة نفسية معنية على الوظائف النفسية الأخرى . إن التغيرات التى تطرأ على حياة الإنسان تستوجب من الطبيب أن يجرى تعديلات متواصلة على نظريته التى غالبًا ما يطبقها خافياً «= لا شعورية» ، على الرغم مما يكون فى هذه التعديلات من تضارب من حيث المبدأ مع عقيدته النظرية . وبما أننا بصدد مسألة التكوين النفسى ، يجب ألا نغفل الإشارة إلى أن فريقًا من الناس يتّسم موقفه بالروحية بصفة أساسية ، وفريقًا آخر يتسم موقفهُ بالمادية بصفة أساسية . يجب ألا نذهب إلى أن مثل هذا الموقف قد تم اكتسابه بسائق المصادفة أو أنه ينبع من نوع من إساءة الفهم . هذان الموقفان يبدوان وكأنهما عاطفتان مركوزتان فى النفس لا يجدى معهما نقد ولا إقناع ؛ حتى لنجد حالات تستمدّ منها المادية الصريحة ظاهريًا مصدرها فى نفس الاستعداد الدينى . أما حالات النموذج المضاد فقد أضحت اليوم معروفة على نحو أفضل ، رغم أنها ليست تكراراً عن الأخرى . وأنا أرى أن هذين الموقفين أيضًا «شاخصتان» يجب ألا نغضّ الطرف عنهما .

وعندما نستخدم كلمة «شاخصة» ، لا نريد بذلك أن نصف هذا العلاج أو ذاك ، على ما هى عليه الحال فى المصطلح الطبى . ولعل هذا ما يجب أن تكون عليه الحال ؛ لكن العلاج النفسى لم يصل بعد إلى هذه الدرجة من اليقين . ولذلك كانت «شواخصنا» ، لسوء الحظ ليست أكثر من تحذيرات من الوقوع فى الأحادية sidedness-one .

النفس الإنسانية من أغمض الأشياء وأبعثها على اللّبس . ولذلك كان علينا أن ننظر فى كل حالة على حدة إن كان الموقف موجوداً من تلقاء ذاته أم تعويضًا عن حالة مضادة . يحب على أن أعترف أنى كثيراً ما أخطأت فى هذه المسألة ؛ حيال كل قضية محسوسة ، أبذل جهداً مضنيًا لكى أتجنب جميع سوابق الفرضيات النظرية المتعلقة بتكوين العصاب وبما يستطيع أن يفعله المريض أو ما يجب علىّ أن أفعله وبقدر ما أستطيع ، أترك للخبرة الصرفة أن تقرر أهداف العلاج . ولعل هذا يبدو أمراً غريبًا ، لأن العادة جرت على أن للطبيب هدفًا يسعى إلى تحقيقه . ولكن الأمر يختلف فى العلاج النفسى حيث يحسن بالطبيب ألا يبالغ فى تحديد أهدافه . إذ لا يستطيع أن يعلم بالمطلوب خيراً من الطبيعة ومن إرادة الحياة لدى المريض . الأصل أن يكون للقرارات العظمى فى الحياة البشرية علاقة بالغرائز والعوامل الخافيّة الغامضة أكثر من علاقتها بالإرادة الواعية والمعقولية المريرة ، بكثير . الحذاء الذى يناسب شخصًا قد يؤلم غيره ؛ وما ثمة من وصفة حياة تناسب جميع الحالات . كل منا

يحمل من الحياة شكلاً خاصًا به ، شكلاً غير معين لا يمكن استبدال شكل آخر به .

طبعًا ، لا تمنعنا كل هذه الاعتبارات من بذل كل ما فى وسعنا لكى نجعل حياة المريض سويةً ومعقولة . فإن أثمر الجهد المبذول أثرًا يبعث على الرضا ، أمكننا عندئذٍ أن نتركه يمضى نحو ذلك الأثر ؛ أما إن اتضح لنا أنه غير كاف ، فعندئذٍ يتعين على الطبيب - لحسن الحظ ولسوئه - أن يسترشد بالمعطيات التى تنبعث من خافية المريض ، والاتجاه الذى يجب على الطبيب أن يتخذه عندئذ أن تصبح مسألة العلاج أقل شأنًا من تنمية الإمكانيات الخلاّقة الكامنة فى المريض نفسه .

إن ما أردت قوله يبدأ عند النقطة التى تتوقف عندها المعالجة وندخل بعدها فى مرحلة النموّ . وتقتصر مساهمتى فى العلاج على الحالات التى تجدى معها المعالجة المبنيّة على العقل . فالمادة السريرية التى بحوزتى ذات طبيعة خاصة : لا جدال فى أن الحالات الجديدة تدخل فى زمرة الأقلية . لقد سبق لمعظم المرضى الذين عالجتهم أن مرّوا بنوع من العلاج النفسى نجمت عنه اثار جزئية أو سلبية . حوالى ثلث الحالات التى تصديت لمعالجتها كانت تعانى من عصاب غير قابل التحديد سريريًا ، كانت معاناتها من عبث الحياة وقلة جدواها . وكان ثلثا مرضاى ممن تجاوزوا جميعًا منتصف العمر .

من الصعب معالجة مرضى من هذا النوع المخصوص اعتمادًا على

الطرق المبنيّة على العـقل ؛ لأن معـظمهم كـانوا ممن تكيفـوا اجتـماعـيًا ويتمتعون بقدرات جيدة ؛ ولذلك ما كانت لتعنى لهم الحياة السويّة شيئًا.
أما من يُسمّون بالأسوياء فأنا في نظرهم في وضع بالغ السوء ، لأن ليس عندى فلسفة حياة جـاهزة أناولهم إياها . في أكثر الحالات التي عُرضت على كانت موارد الحياة نافدة عند أصحابها ، وكان التعبير المعتاد عن هذا الوضع هو «الاستعصاء» I am stuck ! هذه الحقيقة هي التي حملتني على البحث عن الإمكانيات الخـبيئة ، لأني ما كنت أعلم مـاذا أقول للمريض عندما كان يسألني : «بم تنصحني ؟ ماذا يجب عليّ أن أعمل ؟» ، إذ ما كان المسؤول بأعلم من السـائل . لكن كنت أعلم شـيئًا واحدًا فـقط : عندما كنت لا أجد ، من وجهة نظرتي الواعية ، طريقًا يمكنني المضي فيه قُدُمًا ؛ أي عندما كنت أجـد نفسي في حـالة «استعـصاء» كنت أعلم ان الرجع (= رد الفعل) على حالة الجمـود التي لا تُطاق سوف يأتي من قبل الخافية .

هذا الجمود ، أو هذا السكون ، حادث نفسي تكرر كـثيرًا في مسيرة تطور النوع البـشرى ، حـتى لقد غـدا الموضـوع الرئيسي في كـثيـر من الأساطير وقصص الحور fairy tales فقد رُويت لنا حكايات عن «افتح يا سمسم !» وعن الحيوان الـذى يمدّ لنا العون لكي يدلنا على سرداب سرى نخـرج منه . ولعل من حـقنـا أن نصـوغ الموضـوع على هذا النحـو : «الاستعصاء» حادث نموذجي يستـثير فينا ، على مر الزمن ، رجوعات (=

رد فعل) نموذجية وأعـواضًا . ولذلك يحق لنا أن نتوقع ، على درجة من اليقين ، احتمال ظهور شيء مماثل في رجوعيات الخافية ، مثلما هو الحال في الأحلام مثلاً .

لذلك كان انـتباهي ، في مـثل هذه الحالات ، يتـجه نحـو الأحلام خاصة أكثر من كل شيء آخر ، لا لأني مقيد بمفهوم عن الأحلام يوجب على استدعـاءها للنجدة ، أو لأن عندي نظرية خفيـة في الأحلام تعلمني كيف يتشكل كل شيء ، بل كنت استدعـيها لأني في حيرة من أمري . فأنا لا أعلم مكانًا آخر أقصده لأستمد منه العون ، ولذلك أحاول جهدي أن أجده في الأحلام ، فـهي - على الأقل - تمدّنا بصورة تدل على شيء أو آخر ؛ وهذا أفضل مـن لا شيء على كل حال . ليس لديّ نظرية في الأحلام ، ولا أعلم كيف تنشأ ، وأنا في شك إن كانت تستحق طريقتي في تناول الأحلام أن يطلق عليها اسم «منهج» .

وأنا هنا أشارك قرّائي في سوابق حكمـهم على تفسير الأحلام بما هو أصل في الغموض وأصل في التحكم . لـكني أعلم ، من ناحية ثانية ، أننا لو تدبرنا الحلم زمنًا كـافيًا ، وتأملنا فيـه تأملاً شافـيًا ، وقلبناه على جميع وجوهه ، لكان يجيئنا دائمًا منه شيء . طبعًا ، هذا «الشيء» ليس من النوع الذي يحق لنا أن نتبجّح بطبيعته العلمية ، أو أن نصوغه صياغة عقلية ، بل هو دلالة عملية وهامة لأنهـا تظهرنا على الوجهة التي تتخذها خافية المريض وتسير به إليها . ولعلني لا أعطي مثل هذه الأهمية - وهي

أهميــة من الدرجة الأولى – إلى مسألة درس الأحــلام ، لو كانت تعطينا نتيجة متحققة علميًا ؛ إنى لو فعلت ذلك ، إذن لكنت أسعى وراء هدف شخـصى حصـراً ، هدف يعبـر عن «عشق الذات» بالتـالى . إنما أرضى بالنتيجة التى أحصل عليها من تفسـير الأحلام حينما تعنى للمريض شيئًا وتطلق له عنان الحياة ثانية . ولعلىّ أبيح لنفسى اعتــماد معيار وحيد على صحة تفسيرى للحلم أن يعود بالفائدة على المريض . أما هوايتى العلمية، وشهـوتى إلى معرفــة لماذا عاد الحلم بالفائدة ، فـهذا أحتـفظ به لأوقات الفراغ .

تخـتلف محـتويات الأحــلام الأولى اخـتلافًا لا حــدود له ، وأعنى الأحلام الأولــى ما يرويه المريض منهــا عند بدء المعالجـة . ففــى حالات كثـيرة نجـدها تشيـر إلى الماضى مبــاشرة وتأتى إلى العــقل بما هو منسّى وضائع على الشــخصية . وإنما تأتى الأحــادية من هذه المفقودات فتـسبب الجـمود ومــا ينشــأ عنه من ضلال . فى الاصطلاح الــسيكولوجى ، قــد تفضى الأحــادية إلى فقدان مفاجــئ للطاقة النفسيــة (= ليبيدو) ، فــتغدو جمـيع فاعلياتنا الســابقة لا أهميــة لها ولا معنى ، وتفــقد الأهداف التى نسعى إليــها كل قيمــتها . فمــا هو عند بعضهم لا يعدو مـزاجًا عابرًا ، يصبح عند بعضــهم الآخر حالة مزمنة . وفى هذه الحالات كثـيرًا ما تقبع إمكانيات أخــرى لنمو الشخـصية فى مكان أو آخـر من الماضى لا يعرف أحد عنهــا شيئًا حـتى ولا المريض نفسه . لكن ربما كـشف الحلم لنا عن

مفتاح الحل . وفى حالة أخرى قد يدلنا على وقائع راهنة ، كالزواج والمركز الاجتماعى مثلاً ، ما كان المريض ليسلّم بأنها الأصل فى مشاكله ومنازعاته .

وتقع هذه الإمكانيات فى متناول التفسير العقلى ، لأن تفسير الأحلام الأولية ليس بالأمر الصعب . إنما تبدأ الصعوبة الحقيقية عندما لا تدلنا الأحلام على شيء محسوس ، كما هى عليه الحال غالبًا - خصوصًا عندما تبدى الأحلام نوعًا من استشراف المستقبل . لا أريد القول إن مثل هذه الأحلام تنطوى على نبوءات اضطراراً ، وإنما هى من قبل الاستباق أو «الاستطلاع» . فهى تنطوى على تلميحات عن الإمكانيات ، ولذلك يتعذر توضيحها لشخص غريب عنها . وفى أحيان كثيرة لا تكون واضحة حتى بالنسبة إلىّ ، عندئذٍ أقول للمريض : «لا أصدق ، تابع مفتاح الحل» . وكما قلت ، إن الأثر هو المعيار الوحيد ، وليس من الضرورى أن نفهم لماذا يحدث مثل هذه الأثر . وهذا يصدق بخاصة على الأحلام التى تنطوى على صور ميثولوجية فتكون غريبة ومربكة أحيانًا إلى حد لا يصدق . إذ تنطوى على شيء أشبه ما يكون بـ «ميتافيزيقا الخافية»، وهى تعبيرات عن فاعلية نفسية غير متمايزة قد تنطوى فى كثير من الأحيان على فكرة الخافية[1] .

(١) رؤيا الكهف عند أفلاطون استباق لمشكلة المعرفة التى شغلت الفلاسفة قرونًا بعدها والأحلام والتخيلات تبين أحيانًا عن رؤيا فلسفية داخلية يمكن مقارنتها بهذه الرؤية - المترجم الإنجليزى - .

في حلم أولي لأحد مرضاي «الأسوياء» يلعب مرض ابنة أخته دوراً كبيراً . كانت ابنة الأخت في الثانية من عمرها . وفي وقت مضى ، كانت هذه الأخت فقدت صبيًا بمرض أصابه . ومن ناحية ثانية ، لم يكن أحد من أبنائها مريضًا . في بادىء الأمر كانت صورة الطفلة المريضة في الحلم باعثًا على حيرته الشديدة ، ولا شك لأنها لم تكن متناسبة مع الوقائع . ولما كان ليس بين صاحب الحلم وأخته صلة مباشرة وثيقة ، لم يستطع أن يجد في هذه الصورة ما يعنيه شخصيًا . ثم خطر له فجأة أنه قبل سنتين عكف على دراسة «العلوم الخفية» occultism وأن هذه العلوم هي التي قادته إلى علم النفس . وكان من الواضح أن ابنة الأخت كانت موضع اهتمامه من بين أشياء النفس - وهي فكرة ما كانت لتخطر لي على بال . بمحض إرادتي . هذه الصورة الحلمية إذا رأيناها من الجانب النظري فقد تعني لنا كل شيء كما يمكن ألا تعني لنا شيئًا على الإطلاق . ولذلك نتساءل إن كانت واقعة ما تعني لنا شيئًا بحد ذاتها أو من تلقاء ذاتها . الشيء الذي نحن واثقون منه تمامًا أن الإنسان وحده هو الذي يفسّر الوقائع أو يهبها المعنى . لقد لفت انتباه صاحب الحلم أن يكون لدراسة «العلوم الخفية» جانب مرضي ، بما هي فكرة جديدة وباعثة على الاهتمام . أصابت هذه الفكرة الغرض ، وكانت هذه هي النقطة الحاسمة : التفسير يعطي ثماره على الرغم من طريقتنا في تفسير الكيفية التي يعطي بها هذه الثمار . فقد كانت هذه الفكرة تنطوي على نقد

بالنسبة لصاحب الحلم ، وقد حدث بها قدر من تغيير الموقف . إذ بواسطة هذه التغييرات الطفيفة التى لا يسع المرء أن يفكر بها تفكيراً عقليًا، تبدأ الأشياء بالحركة ونبدأ بالتغلب على النقطة الميتة .

تعقيبًا على هذا المثال ، لعلنى أستطيع القول فى هيئة خطاب إن الحلم كان يريد أن يقول إن درس «العلوم الخفية» ، الذى شغل صاحب الحلم فى وقت ما ، به جانب مَرَضى . وبهذا المعنى ، يحق لنا أيضًا أن نتكلم عن «ميتافيزيقا» الخافية إذا قُدِّر لصاحب الحلم أن يصل بواسطة حلمه إلى هذه الفكرة عينها . لكننى ما أزال أذهب إلى أبعد من ذلك ؛ فأنا لا أهيىء للمريض فرصة لكى يرى ما يحدث له فيما يتصل بحلمه وحسب ، وإنما أبيح لنفسى أن أفعل الشىء نفسه أيضًا ؛ أبيِّن له الجدوى من تخميناتى وآرائى . وأنا ، بعملى هذا ، لو فتحت الباب أمام ما يسمى بـ «الإيحاء» ، لم أر فى هذا ما يستوجب الأسف ؛ لأننا – كما هو معلوم – لا نتقبل من الإيحاء إلا ما نوافق عليه سراً . لا ضير أن نضل، حينًا بعد آخر ، فى قراءة هذا اللغز ؛ لأن النفس لابد لها أن تنبذ هذا الضلال عاجلاً أم آجلاً ، تمامًا مثلما ينبذ جهاز عضوى جسمًا غريبًا . لست مضطراً إلى إثبات صحة تفسيرى للأحلام – وهذه مهمة حرىّ أن تكون ميؤوسًا منها – ، بل يجب على أن أعين المريض على إيجاد ما يجعله يفعل ؛ وهنا أكاد أكشف عن خيبة نفسى بالقول : أن أعينه على إيجاد ما هو «فعلى» .

أولى أهمية خاصة أن أعرف أكثر ما أستطيع عن السيكولوجيا البدائية وعلم الأساطير وعلم الآثار وعلم مقارنة الأديان ، بما تمدّنى به هذه العلوم من مشابهات بالغة القيمة أتمكن بواسطتها من إغناء ما يصدر عن مرضاى من تداعيات . فإذا علمنا بهذه الأشياء مجتمعة ، أمكننا عندئذٍ أن نجد المعنى التام الذى يبدو وكأن لا صلة له بالموضوع ، وزدنا من مفعولية الحلم زيادة كبيرة . وبذلك يصبح الدخول إلى ميدان الخبرة المباشرة خير حافز لمن بذلوا كل ما فى وسعهم فى الميادين الشخصية والعقلية من الحياة، وظلوا - رغم ذلك - لا يجدون فيها معنى ولا باعثًا على رضا . وبذلك أيضًا يرتدى الواقعى والشائع زيًا جديدًا ، ولعله يكتسب فتنة جديدة . لأن الأمر كله يتوقف على كيفيّة نظرتنا إلى الأشياء ، لا على كيفية ما هى عليه بحد ذاتها . فى الحياة ، الأشياء الأقل ولها معنى تساوى أكثر من الأشياء الأكبر وليس لها معنى .

لا أظن أنى أنتقص من شأن الخطر الذى تنطوى عليه هذه المهمة ، فهى أشبه بمن راح يبنى جسرًا فى فراغ . وفى الحق ، لعل امرءًا يزعم - وقد حدث هذا كثيرًا - أننا إذ نتّبع هذا الإجراء فإنما نغرق الطبيب والمريض كليهما فى عالم الأوهام والتخيلات . أنا لا أعدّ هذا اعتراضًا ، بل هو عين الصواب . فأنا أبذل كل ما فى وسعى لكى أحمل المريض على أن يطلق لخيالاته العنان . إن شئتم الحق ، فإن لى رأيًا عاليًا جدًا فى التخيلات والأوهام ، وهى عندى الجانب الأنثوى الخلاق من الروح

المذكر ، إننا ، عندما نقول كل شيء ، ونفعل كل شيء ، لا نكون أبدًا في حصن منيع يصدّعنا الخـيال . صحيح ، ثمة خيالات لا قـيمة لها ، خيالات غير مكافئة وغير صحية ، يستطيع كل ذى حس سليم أن يكشف عن طبيعـتها العمـيقة فورًا ؛ لكن هذا ، طبعًا ، ليس دلـيلاً يُساق لنفى قيمة الخيال الإبداعية . كل أعمال الإنسـان فإنما تستمد أصولها من خياله المبدع . إذن ، هل من صـواب الرأى أن ننتقص من قـيمة الخـيال ؟ إذا جرت الأشـياء فى مجراها المعـتاد ،فليس من السهل أن يضل الخـيال أو يخطىء ؛ لأنه أعمق من أن يـفعل ذلك ، وأوثق صلةً بجذور الإنسـانية والحيوانية . والفاعلية الخلاّقة التـى يؤديها الخيال تحرر الإنسان من قيد «لا شيء إلاّ» ، وتطلق فيـه روح العمل . يقول شيلر : «الإنســان لا يكون إنسانًا إلا عندما يعمل»(١) .

إن الهدف الذى أسعى إلـيه أن أصل بالمريض إلى حالة نفسـية يبدأ فيها باختيار طبيعته الخاصة ؛ وهى حالة سيولة من تغيّر ونموّ ، ليس فيها شيء ثابت أبدًا ، ولا متحجر ولا رجاء فيه . ولكى أعرض تقانيّتى هنا، لابد لى من بيان مبـادئها العامة : عندما أتـناول حلمًا أو تخيلاً ، أذهب فيه إلى أبعد من المعنى الذى يؤثر فى المريض ، وأبذل كل ما فى وسعى لكى أجعله يفـهم المعنى بقدر هذا الإمكان ، حتى يصـبح هو أيضًا قادرًا

---

(١) جاءت كلـمة play هنا لكى تعـبر عن «العمل» ؛ ولـعل المقصود توافق الـعمل مع الهواية (= اللعب) ، أى عندما يكون العمل «لعبًا» ، وبالتالى «إبداعًا» – المترجم – .

على تعرّف علاقاته فوق - الشخصية . إن هذا الأمر هام ، لأن الإنسان إذا حدث له ما يتصف بالعمومية وظّنه خبرةً تخصه وحده ، فعندئذٍ يخطيء في موقفه خطأً فادحًا ، فيسرف في الشخصية إسرافًا يجنح به إلى البعد عن المجتمع الإنساني . نحن لسنا بحاجة إلى واعية شخصية عصرية وحسب ، وإنما إلى واعية شخصية يتوفر فيها حس باستمراريّة التاريخ . ومهما بدا هذا المطلب بعيد المنال ، فإن الخبرة تُظهرنا على كثير من حالات العصاب أصابت أصحابها لأن أعينهم كانت في عميً عن حوافزهم الدينية ، عميً سببه هوى صبياني بالتنوّر العقلي . يجب أن يعلم عالم النفس اليوم أننا لم نعد نتعامل مع المسائل المتعلقة بالدجماطيقا والعقائد . فالموقف الديني عنصر من الحياة النفسية لا يصح التقليل من أهميته ، وحس الاستمرارية التاريخية أمر لا غنى عنه للنظرة الدينية .

عودًا إلى موضوع التِقانيّة التي اتبعتها ، فإني أسائل نفسي إلى أي مدى أنا مدين لـ «فرويد» . مهما يكن من أمر ، فقد تعلمت هذه التِقانيّة من منهج «فرويد» في التداعي الحر ، وإني لأعتبر تِقانيّتي إضافة جديدة على منهجه .

ما دمت أعين المريض على اكتشاف ما في أحلامه من عناصر مؤثرة، وما دمت أحاول إظهاره على ما في رموزه من معنى عام ، يظل المريض -مع ذلك- في حالة طفولية . ويظل يعتمد على أحلامه ، ودائمًا يسائل نفسه إن كان الحلم الجديد خليقًا بأن يمدّه بنور جديد ثم يظل يعتمد على

ما أكوّنه من فِكَر عن أحلامه ، وعلى قدرتى على زيادة تبصيره من خلال معرفتى . وبذلك يظل فى حالة سلبية غير مرغوب فيها ؛ كل شىء فيها لا يبعث على اليقين ، ويقبل الأخذ والرد ؛ فلا أنا ، ولا هو ، نعرف إلى أين ينتهى بنا المطاف . وفى الغالب ، لا يعدو الوضع أن يكون أشبه بمن يتلمس طريقه فى ظلام دامس . وفى هذه الحالة ، ليس لنا أن نأمل بالحصول على نتائج ظاهرة جدًا ، لأن الشك أكبر والغموض أشد من أن يؤمّلانا بشىء . ثم إننا نخاطر بالوقوع في محذور أن ينحلّ فى الليل ما نحيك خيوطه فى النهار . والخطر ألاّ يحدث شىء ، وألا يحافظ على شكله شىء . فى هذه الظروف ، ليس قليلاً أن يحدث أن يرى المريض أحلامًا ملوّنة أو غريبة فيقول : «هل تعلم . . . لو كنت رسامًا لصنعت منها لوحات . . .» ، أو يحدث أن تتناول أحلامه صوراً فوتوغرافية أو زيتية أو رسومات بالأسود والأبيض أو كتابات يدوية مزيّنة بصور أو أفلامًا فى بعض الأحيان .

نقلت هذه اللوامح إلى الميدان التطبيقى ، ورحت أشجع مرضاى فى مثل هذه الأحوال على رسم ما قد رأوه فى حلم أو تخيل . وكان الأصل أن ألاقى منهم اعتراضًا بالقول : «أنا لست رسامًا . .» ، فكنت أجيبهم إن الرسامين الحديثين ليسوا كذلك أيضًا ، لسبب بسيط هو أن الرسم الحديث لا يتقيد بقاعدة على الإطلاق ، وأن المسألة – على كل حال – ليست مسألة رسم لوحة جميلة ، بل هى أن يكلف نفسه عناء الرسم .

أما مقدار ما كان لطريقتى فى الرسم من علاقة بـ «الفن» فقد رأيته مؤخراً فى حالة رسامة صور آدمية موهوبة ؛ لقد كان عليها أن تعد الرسمة مرة ومرة ومرة ، وأن تبذل جهوداً طفولية يرثى لها - حرفيًا كما لو كانت ما أمسكت قط فرشاة بيدها . أن نرسم ما نراه أمامنا مسألة تختلف عن رسم ما نراه فى داخلنا .

وعندئذٍ بدأ كثير من مرضاى ممن قطعوا شوطًا بعيدًا على طريق الصحة - بدؤوا يرسمون . أستطيع أن أفهم جيدًا أن يُعدّ هذا نوعًا من الهواية البالغة العقم . غير أنى يجب علىّ أن أذكّر فى هذا المقام أننا لا نتكلم عن أناس لم يزل عليهم أن يبرهنوا على جدواهم الاجتماعية ، بل عمّن عثروا على معنى لحياتهم الفردية ، وهى المسألة الأعمق والأخطر . أن تكون ذرة فى كتلة أمر لا معنى له ولا جاذبية إلا عند من لم يصل بعد إلى هذه المرحلة ؛ أما من اختبر ذلك حتى الإشباع فلا معنى له عنده. قد ينكر أهمية الحياة الفردية «معلم» يعتز بتخريج أناس كالأرقام وسط الجماعة . لكن كل إنسان آخر سوف ينساق ، عاجلاً أو آجلاً ، إلى أن يجد هذا المعنى لنفسه .

رغم أن مرضاى كانوا ينتجون ، بين حين وآخر ، ابداعات جميلة فنيًا يمكن أن نعرضها عن جدارة فى معارض «الفن الحديث» ، إلا أننى كنت أعاملها على أساس ألاّ قيمة لها طبقًا لمعايير الفن الجاد . بل إنه من الأساسى ألا أمنحها مثل هذه القيمة ، وإلاّ توهّم مرضاى أنهم أصبحوا

فنانين ، لأن من شأن هـذا أن يفسد الآثار الطبـية التى أثمـرت عنها هذه الممارسة . فـالمسألة ليست مسـألة فن ، ولا يجب أن تكون كذلك ، بل هى أكثر من ذلك ، وأكـثر من مجرد فن : إنهـا الأثر الحى الذى يتركه فى نفس المريض . إن مـعنى الحـياة الفـردية ، التى لا أهمـية لهـا من المنطلق الاجـتماعى ، تُعـطى هنا أعلى قيـمة لها ، وفـى سبيلهـا يكافح المريض لكى يمنح ما لا يعبر عنه شكلاً ، مـهما كان مبلغ هذا الشكل من السذاجة والصبيانية .

لكن لماذا أشجع مرضاى فى مرحلة معـينة من النمو على التعبير عن أنفـسهم بواسطة السـفراشـة أو القلم أو الريشـة ؟ إن هدفى هنا هو نفس الهدف الذى أسعى إليـه فى تناولى للأحلام : أريد أن أحدث أثراً . فى الحالة الصبيانية التى وصفتـها فيما تقدم ، يظل المريض سلبيًا ؛ لكنه فى هذه المرحلة يبدأ يلعب دوراً إيجابيًا . فى مبدأ الأمر ، يسجل على الورق ما يخـطر بباله ؛ وبذلك يُضـفى عليه صـفة الفـعل المقصود ؛ لـم يعد يتحـدث عنه وحسب ، وإنما بات «يفعل» شـيئًا يتعلق به . من الناحـية السيكولوجية ، أن يُجرى شخص مع طبيبه حواراً هامًا مرتين فى الأسبوع شىء - وتكون آثار هذا الحوار معلقة فى الفـضاء - ، وأن يكافح ساعات فى وقت واحد بالريشة العصيّة والألوان لكى ينتج فى نهاية الأمر شيئًا لا قيمة له فى الظـاهر شىء آخر . فلو كان تخيله فى حقيـقة الأمر لا معنى عنده ، لكان الجهد الذى يبـذله فى الرسم حقيقًا بأن يبعثـه على الضجر

حتى ليمتنع عن بذله ثانيةً . لكن لما كان تخيله لايبدو له خاليًا من المعنى بالمرّة ، كان انشغال نفسه به يزيد من تأثيره فيه . يضاف إلى ذلك أن الجهد الذى يرمى إلى إعطاء التخيل شكلاً فنيًا يفرض علينا أن ندرسه فى كل أجزائه حتى ليمكننا إجراء الاختبار عليه بهذه الطريقة ، فدرس الرسم يمنح التخيل عنصراً من الواقع ، وبذلك يعيره وزنًا أثقل وقوة دافعة أكبر. ومن الناحية العملية ، إن الصور الساذجة تنتج آثاراً لابد لى من التسليم بأن وفى وصفها شيئًا من صعوبة . عندما يرى بصورة رمزية ، لابد له أن يعود إلى اصطناع هذه الوسيلة كلما ساءت به الحال . بهذه الطريقة نكسب شيئًا لا يُقدّر بثمن : زيادة فى الاعتماد على النفس ، وخطوة نحو النضج النفسى . وبهذه الطريقة أيضًا ، يستطيع المريض أن يستقل بنفسه استقلالاً خلاقًا ، إن كان لى أن أعبر كذلك ؛ فلا يعود يعتمد على أحلامه ولا على علوم طبيبه ، بل يصبح قادراً على منح خبرته الداخلية شكلاً عندما يقوم برسمها . فالتخيلات التى يرسمها تخيلات فاعلة ؛ هى ما يفعل فيه ، وما يفعل فيه هو نفسه ؛ لكن هذه النفس ليست النفس بالمعنى الذى فهمه خطأ فى السابق عندما ظن «النفس» أو «الذات» The self أنيّته الشخصية Personal Ego ؛ هى نفسه بمعنى جديد ، لأن أنيّته أضحت الآن موضوعًا تفعل فيه قوى الحياة من الداخل . إنه يسعى الآن إلى أن يمثل ما يعمل فى داخله بأوسع ما يمكنه من التفصيل فى سلسلة صوره ورسومه ، لا لشىء إلا ليشكف فى نهاية المطاف عما هو مجهول وغريب : الأسس الخبيئة من الحياة النفسية .

ولعلنى لا أستطيع تبيان مدى ما يحـدثه هذا الاكتشاف من تغير فى منطلقات المريض وفى قيـمه ، وكيف ينقل مركز الجذب فى شخـصيته . إن الأمر أشبه بما لو كانت الأنيـة هى الأرض ثم تبين له فجأة أن الشمس (النفس أو الذات The self) هى المركز الذى تدور حوله السـيارات ومنها الأرض . لكن أمـاكنا دائمًا نعـلم أن الوضع فى مـجـمله كـان على هذا النحو؟ أنا نفسى أعتقـد أننا كنا دائمًا نعلم ذلك . لكننى قد أعرف شيئًا بعقلى لا يعرفه الإنسان الآخر الذى فى داخلى ، ولعلنى أقضى شطرًا من عمـرى كما لو كنت لا أعـرفه . كـان أكثر مـرضاى يعرفـون الحقيـقة العميقة، لكنهم لم يعيشوها .

لكن ، لماذا لم يعـيشوها ؟ بسـبب الانحراف الذى يجـعلنا جمـيعًا نضع الأنية فى مـركز حـياتنا ، وإنما يأتى هذا الانحـراف من المغالاة فى تقدير قيمة الواعية .

وإنه لمن الأهمية بمكان أن يتولى من هو فى سن الشباب ، ولم يزل غير مـتكيف اجتمـاعيًا ، ولم يحقق بعد شـيئًا - أن يتولى صوغ أنيـته الواعيـة بأقصى فـاعلية ممكنة ، أى أن يتـولى ترويض إراداته . ولعله لا يؤمن بشىء فاعل فى داخل نفسه لا يتفق مع إرادته - اللهم إلا أن يكون عبقـريًا إيجابيًا . ولابد له أن يشعـر بأنه رجل إرادة ، ولعله ينتقص من قيمة كل شىء فى داخله، أو يحسبه خاضعًا لإرادته ، وهو آمن مطمئن ، لأنه بدون أن يتوهـم ذلك لا يكون فى مقدوره أن يتكيف اجتماعيًا .

لكن الأمر يختلف عند المريض الذى بلغ منتصف العمر ، ولم يعد بحاجة إلى ترويض إرادته الواعية ، وبات عليه لكى يفهم معنى حياته الفردية أن يتعلم كيف يختبر كينونته الداخلية . فلا يعود مبدأ الإفادة من الجماعة هدفًا يسعى إليه ، رغم أنه لا يجعل من كونه أمرًا مرغوبًا فيه موضوعًا قابلاً للبحث . ورغم أنه على معرفة تامة بضآلة شأن فاعليته الخلاقة فى نظر المجتمع ، يظل يعتبرها طريقًا يحقق به نموه الشخصى ، وبذلك يعود بالنفع على نفسه . كذلك تحرره هذه الفاعلية تدريجيًا من الاتكال على غيره ، وبذلك يكتسب ثباتًا داخليًا وثقة جديدة بنفسه . وهذان الإنجازان الأخيران يفيدان المريض بدورهما فى تنمية كينونته الاجتماعية . لأن من كان سليمًا فى داخله واثقًا من نفسه كان أقدر على القيام بالمهام الاجتماعية ممن لهم يصطلح مع خافيته (لا شعوره) .

لقد تعمدت أن أتجنب دعم هذه المقالة بالنظريات ، وبدونها تظل أشياء كثيرة غامضة وغير مفهومة . لكننا إذا أردنا أن نفهم الصور التى ينتجها المرضى ، فلابد لنا من الإتيان على ذكر نقاط نظرية معينة على الأقل . إن لهذه الصور جميعًا سمات مشتركة فيما بينها هى الرمزية البدئية ، وتتوضح هذه السمات فى الرسم كما تتوضح فى التلوين . والألوان ، عادةً ، وحشية وصارخة ، تتمثل فيها على الأغلب صفة ترجع إلى الإنسان القديم ، وتدلنا هذه الخصائص على القوى الخلاقة التى أنتجت هذه الصور . فى تطور الإنسان تيارات رمزية غير عقلانية بلغت

من قدمهـا مبلغًا ييسر علـينا إجراء مقارنات بينهـا وبين مظاهر تماثلها مما نجـده فى حقـلى علم الآثار وعلم مـقارنة الأديـان . ولذلك يحق لنا أن نذهب إلى أن هذه الصور قد نشأت بصفة رئيسية فى ذلك الحيز من الحياة النفسيـة الذى أسميتـه «الخافية العامـة» أو «الخافية الجـامعة» collective unconscious ، وأريد بهذا الاصطلاح مـثول فعاليـة نفسية فى جـميع الكائنات البشرية ليست السبب فى نشـوء صورة رمزية فى الوقت الحاضر وحسب ، وإنما كانت هى المصدر لجميع النواتج التى تماثلها فى الماضى . وإن هذه الصور تنبع من حاجة وتقوم بتلبيتها فى نفس الوقت .

وإن الأمر ليـبدو كما لو كنا نعطى بـواسطة هذه الصور التعبـير عن ذلك الجزء من النفس الذى يرقى إلى الماضى البدائى ونعـقد المصالحة بينه وبين واعـيتنا المعـاصـرة ، وبذلك نخفف من آثـارها المزعجـة على هذه الأخيرة .

يجب أن أضيف أن مجرد تنفيذ هذه الصور ليس هو كل المطلوب ، بل من الضرورى أن يستتبع ذلك فـهم عقلى وعـاطفى لها . يجب أن نجعلها ماثلة فى واعيتنا ، وأن نفهمها ونتمثلها تمثلاً سويًا ، كما يجب أن نخضعـها إلى سياق تفـسيرى ، لكن ، رغم أننى كثيـرًا ما سلكت هذا الطريق مع المـرضى من الأفـراد ، لم أفلح حـتى الآن فـى توضـيح هذا السياق على دائرة أوسع أو فى صـوغه صياغة صالحة لـلنشر . وما قد تم منه حتى الآن لا يعدو شذرات .

والحق إننا هنا نقف على أرض جديدة كل الجـدة ، وإن نضج الخبرة هو أول مطالبنا أفضل تجنب الاستنتاجات التى نتوصل إليها على عجل . فنحن نتـعامل مع إقليم من الحـياة النفـسيـة يقع خارج نطاق الواعـية ، وطريقتنا في ملاحظتـه طريقة غير مباشرة ، ولا نـعرف حتى الآن ما هى الأعماق التى نريد سبرها . ويبدو لى -كـما أشرت إلى ذلك فيما تقدم- أن المسألة نوع مـن السياق المركـزى ، لأن كثيـراً من الصور التى يشـعر المريض أنها صور حاسمة تدلنا على هذه الوجهة . إن هذا السياق ينشىء مركزاً جديداً للتوازن ، ويبدو كأن الأنية تتخذ من حوله مداراً تدور عليه. ولعل هدف هذا السياق يبقى غامضًا فى الدرجة الأولى . وكل ما نستطيع فعله أن نبرز أثره الخطير على الشخـصية الواعية . ويجب أن نستنتج من حصول التـغيير الذى يعـلى من شأن الشعور بالحـياة ويستديم دفـقها أنه ينطوى على غائية خاصـة . ولعلنا أن نسمى هذا وهمًا جديداً ، ولكن ، ما الوهم ؟ بأى معيـار نحكم على شىء أنه وهم ؟ بالنسبة إلى النفس ، هل يوجد شىء يمكن أن نسميه «وهمًا» ؟ إن ما يحلو لنا أن نسميه كذلك ربما يكون - بالنسبة إلى النفس - عاملاً كبيراً من عوامل الحياة ، شيئًا لا غنى لها عنه كما لا غنى للـعضويات عن الأوكسجين ، حقيقـة نفسية فى الدرجة الأولى من الأهمية . ولعل «النفس» لا تكلف نفسها عناء الاهتمام بما لدينا من مقولات عن الحقيقـة ، ولذلك قد يكون من خير الحكمة أن نقول : كل ما «يفعل» فهو «فعلىّ» .

من يسبر أغوار النفس ، يجب ألا تختلط عليه الواعية بالنفس ، وإلا حجب ناظريه عن الموضوع الذى يريد التنقيب عنه ، بل يجب عليه لكى يعرف النفس أن يتعلم كيف تختلف هذه عن الواعية . لأن من المحتمل جداً أن ما نسميه وهماً أن يكون واقعاً بالنسبة إلى النفس ، ولهذا لا يسعنا اعتبار الواقعية النفسية مساوية للواقعية الواعية . لا شىء فى نظر عالم النفس ، أغبى من الموقع الذى يحتلّه مبشر يحكم على آلهة «الكفار المساكين» بأنها آلهة وهمية . لكننا - لسوء الحظ - مازلنا نرتكب الأخطاء الفادحة على نفس النحو الدجماطيقى ، كما لو أن ما نسميه واقعيًا غير حافل بالأوهام أيضًا . فى الحياة النفسية ، كما هو الحال فى كل مجال تطوله خبرتنا ، كل ما «يفعل» فهو فعلى ، بغضّ النظر عن التسميات التى يحلو للإنسان أن يسميها بها . إن ما يهمنا اتصاف هذه الحوادث بالواقعية ، لا محاولة إعطائها اسمًا بدلاً من آخر . ومن وجهة نظر النفس، لا تكون الروح غير روح حتى ولو أسميناها جنسًا .

أعيد أن الاصطلاحات الفنية المختلفة وما يطرأ عليها من تغييرات لا تمسّ جوهر السياق الذى تقدم وصفه أبداً . وهو السياق الذى لا تحيط به مفاهيم الواعية العقلية بأكثر مما تستطيع الإحاطة بالحياة نفسها ولعل مرضاى كانوا يتجهون إلى التعبير الرمزى شعوراً منهم بقوة هذه الحقيقة. لعلهم كانوا يجدون فى رسم هذه الرموز وتفسيرها شيئًا أكثر فاعلية وأكثر تلبية لحاجاتهم مما تتيحه لهم التفسيرات العقلية من فاعلية وتلبية حاجة .

الفصل الرابع
النظرية النفسية في النماذج

الشخصية هي ما يكون عليه الكائن البشرى من شكل فردى ثابت . ولما كان للإنسان شكل جسمانى وطريقة فى السلوك أو العقل ، كان من مقتضيات علم الشخصية أن يعلمنا كلاً من السمات الفيزيائية والسمات النفسية على حد سواء . فعلى وحدة الكائن الحى وما يكتنفها من غموض تترتب نتيجة لازمة مفادها أن السمات الجسمانية ليست مجرد سمات فيزيائية ، والسمات العقلية ليست مجرد سمات نفسية . فاستمرارية الطبيعة لا تعرف شيئًا عن هذه التمييزات المتناقضة التى يضطر العقل البشرى إلى إقامتها لكى يستعين بها على الفهم .

التمييز بين العقل والجسم تمييز مصطنع ، وهو يقوم على خصوصية الفهم العقلى أكثر مما يقوم على طبيعة الأشياء بكثير . والحق أن التمازج بين السمات الجسمانية والسمات النفسية بلغ من العمق حداً لا نستطيع معه أن نستخلص نتائج بالغة الأهمية فيما يتعلق بتكون النفس من تكوين

الجسم وحسب ، وإنما نستطيع أيضًا أن نستخلص الحقائق الجسمانية من الخصائص النفسية المطابقة لها . صحيح أن السياق الأخير أكثر صعوبة من الأول لكن ليس هذا لأن للجسم تأثيراً فى العقل أكبر من تأثير العقل فى الجسم ، وإنما بسبب مختلف تمامًا . فإذا نحن انطلقنا من العقل انتقلنا من المجهول نسبيًا إلى المعلوم ، لكننا فى الحالة المضادة نتمتع بميزة الانطلاق من شىء معلوم ، أى من الجسم المرئى . رغم كل ما نحسب أننا قد حزنا عليه اليوم من علم بالنفس ، مازالت النفس أغمض علينا بما لا يحد من سطح الجسم المرئى . . .

النفس بلاد غريبة تكاد أن تكون غير مكتشفة ، وما نعرفه عنها لا يعدو أن يكون معرفة غير مباشرة ، إذ نتوسل إلى معرفتها بواسطة الوظائف الواعية (الشعورية) التى تخضع إلى ما لا يكاد له عدّ من إمكانيات الخداع .

أما وأن الأمر على ما ذكرنا ، فلعل من الأسلم لنا أن ننطلق من العالم الخارجى إلى العالم الداخلى ، ومن المعلوم إلى المجهول ، ومن الجسم إلى العقل ، ولذلك بدأت جميع محاولات علم الشخصية انطلاقًا من العالم الخارجى . وفى الأزمنة القديمة ، اتجه علم التنجيم حتى إلى الفراغ الفلكى لكى يعيّن خطوطًا لها بدايات مبطونة فى الإنسان نفسه ، ويندرج فى هذا الصنف أيضًا علم الكف الذى يعتمد على تفسير العلامات الخارجية ، وكذلك علم أشكال الجمجمة وقسمات الوجه ودراسة الخط فى

عصرنا الحاضـر ، وكذلك دراسة علم النماذج الفيزيولوجـية التى قام بها «كرتشمر» والمنهج الكلـكسـوغـرافى الذى طلع به «روشارخ» . وهكـذا يمكننا أن نرى أن هناك عددًا من الطرق أو المناهج التى تذهب من الخارج إلى الداخل ، أو من الفيزيائى إلى النفسى . وإنه لمن الضرورى أن يسير البـحث فى هـذا الاتجـاه إلى أن نصل إلى يقين تام من بـعض الوقـائع النفسية الأولية ، حتى إذا رسـخت هذه الوقائع وتوطدت ، فعندئذ يصير بوسعنا أن نعكس الاتجاه . وعندئذٍ أيضًا يمكننا أن نطرح هذا السؤال : ما هى العلاقة الجسمانية التى تتناسب مع شرط نفسى معين ؟ لسوء الحظ لم نقطع شوطًا بعـيدًا فى الجواب عن هذه المسـألة ، ولو جوابًا غيـر دقيق . لأن المطلب الأول الذى يقوم على تأصـيل الوقائع الأولية المتعلقـة بالحياة النفسية لم يتم تحـقيقه حتى الآن . والحق إننا لم نبدأ إلا حـديثًا بتجميع مفردات القائمة النفسية ، وما كان التوفيق حليف نتائجنا دائمًا .

إن مجرد تأصيل واقعة تفيد بأن لأناس معينين هذا المظهر أو ذاك لهو أمر لا أهمـية له بحـد ذاته إن لم يتح لنا الاستـدلال على ما يناسـبه من النفس . ولا نكون قـد تعلمنا شيئًا إلا عندمـا نستطيع تعـيين الصفـات العقلية التى تصاحب تكوينًا جسميًا معينًا . فالجسم بلا نفس لا يعنى لنا إلا القليل ، وكـذلك النفس بلا جـسم ، وعندما نحـاول أن نستـخلص تلازمًا نفسيًا مع صفة جسمـانية ، فإنما ننطلق - كما قد بينا - من المعلوم إلى المجهول .

لســوء الحظ ، لابد لى أن أشدد على هذه الـنقطة ، لأن علم النفس هو أحدث علومنا كلها ، ولذلك كـان أكثرها تأثرًا بسوابق الرأى ، وإن اكتـشافنا لعـلم النفس مؤخـرًا ليظهر لنا بجـلاء أنه اقتـضى منا كل هذا الوقت حتى استطعنا أن نقـيم تمييزًا بينًا بين أنفسنا ومحتـويات عقولنا . وقبل أن يتم لنا ذلك ، كـان من المستحـيل علينا أن ندرس النفس دراسة موضوعية . إن علم النفس ، بما هو علم طبيعى ، لهو بالفعل أحدث ما حـصلنا عليه من مـكتسـبات ، ولقـد كان يتـصف حـتى الآن بالتخـيل والاعتباط مثلما كان يتصف به العلم الطبيعى فى العصور الوسطى . حتى الآن ، ثمـة من يعـتقـد أن بوسع علم النفس الاسـتـغناء عن المعطيـات التجـريبية وأنه يمكن خلقــه بمرسوم أو قرار ، وهــذا سابق حكم لم نزل نعمل تحت تأثيره . ومع ذلك فحوادث الحياة النفسية ذات صلة مباشرة بنا أكثر من كل الأشيـاء ، وهى أكثر الأشياء التى نعرفـها بحسب الظاهر . والحق إننا لنجد البحث فى النفس أمرًا يبـعث على الضجر والسأم ، لأنها أكثـر من مألوفـة لدينا . وإننا لنسـتـغـرب ابتذال هذه الأشـياء الشـائعة المسـتديمة، وباختصــار نحن واقعون تحت تأثـير صلتهـا المباشرة بحـياتنا النفسية ، ونعــمل كل ما فى وسعنا لكى نتجنب التفكيـر فيها . وبما أن النفس هى «المباشرة» عينها ، وبما أننا نحن أنفسنا «النفس» ، نكاد نحمل حملاً على الافـتراض بأننا نعرفهـا من أقصاها إلى أقصـاها على نحو لا مجال للبحث فيه ، وهذا ما يجعل لكل منا رأيه الخاص فى علم النفس ، بل حتى ليقتنع بأنه يعرف عن هذا العلم أكثر مما يعرفه أى شخص آخر.

ربما كان أطباء الأمـراض العقلية أول فريق محتـرف كان له فضل الكشف عن سابق الحكم الأعـمى الذى يحدو كل إنسـان على اعتبـار نفسه خـير مرجع فى الأمـور النفسيـة ، لقد أتاح لهم ذلك اضطرارهم إلى مكافـحة عائلات مرضاهم ، ومن يقومون على حراسـتهم ممن يستمدون معلوماتهم من «الأمثال السـائرة» . لكن هذا لا يمنع طبيب الأمراض العـقلية من أن يصبح «بتـاع كُلُّه . .» لقد ذهب أحدهم إلى حـد القول : «ليس فى هذه المدينة إلا اثنان أسوياء - ثانيهما ، البروفسور . ب.» .

وبما أن حـالة علم النفس الـيوم عـلى مـا هى عليـه ، لابد لنا من التسليم بأن الأقرب إلينا هو نفس الشىء الذى نعرف عنه الأقل ، رغم ما يبدو لنا أن معرفتنا عنه هى أفـضل مما نعرفه عن أى شىء آخر . كذلك لابد لنا من التسليم بأن كل أحد غيرنا قد يفـهمنا خيراً مما نفهم أنفسنا . وربما كانت نقطة الانطلاق هذه خـير مَعين لنا على البحث . وكـما قلت لتوى ، لقد كان تأخرنا فى اكتشاف علم النفس هذا التأخر الشديد بسبب قرب النفس منا هذا القـرب الشديد . وبما أن علم النفس بهذه الصـفة لما يزل فى مراحله الأولية ، كان افتقارنا إلى المفاهيم والتعاريف التى نستطيع أن نفهم الوقـائع بواسطتها . ولئن كـنا نفتقـر إلى المفاهيم ، إلا أننا لا نفتقر إلى الوقائع ، بل نحن مطوقون - وحتى نكاد أن نكون مدفونين - بهذه الوقائع . وهذه مفارقة صارخة عن حالة العلوم الأخرى حيث ينبغى فـيهـا الكشف عن الوقـائع أولاً . فى هذه العلوم نجـد صيـاغة المفـاهيم

الوصفية تنتج عن تصنيف المعطيات الأولية ، المفاهيم الوصفية التى تشتمل على أنظمة أو طبقات معينة ، كما هو الحال مثلاً فى مجموعات العناصر الكيماوية والأجناس النباتية . لكن الأمر يختلف اختلافًا كليًا بالنسبة إلى النفس ، حيث يتركنا المنطلق التجريبى والوصفى تحت رحمة جريان لا يتوقف عن الدفق من خبراتنا الذاتية . ويجعلنا نشعر كلما ظهر نوع من التعميم الشمولى من هذه الفوضى من الانطباعات أنه ليس أكثر من عرض نفسى طارئ ، ذلك أننا نحن أنفسنا «نفوس» ، ويكاد يستحيل علينا أن نطلق العنان للحوادث النفسية بدون أن ندخل فيها عمليًا ، وبذلك نحرم من قدرتنا على معرفة الفروق وعقد المقارنات .

هذه صعوبة واحدة ، أما الصعوبة الأخرى فكامنة فى أننا كلما انصرفنا عن الظاهرات ورحنا نبحث فى النفس اللامكانية ازدادت أمامنا استحالة تحديدنا لأى شىء بالاستناد إلى مقياس دقيق ، بل استحال علينا حتى أمر تشييد الوقائع . فمثلاً ، إذا أردت أن أشدد على لا واقعية شىء، أقول إنما فكرت فيه أكثر ، ثم أقول : «ما كنت لأملك هذه الفكرة لولا أنه حدث كذا وكذا ؟ ثم إننى لا أفكر فى هذه الأشياء على هذا النحو» . إن ملاحظات من هذا النوع عادية تمامًا ، وهى تظهر مقدار سديمية الوقائع النفسية ، بل مقدار فضفاضيتها من الجانب الذاتى – وهى فى الواقع موضوعية ومحددة بمقدار ما فى الحوادث التاريخية من موضوعية وتحديد . والحق إننى فعلاً فكرت هكذا وهكذا ، بقطع النظر عن الأحوال

والشروط التى قد أعلقها على هذه الواقعة . كثير من الناس يرون أنهم ينبغى أن يخوضوا صراعًا مع أنفسهم يمكن أن يجعلوا منه تسليمًا صريحًا كاملاً ، وغالبًا ما يكلفهم هذا جهدًا معنويًا عظيمًا ، هذه هى ، إذن ، الصعوبات التى نواجهها عندما نريد أن نستخلص نتائج عن حالة النفس من الأشياء التى نلاحظها فى الخارج .

أما أنا فميدان علمى الأكثر محدودية ليس هو التحديد السريرى للسمات الخارجية ، بل بحث المعطيات النفسية التى يمكننا أن نستخلصها منها تصنيف هذه المعطيات . كانت النتيجة الأولى لهذا العمل درس النفس دراسة وصفية تتيح لنا صياغة نظريات معينة حول بنيتها . ثم تطور مفهوم النماذج النفسية من التطبيق التجريبى بهذه النظريات .

تقوم الدراسات السريرية على وصف الأعراض ، والانتقال منها إلى درس النفس دراسة وصفية هو أشبه بالانتقال من درس الأعراض المرضية دراسة محضة إلى دراسة علم أمراض الخلية والاستقلاب . أى إن درس النفس دراسة وصفية يتيح لنا رؤية السياقات النفسية القائمة وراء العقل الذى ينتج الأعراض السريرية . لقد توصلنا إلى هذا الفهم عن طريق تطبيق المناهج التحليلية ، وأضحى اليوم فى حوزتنا معرفة عظيمة الأهمية بهذه السياقات النفسية التى تنتج الأعراض العصابية ، بعد أن قطعنا فى دراستنا للنفس دراسة وصفية شوطًا متقدمًا إلى حد يتيح لنا تعيين العقد النفسية .

مهما كان الذى يحدث فى أقبية النفس المظلمة (سوى ما يرصده تحليلنا) – وتنهض حول هذا الموضوع آراء معروفة كثيرة – يظل هناك شىء أكيد واحد هو ، أولاً وقبل كل شىء ، ما يسمى بالعقد (محتويات على درجة عالية من الشحنة العاطفية ذات قدر معين من الاستقلال) التى تقوم بدور هام فى هذه الأقبية . إن تعبير «العقد المستقلة» كثيرًا ما يلقى معارضة ، وأنا لا أرى ما يبرر هذه المعارضة لأن المحتويات الفاعلة من الخافية (اللاشعور) تتخذ لها مسلكًا لا يسعنى أن أصفه خيراً من كلمة «مستقلة» . ويستعمل هذا الاصطلاح للدلالة على أن العقد النفسية تقاوم مقاصد الواعية ، وتغذو وتروح كما يحلو لها . والعقد حسب أفضل معلوماتنا عنها ، عبارة عن محتويات نفسية تقع خارج رقابة العقل الواعي، انشطارات عن الواعية وشكلت لنفسها وجودًا مستقلاً فى الخافية، وهى مستعدة دائمًا لأن تعوق أو تؤازر مقاصد الواعية .

وإذا نحن مضينا فى دراسة العقد أبعد قليلاً ، انتهى بنا الأمر إلى مشكلة نشأتها ، وهى مشكلة قامت بصددها نظريات مختلفة ، وإذا نحن استبعدنا موضوع النظريات ، وجدنا الخبرة تظهرنا على أن العقد تنطوى دائمًا على شىء أشبه بالصراع ، فهى إما أن تكون سببًا فى هذا الصراع أو نتيجة له . وعلى كل حال ، إن خصائص الصراع ، من صدمة وهياج وعذاب نفسي ونزاع داخلى ، كلها تختص بالعقد النفسية ، يسمونها بالفرنسية «البهائم السوداء» ونحن نشير إليها على أنها «هياكل عظمية فى

الخزانة» إنها «نقاط ضـعف» لا نحب أن نتذكرها ، ولا نحب - من باب أولى - أن يذكرنا بهـا أحد ، لكنها غـالبًا ما تعود إلى العـقد بدون أن يطلب منهـا ذلك ، وبطريقـة لا نرغب فيـهـا . وهي تنطوى دائمًا على ذكريات أو رغبات أو مخـاوف أو واجبات أو آراء لم نكن أبدًا على وفاق معها ، ولهذا السبب تدخل دائمًا فى حياتنا الواعية بطريقة مزعجة ومؤذية فى العادة .

واضح أن العقـد النفسية تمثل نوعًا من النقص بأوسع مـا فى الكلمة من معنى - وهذه إبانة يجب على أن أبادر فى الحال إلى وصفها بالقول: إن العقـد لا تدل على وجود نقص بالـضرورة . وإنما تعنى فـقط أن ثمة شيئًا مخالفًا لم يتم تمثله . شيئًا مخاصمًا موجودًا ، قد يكون عقبة ، كما قـد يكون أيضًا حـافزًا على بذل جـهـد أكـبر ، وقـد يكون نافـذة على إمكانيات تحـقيق جـديدة ، وبهذا المعنى تكون العـقد مـجالاً فى بؤرة أو شبكة فى الحـياة النفسيـة ربما لا نريد أن نتخلى عنها . والحق إن العـقد النفسية لما يجب الافتقار إليه ، لأن الفـاعلية النفسية ربما تفضى بنا بدونها إلـــى سكونية قاتلة . لكن العقد تظل مـع ذلك تشير إلى وجود مشاكل لم تجد لها حـلاً عند الفرد ، وعلى نقاط مُنى صاحبـها عندها بالفشل ، على الأقل فى الوقت الحاضر ، كمـا تدل على وجود شىء لم يستطع أن يتفاداه أو يتغلب عـليه ، وعلى نقاطه الضعيفة بكل مـا تحمله هذه الكلمة من معنى .

هذه الخصائص التى تتميز بها العقد النفسية إنما تلقى ضوءًا كثيفًا على منشئها . ولقد بات من الواضح أنها تنشأ من الصدام بين مقتضيات التكيف وعدم قدرة الفرد التكوينية على مقابلة التحدى . فإذا نحن رأينا العقدة فى هذا الضوء ، كانت عرضًا يساعدنا على تشخيص استعداد الفرد.

تظهرنا الخبرة على أن العقد متفاوتة ولاحد لتفاوتها ، ومع ذلك تكشف لنا المقارنة الدقيقة عن عدد قليل نسبيًا من النماذج الأولية المثالية ، وكلها يستمد أصله من اختبارات الطفولة الأولى . وينبغى أن يكون الأمر على هذا النحو اضطرارًا ، لأن استعداد الفرد هو أحد العوامل التكوينية عند الطفل . ولذلك كانت العقد الوالدية ليست إلا المظهر الأول للصدام بين الواقع وعجز الفرد التكوينى عن تلبية المستلزمات المطلوبة منه . وعلى هذا لا يمكن أن يكون الشكل الأول من العقدة إلا العقدة الوالدية ، لأن الوالدين هما أول واقع يدخل عالم الطفل فى نزاعه معه .

ولذلك لا ينبئنا وجود العقد الوالدية إلا بالشىء القليل ، أو هو لا ينبئنا بشىء على الإطلاق ، عن التكوين الخاص بالفرد . والخبرة العملية سرعان ما تعلمنا أن ملاك الأمر ليس فى وجود العقد الوالدية ، بل فى الطريقة الخاصة التى تعبر بها العقدة عن نفسها فى حياة الفرد . وفيما يتعلق بهذه الطريقة نلاحظ أكثر أنواع التفاوت ظهورًا ، ولا نلاحظ سوى عدد يسير جدًا مما يمكن رده إلى السمات الخاصة بتأثير الوالدين . غالبًا ما

نجد عدة أطفال قد تعرضوا لنفس التأثير ، ومع ذلك كل منهم يرد على هذا التأثير ردًا مختلفًا .

لقد وجهت انتباهي إلى هذه الاختلافات نفسها ، لاعتقادى أنى من خلال هذه الاختلافات أستطيع التعرف على ما لدى الأفراد من استعدادات على وجه التخصيص . لماذا ، مثلاً ، يرد أحد الأولاد فى عائلة معصوبة ردًا يتصف بالهيستيريا ، وآخر بالعصاب القهرى ، وثالث بالجنون ، ورابع بلا شىء ظاهريًا ؟ هذه المشكلة من «اختيار العصاب» وقد واجهها «فرويد» أيضا ، تسلب العقدة الوالدية كل معنى اثيولوجى ، وتنقل ميدان البحث إلى ردّ الفرد واستعداده الخاص .

رغم أن محاولات «فرويد» لحل هذه المكلة تجعلنى غير راض تمامًا ، فأنا نفسى غير قادر على الإجابة عن هذه المسألة . والحق إننى أذهب إلى أن الوقت لما يحن بعد لإثارة هذه المسألة المتعلقة باختيار العصاب . قبل التصدى لحل هذه المشكلة المستعصية ، ينبغى لنا التعرف على الشىء الكثير من الطريقة التى يعتمدها الأفراد فى الرد . السؤال هو : كيف يرد الشخص على عقبة تصادفه ؟ مثلاً ، يصادفنا جدول ماء ليس عليه جسر، والجدول أعرض من أن نقطعه بخطوة واحدة ، إذن ، يجب أن نقطعه قفزًا، ولكى نستطيع ذلك ، ينبغى أن يكون تحت تصرفنا جهاز وظيفى معقد ، أى جهاز محرك نفسى . هذا الجهاز متطور تمامًا ولا يحتاج شيئًا سوى تشغيله . لكن قبل أن يحدث هذا ، يحدث شىء ذو طبيعة نفسية

صرفــة ، أريد بذلك القرار الذى نتخــذه حول ما ينبغــى علينا فعله . ثم يلى هذا القــرار فــاعليات تســوى المســألة على نحــو من الأنحاء ، وهذه الفاعلية تختلف بين فرد وآخر لكننا ، وهذا له أهمية كبيرة قلما نعترف - هذا إذا اعترفنا - أن لهذه الحوادث صفة الخصوصية ، لأننا فى الأصل لا نستطيع أن نرى أنفسنا أبدًا ، أو لا نراها إلا فى النهاية . وهذا معناه كما أن جهاز المحــرك النفسى موضوع تلقائيًا تحت تصــرفنا ، كذلك لا يوجد إلا جهاز نفسى معدّ للاستــعمال فى اتخاذ القرارات يعمل هو أيضًا بحكم العادة بصورة خافية (لا شعورية) .

تختلف الآراء كثيرًا حول مــاهية هذا الجهاز . لكن الشىء الأكيد هو أن لكل فرد طريقة اعتادها فى مواجهة القرارات ومعالجة الصعاب . يقول أحدهم إنه قطع الجدول بغــية إدخال البهجة على نفــسه ، ويقول آخر إنه قطع الجدول لأنه لم يكن يملك خــيارًا ، أما الثالث فيــقول إنه قطعه لأن الجدول عقبــة اعترضته ، وكل عقــبة تعترضه إنما تتحــداه لكى يقهرها ، وأما الرابع فلم يقطع الجدول قفزًا لأنه لا يحب أن يبذل جهدًا ليس وراءه طائل ، وأما الخامس فقد أحجم عن القفز لأنه لم ير ضرورة ملحة تحمله على العبور إلى الضفة الأخرى .

لقد تعمدت اختيار هذا المثــال العادي لكى أبين مقدار ما للحوافز من قلة اتصال من حيث تبدو لنا عديمة الجــدوى حتى أننا لنندفع بها إلى جهة واحدة وفينا ميل إلى الاستعاضــة عنها بتفسير آخر . ومع ذلك تظل هذه

الرجوعات (ردود الفعل) المختلفة تمدنا بنظرة نافـذة قيمة إلى أجهزة الفرد المتعلقة بالتكيف النفسى . لأن الشخص الذى قطع الجدول بدافع الابتهاج لو لاحظناه فى أوضاعه الأخرى من الحياة لوجدنا القسم الأعظم مما يعمله أو يهمله يمكن تفسيره بدافع اللذة أو البهجة . كذلك نجد من لا يرى وسيلة سوى العبور يمضى فى حياته ملتزمًا جانب الحذر ولا يتخذ قراراته إلاّ على كره منه . فى جميع هذه الحالات نجد أجهزة نفسية خاصة على استعداد دائمًا لتنفيذ القرارات ارتجالاً . ويمكننا فى يسر أن نتصور أن عدد هذه المواقف لا يقع تحت حصر ، وأن الفروقات الخصوصية لا تعد ولا تحصى ، وهى أشبه بفروقات الكرستال التى يمكننا التعرف عليها من حيث انتماؤها إلى هذه الفئة أو تلك ، على رغم هذه الفروقات ، ولكن، كما أن الكرستال يبين عن تماثل أساسى بسيط نسبيًا ، كذلك تبين هذه المواقف الشخصية عن سمات أساسية معينة تتيح لنا أن ندرجها فى مجموعة محددة .

جرت منذ أقدم الأزمنة محاولات كثيرة لتصنيف الأفراد فى نماذج معينة بغية إضفاء النظام على ما هو اختلاط الفوضى . وكان أقدم هذه المحاولات المعروفة لدينا ما قام به المنجمون الشرقيون الذين وضعوا تصميم ما يسمى بمثلثات العناصر الأربعة : الهواء والماء والتراب والنار . فمثلث الهواء يبدو فى «خريطة السماء» مؤلفًا من ثلاث علامات «هوائية» من دائرة الفلك هى الدلو والجوزاء والميزان ، ومثلث النار مؤلفًا من الحمل

والأسد والقوس . بحسب هذه النظرية القديمة ، كل من يولد فى هذين المثلثين فله نصيبه من طبيعتهما الهوائية أو النارية ويكشف عن استعداد ومصير مطابقين لهما .

ويعتبر هذا الجدول الكوزمولوجى الأصل الذى تحدرت منه نظرية النماذج الفيزيولوجية التى عرفت فى العصور القديمة ، وبموجبها تتطابق الاستعدادات الأربعة مع الأمزجة الجسمانية الأربعة ، فما كانت تمثله علامات قبة الفلك فى مبدأ الأمر صار يعبر عنه فيما بعد بالاصطلاحات الفيزيولوجية المعروفة فى الطب الإغريقى وكان منه تصنيف اللمفاوى والدموى والغضبى والسوداوى . وهى اصطلاحات لا تفيد إلا فى الدلالة على الأمزجة الجسمانية المفترضة . ولقد دام هذا التصينف قرابة سبعة عشر قرنًا . أما نظرية النماذج البروجية . يا لدهشة المنوّرين - فلم يزل معمولاً بها إلى اليوم ، بل إنها لتحظى برواج جديد .

لعل هذه اللمحة التاريخية تجعلنا نطمئن إلى أن جهودنا الحديثة الرامية إلى صياغة نظرية فى النماذج ليست بالجهود الجديدة أو غير المسبوقة ، حى ولو كان وجداننا العلمى لم يعد يسمح لنا بالعودة إلى الأساليب القديمة المبنية على الحدس فى معالجة المسألة . ولذلك لم يكن أمامنا بد من التماس جواب خاص بنا عن هذه المسألة يأتى ملبيًا لمتطلبات العلم .

وهنا نواجه العقبة الكؤود في مشكلة النماذج ؛ أعنى بها المقاييس أو المعايير . فالمعيار البروجى معيـار بسيط ، وقد جاءت به مجموعة النجوم الثابتة . أمـا كيف أمكن نسبة عناصر الشـخصية الإنسانيـة إلى علامات الفلك والكواكب ، فهذه مـسألة ترجع إلى ضباب مـا قبل التاريخ وتظل مسـألة بلا جـواب . وأما التـصنيف الإغريقى المبنى علـى الاستـعدادات الأربعة فقـد اتخذ مظهر الفرد ومـسلكه معياراً له ، تمامًا كـما هو حاصل اليوم بالنسبة إلى النماذج الفيزيولوجـية الحديثة . لكن أين نلتمس المعيار فى نظرية النماذج السيكولوجية ؟ لنعـد إلى مثالنا الذى تقدم ذكره المتعلق بالأفراد المختلفين الذين قطعوا الجدول المائى . كيف ، ومن أى منطلق ، ينبغى علينا أن نصنف حوافزهم المعتادة ؟ قلنا إن أحدهم فعل ذلك ابتغاء المتـعة والبـهـجة ، والآخـر لأن الامـتناع عن اجتـيـاره يجلب له المقت والإزعاج، والثالث لا يقطعه لأن لديه أفكاراً أخـرى ، وهكذا تبدو قائمة الإمكانيات لا نهاية لها ، ولا فائدة منها فى أغراض التصنيف .

لا أدرى كيف يتصدى الآخـرون لأداء هذه المهمة . لذلك لا يسعنى إلا أن أبين كيف تصديت أنا لمعـالجة هذا الموضوع ، ولابد لى أن أصبح غرضًا للملامة لأن طريقتى فى حل هذه المشكلة جاءت نتيجة لسابق حكم فردى من جانبى . والحق إن هذا الاعتراض صحيح صحة تامة تجعلنى لا أعرف كـيف أواجهه . وربما عـللت نفسى بكولومبس الذى اسـتطاع أن يكتشف أمريكا رغم اعتماده على مسلّمات ذاتية وفرضيات خاطئة وسلوكه

طريقًا هجرته الملاحة الحديثة . مهما كان الشىء الذى ننظر إليه ، وكيفما نظرنا إليـه ، فإننا لا نرى إلا بأعـيننا ، ولذلك لم يصنع العلم إنسان واحد ، بل أناس كثيرون . كل ما يفعله الفرد هو أن يعرض مساهمته ، وبهذا المعنى فقط تجرأت فتكلمت عن طريقتى فى رؤية الأشياء .

تفرض عليّ طبيعة عملى دائمًا أن آخذ خصائص الأفراد بعين الاعتبار . وهذا ما حدانى إلى تشييد حـقائق معينة تقوم على «المعدل الوسطى» ؛ يضاف إلى ذلك أن اضطرارى إلى معالجة عدد لا حصر له من «الأزواج» على مدى كثير من السنين قد فرض عليّ مهـمة التصدى لصياغة منطلقات واضحة تنطبق على كل من الزوج والزوجة . فـمثلاً ، كم مرة لم اضطر فيها إلى القول : «انتبه ! زوجـتك ذات طبيعة فاعلة ، ولا يتوقع منها أن تصب كل وجـودها عـاكـفـة على تدبير المنزل» . هذه بـداية نظرية فى النموذج ، أى نوع من الحـقيقـة الإحصائيـة : ثمة طبائع فـاعلة وطبائع منفعلة . لكن هذه الحقيقة التى أكل الزمـان عليها وشرب ما كانت لتنال رضائى . لذلك حاولت فيما بعـد أن أقول إن ثمة أشخاصًا لديهم ملكة التفكـير وآخرين لا يفكرون ، لأنـى كنت لاحظت أن أصحاب الـطبائع المنفعلة ظاهريًا لم يكونوا منفعلين فى حقيـقة الأمر بقدر ما كانوا يوازنون فيما بين الأمور ويتدبرونهـا من جميع الأوجه ، يدرسون الوضع أولاً ثم يتصـرفون ؛ ولأنهم يفعلون هذا بحكم العـادة ، يضيعون على أنفـسهم فرصًا تتطلب منهم العمل بدون تدبر ولا موازنة .

وهذا ما يدمغهم بصفة الانفعالية . أما الذين لا يفكرون فيبدون لىّ دومًا وكأنهم متورّطون فى وضع من الأوضاع بدون موزانة ولا تدبر ، لكنهم ما يلبثون حتى يتبين لهم فى وقت لاحق أنهم قد غطسوا فى مستنقع . وعلى هذا يمكن اعتبارهم «غير فكريين» ؛ ولعل هذه التسمية أنسب لهم من تسمية «فاعلين» . فالتدبر والروية ، فى أحوال معينة ، شكل هام جدًا من «الفاعلية» ، كما هو سياق فعل معقول بالمقارنة مع شخص يهب بلا روية إلى العمل ، مهما كان الثمن . لكننى ما لبثت حتى اكتشفت أن تردد الواحد لم يكن ناشئًا دائمًا عن روية ، وأن مسارعة الآخر إلى الفعل ليست ناشئة بالضرورة عن قلة روية . فغالبًا ما يكون تردد الأول ناشئًا عن تهيّب قد اعتاده ؛ أو على الأقل عن شىء أشبه بالانكفاء إلى الخلف كلما واجه مهمة أثقل من أن يؤديها ؛ على حين أن الفاعلية الفورية من الثانى كثيرًا ما تتاح له بسبب رجحان ثقته بنفسه حيال الموضوع . وقد حدتنى هذه الملاحظة على صياغة هذه الفوارق النموذجية على النحو التالى : ثمة فريق من الناس ، عند رد فعله على وضع معين ، ينكفئ قليلاً إلى الوراء فى شىء من الرفض غير المنطوق ، ثم لا يظهر منه رجع عليه إلا بعد ذلك ؛ فريق آخر ، فى نفس الوضع ، يهجم على الموضوع برجع فورى ، واثقًا من صحة مسلكه ثقة واضحة . الفريق الأول يتميز بعلاقة سلبية معينة حيال الموضوع ، والفريق الثانى يتميز بعلاقة إيجابية . وغنى عن البيان أن موقف الفريق الأول يتفق مع

الموقف الانطوائى ، وموقف الفريق الثانى مع الموقف الانبساطى . ولكن هذين الاصطلاحين لا يفيدانا شيئًا فى حد ذاتهما إلا بمقدار ما يفيدنا اكتشاف «البورجوازى النبيل» فى مسرحية موليير أنه إنما يتكلم نثرًا فى العادة . ولا يكون لهذا التمييز قيمة أو معنى إلا إذا تحققنا أن جميع الصفات الأخرى تتماشى مع النموذج . ولا يمكن أن يكون المرء انطوائيًا أو انبساطيًا إلا أن يكون كذلك فى كل شىء .

ونعنى باصطلاح «انطوائى» أن كل الحوادث النفسية إنما تحدث على نحو يصدق على الانطوائيين جميعًا . كذلك إن وصفنا لفرد معين بأنه انبساطى لا يعنى شيئًا إلا بمقدار ما يعنى أن طوله ست أقدام أو أن شعره بنّى اللون أو أنه عريض الرأس . فهذه الإبانات لا تفيدنا إلا قليلاً زيادة على الحقيقة المجردة التى تعبر عنهما . لكن اصطلاح «الانبساطى» يدعى أنه له معنى أكثر من ذلك . فهو يبين ، عندما يكون الشخص انبساطيًا عن أن لواعيته ، وكذا لخافيته ، صفات محددة ؛ وأن مسلكه العام وعلاقته بالناس - بل وحتى مجرى حياته ، كل ذلك يبين عن خصائص نموذجية بعينها .

الانطواء والانبساط - وهما موقفان نموذجيان - كل منهما يعنى ميلاً أساسيًا يحكم السياق النفسى بكامله ، ويرسّخ الرجوعات المعتادة ؛ ولذلك هو لا يعين نموذج السلوك وحسب ، وإنما طبيعة الخبرة الشخصية أو الذاتية . ليس هذا وحسب ، وإنما يدلنا أيضًا على نوع فاعلية التعويض التى تقوم بها الخافية التى نريد أن نكشف عنها .

وعندما نحدد الرجوعات المعتادة ، نستطيع أن نوقن بأننا قد أصبنا الغرض ، لأن هذه الرجوعات تتحكم بالسلوك الخارجى من جهة ، وتصوغ أو تقولب الخبرة الخصوصية من ناحية ثانية . إن نوعًا معينًا من السلوك يحدث نتائج متوافقة معه ، وفهمنا الشخصى لهذه النتائج ينشىء اختبارات تؤثر بدورها فى السلوك ، وبذلك تنغلق دائرة مصير الفرد .

رغم أننا لا نشك فى أننا نضع أيدينا على قضية حاسمة بواسطة الرجوعات المعتادة ، إلا أن مسألة دقيقة تظل مع ذلك قائمة وأعنى بها ما إذا كنا وصفنا خصائصها بشكل يبعث على الرضا . حول هذا الموضوع قد نجد اختلافًا حقيقيًا حتى فيما بين من يتساوون فى معرفة هذا الحقل الخاص معرفة عميقة . فى كتابى عن «النماذج» جمعت كل ما استطعت جمعه دعمًا لمفهومى ، لكننى بينت بجلاء أننى لا أعتبر نظريتى النظرية الصحيحة الوحيدة ، أو النظرية الممكنة الوحيدة ، فى النماذج . فنظريتى هذه بسيطة للغاية ، بما هى مؤلفة من التضاد بين الانطواء والانبساط ؛ لكن الصيغ البسيطة - لسوء الحظ - هى أكثر الصيغ عرضة للشك ؛ إذ ما أيسر ما تُغطى على التعقيدات الفعلية فتخدعنا عن حقيقتها . وإنى لأتكلم هنا اعتمادًا على خبرتى الشخصية ، لأنى ما كدت أنشر الصياغة الأولى لهذه المعايير حتى تبين لى - ويا لذعرى الشديد - أننى قد أخذت بها على نحو أو آخر . كان شىء ما خارجًا عن جرن الحركة . لقد

حاولت تفسير الكثير بأيسر سـبيل . كما يحدث غالبًا عند الفرحة الأولى بالاكتشاف .

لقد استوقفتنى حقـيقة لا مراء فيها وهى أننا فى الوقت الذى نصنف فيه الناس إلى انطوائيين وانبساطيين ، فـإن هذا التصنيف لا يشمل جميع الفوارق بين الأفراد الذين قـد يندرجون فى هذا الصنف أوذاك . والحق إن هذه الفوارق بلغت من العظم حدًا اضطررت معــه إلى الشك فيما إذا كان ما قد لاحظته صحيحًا فى المكان الأول . وقد اقتضانى تبديد هذا الشك ما يقرب من عشر سنوات من الملاحظة والمقارنة .

لقد أوقعتنى مسألة الاختـلاف الكبير فيما بين من يندرجون تحت كل صنف فى مصاعب جمّة لم تكن فى الحسبان ظللت مدة طويلة لم أستطع لها تذلـيلاً . فمـا كانت الملاحظات أو تعـيين الاختـلافات لتـسبب لى إزعاجًا كبيرًا ، لأن أصل المصاعب كـان ، حتى ذلك الحين كما كان من قبل ، إنما هـو مشكلة المعـايير . كيف أجـد الاصطلاحات الصـحيـحة للفروقات الخصوصية ؟ هنا أدركت ، لأول مرة ، مدى حداثة علم النفس فى الواقع . فهـذا العلم لا يعدو أن يكون أكـثر قليلاً من عـماء من الآراء الاستبـدادية خيرها ما نتج فى قـاعة الدرس أو فى غرفة الاسـتشارات عن ولادة عـفوية ولدتهـا عـقول العـلماء المنعـزلة ؛ وهى - بالتـالى - آراد استبدادية .

ليست بى رغبة فى أن أكون وقحًا ، ولكننى لا أستطيع الامتناع عن مواجهة أستاذ علم النفس بعقلية النساء والصينيين وزنوج استراليا . ينبغى لعلم النفس أن يحيط بالحياة كلها ، وإلا بقينا محصورين فى القرون الوسطى . لقد اتضح لى أنه لا يمكن أن يوجد معايير صحيحة فى عماء علم النفس المعاصر ؛ بل لابد لنا من أن نضعها ، لا دفعة واحدة بطبيعة الحال ، بل على أساس من العمل التحضيرى الذى لا يقدر بثمن يتولاه أناس كثيرون لا يسع تاريخ علم النفس أن يمر على أسمائهم مرور الكرام .

ربما لا أستطيع ، فى هذه العجالة ، أن آتى على ذكر جميع الملاحظات المتفرقة التى أوصلتنى إلى اختيار وظائف نفسية معينة واتخاذها معايير لتعيين الفوارق موضوع البحث ، وإنما أرغب فى تبيان كيف ظهرت لى على قدر ما استطعت فهمها . يجب أن نعلم أن الانطوائى ليس من يتردد أمام الموضوع وحسب ، وإنما هو من يفعل ذلك على نحو بالغ التحديد . زد على ذلك أنه لا يتصرف كما يتصرف كل انطوائى آخر من جميع النواحى ، بل يتصرف على نحو معين . فكما يضرب الأسد عدوه أو فريسته بمخالبه الأمامية حيث تكمن قوته ولا يضرب بذيله كما يفعل التمساح ، هكذا تتميز رجوعاتنا المعتادة باستخدام الوظيفة التى نثق بها أكثر من غيرها ، وتفعل أكثر من غيرها ، وهى الوظيفة التى تعبّر عن قوتنا . لكن هذا لا يمنع من أن تأتى رجوعاتنا عرضًا بطريقة تكشف

عن مكمن ضعفنا . إن الرجحان الوظيفى يقودنا إلى تشييد أوضاع معينة أو إلى الكشف عنها ، فى وقت نتجنب فيه أوضاعًا أخرى ، وبالتالى نختبر اختبارات خاصة بنا تختلف عن اختبارات غيرنا من الناس . فالذكى يكيف نفسه مع العالم بذكائه ، لا كما يفعل ملاكم من الدرجة السادسة ، حتى ولو اقتضاه الأمر ، حينًا بعد آخر ، أن يستخدم قبضته فى نوبة غضب . فى صراع الوجود والتكيف ، يستخدم كل منا أكثر وظائفه نماءً بصورة غريزية ، وبذلك تصبح معيار رجوعاتنا المعتادة .

هنا تصبح المسألة بالصيغة التالية : كيف يمكننا أن ندرج جميع هذه الوظائف فى مفاهيم عامة تتيح لنا أن نميزها من فوضى الحوادث الممكنة ؟ منذ وقت طويل جرى فى الحياة الاجتماعية تصنيف غير دقيق من هذا النوع ، بنتيجته صرنا نعرف نماذج الفلاح والعامل والفنان والمحارب ، وهكذا تمضى القائمة حتى تشمل جميع أصحاب الحرف . لكن هذا التصنيف ليس له إلا علاقة ضئيلة بعلم النفس ، لأنه - كما قال أحد مشاهير العلماء بخبث - يوجد علماء ليسوا أكثر من «حمّالين فكريين» .

كل نظرية فى النماذج يجب أن تتوفر فيها الدقة . فلا يكفى مثلاً أن نتكلم عن الذكاء لأنه مفهوم مسرف فى عموميته وسعته . إذ يكاد كل سلوك أن يتصف بالذكاء إذا جرى رخوًا رهوًا ، سريعًا وافيًا بالغرض . الذكاء ، كالغباء ، ليس وظيفة بل أسلوب ؛ وهذا الاصطلاح لا يعلمنا شيئًا أكثر من الكيفية التى تؤدى بها الوظيفة عملها . ونفس الشىء يصح

على المعاييـر الأخلاقية الجـمالية . يجب أن يكون فـى وسعنا تعـيين ما الذى يعمـل بصورة ظاهرة فى الطريق التى اعـتادها المرء فى رجـوعاته . وبذلك نضطر إلى اللجـوء إلى ما يشـبه لأول وهلة ، وعلـى نحو يثـير الفزع ، علم النفس الذى كان مـعروفًا فى القرن التاسع عشـر ؛ غير أننا فى حقيـقة الأمر ، لا نفعل شـيئًا غير أن نعـود إلى الأفكار الدارجة فى كلامنا اليومى ، الذى بمقدور كل إنسان أن يتناوله وأن يفـهمه . فمثلاً ، عندما أتكلم عن «الفكر» ، الفيلسوف وحـده هو الذى لا يفهم ما أعنيه ؛ لكن الرجل العادى لا يجده غـير مفهوم ؛ لأنه يستـخدم هذه الكلمة كل يوم ، وفى نفس المعنى العام دائمًا ، رغم أنه سوف يرتبك قليلاً لو طلبنا منه فجأة أن يعطينا للكلمة تحديدًا لا لبس فيه .

ونفس الشىء يصح على «الذاكرة» أو «الشـعور» . مهمـا كان تحديد مثل هذه المفاهيم صعبًا من الناحية العلمية التى تريد أن تجعل منها مفاهيم سيكولوجيـة ، فما أيسرها على الفهـم فى الكلام الدارج . الكلام مخزن للصور الـقائمة على الخـبرة ، لذلك كـانت المفاهيم البـالغة التـجريد لا تضرب جذورها فـيه بسهولة ؛ أو هى سـرعان ما تنقرض لافـتقارها إلى الاتصال بالواقع . لكن الفكر والشعور أمـران واقعيان فى الدرجة الأولى حتى أن كل لغـة تجاوزت المستوى البـدائى قد وضعت لهمـا تعبيريهـما اللذين لا يخطئان أبدًا . ولذلك يمكننا أن نطمئن إلى أن هذين التعبيرين يتفقان مع وقائع نفسية مـحددة تمامًا ، كائنًا ما كان التعريف العلمى لهذه الوقائع المحددة.

فمثلاً ، كلنا يعلم ما هى الواعية ، وما من أحد يشك فى شمول هذا المفهوم لحالة نفسية محددة ، مهما كان تعريفنا العلمى لها لا يبعث على الرضا .

وهكذا اتفق لى أن قمت بصياغة مفاهيمى عن الوظائف النفسية مستمدةً من المفاهيم التى تعبر عنها اللغة الدارجة ، واتخذتها معايير للحكم على الفروقات فيما بين الأشخاص الذين ينضوون تحت نفس نموذج الموقف ، أو الموقف النموذجى . فمثلاً ، اعتبرت الفكر مثلما هو معتبر عمومًا ؛ لأن ما ستوقفنى هو أن كثيرًا من الأشخاص يفكرون عادة أكثر من غيرهم ، وتبعًا لذلك يعطون الرجحان للتفكير عندما يتخذون القرارات الهامة ، ويستخدمون تفكيرهم فى محاولة فهم أنفسهم وتكييفها مع العالم ؛ وكل ما يحدث لهم فإنما يخضع عندهم للنظر والتدبر ، أو على الأقل يتوافقون مع مبدأ يؤيده التفكير . وهناك أشخاص آخرون يهملون التفكير لصالح عوامل عاطفية ، أى لصالح الشعور ؛ يتبعون بصورة ثابتة «سياسة» يمليها عليهم شعورهم ، ولا يحملون أنفسهم على التفكير إلا إذا حَزَبهم أمر خارق للعادة . هؤلاء يشكلون ضداً بيّنًا للأولين . ويظهر هذا الفرق ظهوراً واضحًا إذا كان أحد هذين النوعين شريكًا لآخر من النوع الثانى فى تجارة أو زوج . وقد يعطى الإنسان الأفضلية للتفكير ، إن كان انبساطيًا أو انطوائيًا ، لكنه لا يفكر إلا بالطريقة التى يتميز بها موقفه النموذجى .

غير أن رجحان إحدى هذه الوظائف أو الأخرى لا يفسر لنا جميع الفروقات التي ينبغي لنا الكشف عنها . إن ما أسميه النماذج الفكرية أو الشعورية إنما يحيط بمجموعتين أو فئتين تشتركان أيضًا فيما أستطيع تسميته بالجانب العقلي . ما من أحد يماري في أن الفكر شأن عقلي بصفة أساسية ؛ لكن عندما نأتي إلى الشعور تنهض اعتراضات معينة لا أريد الرد عليها ببساطة ؛ وإنما أسلّم بأن هذه المشكلة الشعورية كانت إحدى المشاكل التي استأثرت بتفكيري زمنًا طويلاً . ومع ذلك ، ومن دون إرهاق هذا المقال بمختلف تعريفات هذا المفهوم ، فسأقتصر هنا على عرض وجهة نظري حول هذا الموضوع . إن الصعوبة الرئيسية تكمن في أن كلمة «شعور» قابلة للتطبيق على جميع أنواع الطرائق المختلفة وهذا يصح ، بصفة خاصة ، على اللغة الألمانية ؛ ولكننا نلاحظه أيضًا ، وإلى حدّ ما ، في اللغتين الإنجليزية والفرنسية . لذلك يتوجب علينا ، أولاً وقبل كل شيء ، أن نميّز تمييزًا دقيقًا بين مفهوم الشعور والإحساس ، لأن هذا الأخير يستعمل لكي يشتمل على السياقات الحسية . ثم يتوجب علينا ثانيًا أن نبيّن بأن شعور الأسف مثلاً يختلف كل الاختلاف عن «الشعور» بأن الطقس سوف يتغير ، أو أن أسعار أسهم «الألومنيوم» سوف ترتفع. ولذلك رأيت أن أستعمل كلمة «شعور» على النحو الذي جاءت به في المثال الأول ، وأن أهملها - كلما كان الأمر متعلقًا بالاصطلاح السيكولوجي - على النحو الذي جاءت به في المثالين الأخيرين . وهنا

يجدر بنا أن نتكلم عن «الإحساس» عندما يتعلق الأمر بأعضاء الحواس ، وعن «الحدس» إن كنا نتعامل مع نوع الإدراك الذى لا يمكن إرجاعه إلى الخبرة الحسية الواعية . ولذلك عرّفت الإحساس بأنه إدراك يحدث من خلال سياقات الحس الواعية ، والحدس بأنه إدراك يتم بواسطة المحتويات والروابط الخافيّة (= اللا شعورية) .

من الواضح أننا نستطيع أن نتجادل إلى يوم القيامة حول صلاحية هذه التعريفات ، لكن الجدل يظل يدور فى نهاية الأمر على مسألة الاصطلاحات ليس أكثر . إذ لا يعدو أن يكون الأمر كما لو كنا نتناقش حول تسمية حيوان ما «بوما Puma» أو «أسد الجبل» ، فى وقت يكون كل ما نحتاج إليه هو أن نعرف ما نريد تعيينه بصورة معينة . إن علم النفس ميدان درس لم يجر التنقيب عنه ، ولذا كان لابد من تحديد مصطلحات خاصة به . من المعروف أن درجات الحرارة يمكننا قياسها على طريقة «ريومير» و «لكسيوس» و «فارنهايت» ، لكن يجب علينا أن نبيّن النظام الذي نريد السير عليه .

واضح ، إذن ، إننى أجعل الشعور وظيفة بحد ذاتها وأميزه من الإحساس والحدس . وكل من يخلط هاتين الوظيفتين بالشعور بمعناه الضيق ، فواضح أنه لا يستطيع أن يعترف بما للشعور من صفة عقلية . لكننا حين نفصلهما عن الشعور ، يتضح لدينا أن القيم الشعورية والأحكام الشعورية - أى : مشاعرنا - ليست عقلية وحسب ، وإنما هى

تمييزية ومتماسكة* أيضًا فى مثل تمييز الفكر ومنطقه وتماسكه . تبدو هذه الإبانة غريبة بالنسبة لإنسان من النموذج الفكرى ، لكننا نستطيع أنفهمها عندما يتضح لنا أن الشخص الذى يتمتع بوظيفة فكرية متميزة ، تكون فيه الوظيفة الشعورية أقل نمواً ، وأكثر بدائية ، وبالتالى موبوءة بوظائف أخرى غير عقلية ولا منطقية ولا تقويمية ، وهى الإحساس والحدس .

هاتان الوظيفتان الأخيرتان (وهما الحدس والإحساس) تتعارضان بطبيعتهما مع الوظائف العقلية . فعندما نفكر ، فلكى نحكم على شىء أو لكى نصل إلى نتيجة ، وعندما نشعر فلكى نضفى قيمة خاصة على شىء ؛ أما الإحساس والحدس فوظيفتان إدراكيتان ، لا لأنهم تعرّفاننا بما يجرى ، من دون تفسير أو تقويم لما يجرى . وهما لا تعملان انتقائيًا وفقًا لمبادىء ، وإنما تتلقيان ما يجرى ليس أكثر . لكن «ما يجرى» إن هو إلا الطبيعة ، والطبيعة شأن غير عقلى بصفة أساسية . فليس هناك طريقة استنتاج يمكننا بواسطتها أن نثبت وجود عدد من الكواكب أو عدد من أنواع الحيوانات ذات الدم الدافىء من هذه الفئة أو تلك . ويعتبر الافتقار إلى العقل نقصًا عندما تدعو الحاجة إلى التفكير والشعور ، مثلما يعتبر العقل نقصًا عندما تدعو الحاجة إلى الاعتماد على الإحساس والحدس.

هناك كثير من الأشخاص لا تتصف رجوعاتهم المعتادة بصفة العقلية، لأنها تقوم بصفة أساسية على الإحساس والحدس ؛ لكنها لا تقوم عليهما

معًا فى وقت واحد ، لأن الإحساس يناقض الحدس كما يناقض الفكر الشعور . فعندما أحاول أن أستيقن بعقلى وأذنى مما يجرى فعلاً ، لا أستطيع فى الوقت نفسه أن أستسلم للأحلام والتخيلات بخصوص ما يقبع فى الزاوية . ولما كان هذا هو ما ينبغى للنموذج الحدسى أن يفعله لكى يطلق العنان للخافية أو للموضوع ، كان من السهل علينا أن نرى النموذج الحسى يقف فى القطب المضاد للنموذج الحدسى . لسوء الحظ ، لا يسعنى هنا أن أتناول التنوعات الهامة التى ينتجها الموقف الانبساطى أو الانطوائى فى النماذج غير العقلية .

بدلاً من ذلك ، أفضل أن أضيف كلمة واحدة عن الآثار التى تحدث للوظائف الأخرى بإطراد عندما نعطى الأفضلية لإحداها . نحن نعلم أن الإنسان لا يمكنه أن يكون كل شىء فى وقت واحد ؛ فهو دائمًا ينمّى صفات معينة على حساب غيرها ؛ الكليّة لا يمكن تحقيقها أبدًا . لكن ماذا يحدث للوظائف التى لم تنمّها الممارسة ولم ندعُها إلى الاستعمال اليومى بصورة واعية ؟ هذه الوظائف تبقى على حالة قريبة من البدائية والطفولية، وهى الوظائف غير النامية نسبيًا تشكل نوعًا من النقص يتميز به كل نموذج ، وتشكل جزءًا لا يتجزأ من مجمل الشخصية . التوكيد الأحادى على التفكير يكون مصحوبًا دائمًا بنقص فى الشعور ، والإحساس والحدس المتمايزان مضر أحدهما بالآخر . ويمكننا أن نعرف ما إن كانت وظيفة ما متمايزة أم لا من قوتها ورسوخها وديمومتها ومصداقيتها وخدمتها

للتكيف. لكـن النقص الوظيـفى لا يوصف أو لا يمكن التـعـرف عليـه بسهولة فى الغـالب . المعيار الأساسى هو افتقاره إلى الكـفاية الذاتية وما يترتب على ذلك من اعـتماد على الآخـرين وعلى الظروف ، يضاف إلى ذلك أنه يعرّضنا إلى نوبـات انفعال وحسـاسيات وحـساسيات فى غـير وقتها، وكذلك فـقدانه للمصداقية فضلاً عن غـموضه وجنوحه بنا إلى أن يجعلنا قابلين للإيحـاء . نحن دائمًا عاجزون عن استخدام الوظيـفة الدنيا لأننا لا نستطيع توجيهها ؛ إنما نحن ضحايا فى حقيقة الأمر .

وبما أننى مضطر هنا إلـى صياغة خطوط عـريضة للأفكار الأساسـية لنظرية سـيكولوجـيـة فى النمـاذج ، رأيت - آسفًا - أن أغـفل وصـفًا تفصيليًا للقسمات والأفعال الفردية فى ضوء هذه النظرية . وكانت النتيجة الإجماليـة لعملى فى هذا الميدان حتى الوقت الحـاضر هى تقويم نموذجين عامين يشملان الموقفين اللذين سمّيـتهما الانبساط والانطواء . إلى جانب ذلك ، قمت بصياغة تصنيف رباعى يتـطابق مع وظائف التفكير والشعور والإحـسـاس والحدس . وكل مـن هذه الوظائف يخـتلف فى أدائه تبـعًا لاختلاف الموقف العام ، فينتج لدينا من ذلك أربع تفـريعات . وكثيرًا ما كان يُعترض علىّ بالسـؤال لماذا أتكلم على أربع وظائف لا أكثر من ذلك ولا أقل . أما أن يكون هناك أربع وظائف بالضبـط فهذه مسألة حقـيقية تجريبـية ، والحق إن هذه الـوظائف الأربع تتيح لنا بلوغ نوع من الـكمال كما يدلّنا على ذلك الاعتبار التالى :

فالإحساس يرسخ فى أذهاننا ما يصل إلينا عن طريقه ، والفكر يتيح لنا التعرف بمعناه ، والشعور ينبئنا بقيمته ، والحدس يومىء ، لنا بإمكانيات المصدر والوجهة لما هو كامن فى الوقائع المباشرة بهذه الطريقة ، يمكننا أن نوجه أنفسنا تجاه العالم المباشر بصورة كاملة كما لو كنا نعين موقعًا جغرافيًا بواسطة خطوط الطول والعرض . تشبه الوظائف الأربع جهات البوصلة الأربع من بعض الوجوه ، فهى مثلها اعتباطًا ، وهى مثلها ضرورة . لا شىء يمنعنا من نقل الجهات الأصلية عددًا من الدرجات على حسب ما يحلو لنا إلى هذه الجهة أو تلك ، كذلك لا شىء يمنعنا من أن نعطيها أسماء مختلفة . فالمسألة مسألة اتفاق وقابلية للفهم ليس أكثر .

لكن لابد لى من الاعتراف بأننى لا أريد التخلى عن هذه البوصلة فى رحلات اكتشافاتى السيكولوجية ، مهما كان الثمن . ليس لمجرد ذلك السبب البيّن المسرف فى بشريته ، وهو حبّنا لأفكارنا ، وإنما لأننى أقوّم نظرية النماذج انطلاقًا من سبب موضوعى هو ما تقدمه لنا من نظام للمقارنة والتوجيه يجعل فى الإمكان شيئًا طالما افتقرنا إليه ألا وهو : السيكولوجيا النقدية .

الفصل الخامس

مراحل الحياة

يعتبـر البحث فى المشاكل المتعلقة بالمراحـل التى يمر بها الإنسان فى نموّه من أصعب المهام وأعقدها ؛ لأن ما تعنيه لا يقل عن نشر ما انطوت عليه صورة الحياة النفسية فى كليّتها من المهد إلى اللحد . وفى هذا النطاق الضيق من هذا المقال ، لا يمكننا القيام بهذه المهمة إلا بالخطوط العريضة، وينبغى أن يكون مفهومًا تمامًا أننا لن نحـاول وصف الحوادث النفسية فى مختلف المـراحل ؛ بل سنقتصر على مـعالجة مشاكل بعـينها ؛ أى على الأشياء الصـعبة التى تبعث على الـشك وتتسم بالغموض ؛ باخـتصار ، على المسائل التى تسـمح لنا بأكثر من جواب ؛ بل تسـمح لنا بأجوبة هى عرضـة للشك على الدوام . ولهذا سوف يكون لدينا الكثـير مما يجب أن نضيف إليه علامة اسـتفهام فى أذهاننا . ولعل الأدهى من ذلك أن يكون لدينا أشيـاء ينبغى لنا التـسليم بها عن إيمان ، بينما ينبـغى لنا أن نطلق لأفكارنا العنان حينًا بعد آخر .

لو كانت الحياة النفسية مؤلفة من حوادث ظاهرة للعيان فقط - وهو الذى لم يزل عليه الحال فى المستوى الابتدائى - إذن لاكتفينا باعتماد المنهج التجريبى اعتماداً لا هوادة فيه . لكن الحياة النفسية عند الإنسان المتمدن باتت حافلة بالمشاكل إلى حد أننا لم نعد نستطيع التفكير إلا فى صيغة المشاكل ، ثم إن سياقاتنا النفسية باتت مكوّنة من أفكار وشكوك وتجارب تكاد أن تكون جميعها غريبة تمامًا عن الإنسان البدائى وعقله الفطرى الخافى (= اللا شعورى) . إن نشوء الواعية هو ما ينبغى أن نرد إليه وجود المشاكل ؛ فالواعية هبة مريبة وهبتنا إياها المدنية . وما خلق الواعية فى الإنسان سوى ابتعاده عن الفطرة ، ومعارضته فطرته بنفسه . فالفطرة هى الطبيعة ، وهى تسعى إلى تأبيدها واستدامتها . أما الواعية فلا تنشد إلا الثقافة أو التنكر للطبيعة . وحتى حين نرجع إلى الطبيعة ، بتأثير من حنين جان جاك روسو ، فإنما «نثقف» الطبيعة . وما دمنا غارقين فى الطبيعة فنحن غير واعين ونعيش فى أمان الفطرة التى لا تعرف المشاكل . كل شىء فينا ، مما لم يزل من الطبيعة ، ينفر من المشاكل ، لأنه تثير فينا من الشكوك ما لو استحكم لانعدم بإزالة اليقين ونهض احتمال لتفرق السبل . وحيثما تفرقت بنا السبل أو تعددت ، ابتعدنا على هَدْى الفطرة ويقينها ، وأسلمنا أنفسنا إلى الخوف . وعندئذ تصبح الواعية مدعوة إلى القيام بما كانت تقوم به الطبيعة دائمًا حيال أبنائها - أى لتعطينا القرار اليقين الذى لا يتطرق إليه شك أو التباس - وهو الغزو البروميثى - وتحل محل الطبيعة فى القيام بخدمتنا فى نهاية الأمر .

وهكذا تجذبنا المشـاكل إلى حالة من اليتم والعزلة حـيث تتخلى عنا الطبيعة وتقودنا إلى الوعى . ليس أمامنا باب مفتوح آخر ؛ وعندئذ نجدنا مضطرين إلى إتخاذ القرارات واعـتماد الحلول على حين كنا من قبل نكل أنفسنا إلى الحوادث الطبيعية . ولذلك كانت كل مشكلة تعترضنا تتيح لنا إمكانية اتساع الواعية . لكنها تـضطرنا أيضًا إلى وداع خافية الطفولة وما كان يترتب عليها من اعـتماد على الطبيعة . هذا الاضطرار حقيـقة نفسية لها من الأهميـة ما جعل منها أحـد التعاليم الأساسيـة الرمزية فى الديانة المسيحية ؛ وهى التضحية بالإنسان الطبيعى الصرف ، أى بالكائن الساذج غيـر الواعى الذى بدأ حياته المأسـاوية بأكل التفاحـة من الفردوس . إن سقوط الإنسـان الذى ترويه التوراة يظهر انبثاق فـجر الوعى على أنه لعنة والحق إننا فى هذا الضوء ننظر إلى كل مشكلة تجبرنا على مزيد من الوعى وتبعدنا عن فردوس الطفولة غير الواعية . من منا من لا يحلو له التهرب من مـشاكله ؛ ولو أمكنه الامـتناع عن ذكـرها لامتنع ، بل لأنكر حـتى وجودها . بودنا لو نجـعل حياتنا بسيطة ، أكـيدة ناعمة - ولهـذا السبب عدت المشاكل من المحرمـات (= تابو) . وإننا نتخيّر اليقين على الشك ، والنتـائج على التـجارب ، حـتى بدون أن نرى أن اليـقين لا ينشـأ من الشك، والنتـائج إلا من التجـارب. والحق إن التنكر للمـشكلة لا يورثنا القناعة ؛ وإنما تتطلب منا وعيًا أكبر وأعلى يمنحنا اليقين والوضوح اللذين نحتاج إليهما .

هذه المقدمة ، على طولها ، ضرورية لكى نبين طبيعة الموضوع الذى نتناوله ، وعندما يتعين علينا أن نعالج المشاكل ، لجدنا مضطرين بالغريزة إلى رفض تجربة الطريق الذى يفضى بنا إلى الظلام والغموض . لا نريد أن نسمع إلا النتائج التى لا يشوبها التباس ، ونريد أن ننسى تمامًا أن هذه النتائج لا يمكن حصولها إلا إذا أدلجنا فى الظلام ثم خرجنا منه . ولكى ندلج فى الظلام لابد لنا من أن نستجمع جميع قوى النور التى تتيحها لنا الواعية ؛ أى نطلق العنان لتأملاتنا ، كما سبق أن قلت . ذلك أننا فى معالجتنا لمشاكل الحياة النفسية نقع دائمًا على مسائل مبدأ ، تعود إلى الميادين الخاصة بأكثر فروع المعرفة اختلافًا ، فنزعج رجل اللاهوت ونغضبه بما لا يقل عن إزعاجنا للفيلسوف وإغضابه ، والطبيب بما لا يقل عن المعلم ، بل إننا نتلمس لنا طريقًا فى ميدان العالم البيولوجى والمؤرخ. هذا المسلك المسرف لا ينبغى لنا أن نرده إلى غطرستنا ، بل إلى كون النفس البشرية مركبًا فريدًا من عوامل تشكل بدورها موضوعات خاصة ذات خطوط من البحث بعيدة المدى . ذلك أن الإنسان ينتج علومه من نفسه ومن تكوينه المميز . فهى أعراض من نفسه .

ولذلك لو سألنا أنفسنا السؤال الذى لا مفر لنا منه «لماذا كان للإنسان مشاكل من دون الحيوان ؟» ، لدخلنا فى شبكة لا انفكاك منها من الأفكار التى تفتقت عنها أذهان الآلاف من أصحاب المواهب العالية على مر القرون . لن أقوم بأعمال «سيزيف» حيال هذه المربكة ؛ وإنما

سأحـاول أن أدلى بدلوى فى جـملة محـاولات الإنسان الإجـابة عن هذا السؤال الأساسى .

لا مشكـلة بلا وعى . ولذلك ينبغى لنا أن نصـوغ السؤال بطـريقة أخرى : كيف ينشأ الوعى ؟ ما من أحد يستطيع أن يجيب الجواب اليقين عن هذا السؤال ؛ وإنما بوسـعنا ملاحظة الأطفال الصغـار وهم فى سياق اكتسابهم للوعى . بوسع كل من الوالدين أن يرى ذلك لو أعاره انتباهًا. وهذا ما نستطيع مـلاحظته : عندما «يعرف» الولد شخصًا أو شـيئًا نشعر أن قـد صـار عنده وعى . ولا شك أن هذا يفـسـر لنا لماذا حـملت إلينا شجرة المعرفة فى الفردوس مثل هذه الثمرة المشؤومة .

لكن ما هى المعرفة بهذا المعنى ؟ نقول إننا «نعرف» شيئًا عندما نوفّق إلى ربط مفهوم جديد بسياق قـائم من قبل بطريقة تجعلنا نضع فى واعيتنا لا المفهوم الجـديد وحده ، بل سياقه أيضًا . ولذلك تقـوم «المعرفة» على رابطة واعيـة فيما بين المحتـويات النفسيـة . لا معرفة بلا ربط فـيما بين المحتويات ، لأننا يمتنع علينا عندئذٍ أن نعيها . أول طور من أطوار الوعى يمكننا ملاحظتـه يتألف من مجرد الربط بين مـحتويين نفسـيين أو أكثر . وعند هذا المستوى ، تكون الواعية شيئًا متفرقًا ليس أكثر ، باعتبار أنها لا تمثل إلا بضع روابط ؛ وأمـا المحتـوى فـلا نستـذكره بعـد ذلك . ومن الحقـائق المقررة أن الذاكـرة المتصلة لا وجود لهـا فى السنوات الأولى من الحيـاة ؛ وفى أفضل الأحوال ، لا يوجـد إلا جزر من الواعـية أشبـه ما

تكون بمصابيح منفردة ، أو أشياء مضيئة ، فى أعماق الظلام . لكن هذه الجزر من الذاكرة ليست هى نفس الروابط الأولية فيما بين المحتويات النفسية ؛ إنها تحتوى على شىء أكثر وشىء أجدّ . هذا الشىء هو هذه السلسلة البالغة الأهمية من المحتويات النفسية التى تشكل ما ندعوه «الأنا» أو «الأنيّة» . والأنيّة – شأنها كشأن سلسلة المحتويات الأولية تمامًا – إنما هى موضوع فى الواعية ، ولهذا السبب يتحدث الطفل عن نفسه فى بادئ الأمر بصورة موضوعية ، بصيغة الغائب . . ولا ينشأ الشعور بالذاتية إلا فى وقت متأخر ، بعد أن تكون المحتويات الأنيّة قد شحنت بطاقة خاصة بها (ويحتمل جدًا أن يكون هذا نتيجة للدُربه والمران) . ولا شك أن هذه هى اللحظة التى يبدأ فيها الطفل بالتحدث عن نفسه بصيغة المتكلم . عند هذا المستوى تتشكل بداية الذاكرة المتصلة . ولذلك هى استمرار للذكريات الأنيّة بصفة أساسية .

فى المرحلة الطفولية من الوعى ليس ثمة من مشكلة ؛ لا شىء يتوقف على الذات ، لأن الطفل نفسه يظل يعتمد كليًا على أبويه . فكأنه لم يولد بعد تمامًا ، بل يظل محاطًا بجو أبويه النفسى . إنما تحدث الولادة النفسية ، ومعها الشعور بتميز الأنيّة عن الأبوين ، فى مجرى الأشياء الطبيعى ، فى سن المراهقة وما يرافقها من انفجار فى الحياة الجنسية . فالتغير الفيزيولوجي يصاحبه تغير نفسى (ثورة نفسية) . ذلك أن مختلف الظواهر الجسمانية تمنح الأنيّة نوعًا من التوكيد يجعلها تؤكد نفسها بدون حدّ ولا قيد . وهذا ما يسمى أحيانًا بـ «السن التى لا تطاق» .

حتى بلوغ هذا الطور تظل حياة الفرد النفسية محكومة بنوازع الغريزة ولا تصادف من المشاكل إلا أقلها ، أو هى لا تصادف مشاكل على الإطلاق . وحتى حين تعترض القيود الخارجية سبل النوازع الذاتية ، لا تجعله هذه القيود فى نزاع مع نفسه . إنه حتى الآن لا يعرف حالة التوتر الداخلى الذى تجلبه المشكلة . ولا تنشأ هذه الحالة من التوتر إلا عندما يصبح القيد الخارجى عقبة داخلية ؛ أى عندما يتعارض مع نازع آخر . وباعتماد المصطلح السيكولوجى : الحالة التى تثيرها المشكلة - حالة أن يكون المرء فى نزاع مع نفسه - إنما تنشأ عندما تظهر إلي الوجود ، إلى جانب سلسلة المحتويات الأنيّة ، سلسلة ثانية تساويها فى الشدة . لهذه السلسلة الثانية ، بما تشتمل عليه من طاقة ، أهمية وظيفية تساوى أهمية العقدة الأنيّة ، حتى ليمكننا أن ندعوها «أنيّة ثانية» ، إذ تستطيع فى حالة معينة أن تنتزع القيادة من الأولى . إن من شأن هذا أن يُحدِث ابتعاداً عن النفس ؛ وهو الحالة التى تنذر بوقوع المشكلة .

نوجز ما تقدم بما يلى : الطور الأول من الوعى يتكون من التعرف أو المعرفة هو حالة من الفوضى أو العماء . والطور الثانى ، وهو طور نشوء العقدة الأنيّة ، هو طور الأحادية ، أما الطور الثالث فهو خطوة أخرى نحو الوعى ، ويتكون من معرفة المرء نفسه بحالته المنقسمة ، وهو طور الثنائية أو الازدواجية .

وهنا نبدأ موضوع بحثنا ، وأعنى به مسألة مراحل الحياة وأطوارها . قبل كل شيء ، ينبغي لنا أن نتناول مرحلة الشباب . وتمتد هذه المرحلة بصورة تقريبية ابتداء من السنوات التى تعقب سنىّ المراهقة مباشرة حتى منتصف العمر ، الذى يمتد بدوره بين سن الخامسة والثلاثين وسن الأربعين .

ورب سائل يقول لماذا اخترت البدء بالمرحلة الثانية من الوجود البشرى . أليس فى سن الطفولة مسائل صعبة ؟ والحق إن حياة الطفل النفسية المعقدة مشكلة فى الدرجة الأولى من الأهمية فى نظر الآباء والمعلمين والأطباء . لكن الطفل إن كان سوياً فليس عنده مشاكل حقيقية خاصة به . إنما تنشأ المشاكل عندما يشب الكائن البشرى عن الطوق وتخامره الشكوك حول نفسه ويغدو فى نزاع معها .

نحن جميعًا نعرف حق المعرفة من أين تنشأ المشاكل فى مرحلة الشباب . فمطاليب الحياة بصورة عامة تضع حداً لأحلام الطفولة لدى غالبية الناس ، فإن كان الفرد قد أعد إعدادًا كافيًا ، كان انتقاله إلى الحياة المهنية انتقالاً هادئًا . أما إذا كان متعلقًا بأوهام تتناقض مع الواقع ، فلا مفر عندئذ من وقوع المشاكل . ما من أحد يخطو خطوة فى هذه الحياة إلا وعنده مسلّمات معينة - وقد تكون هذه المسّلمات خاطئة أحيانًا ؛ أى ربما كانت لا تتناسب مع الظروف التى يجد المرء فيها ؛ وهى غالبًا ما تكون تمنيات أو آمالاً بولغ فيها ، أو مصاعب قللنا من أنها ، أو تفاؤلاً ليس له

ما يسوّغه ؛ أو قـد تكون موقفًا سلبيًا . وبإمكاننا إعداد قـائمة بالمسلمات التى كانت سببًا فى أولى مشاكل الوعى .

لكن المشـاكل لا تنشـأ دائمًا عن التـضـارب بين المسلمـات الذاتيـة والوقائع الخارجية وحـسب ، وإنما قد ينشأ أيضًا عن اضطرابات داخلية ، مثلما هو عليـه الحال فى الغالب . فقد تنشأ حـتى حين تجرى الأمور فى العالم الخارجى بصورة طبيعية تمامًا . إذ غالبًا ما تنشأ المشاكل عن اختلال في التـوازن النفسى سـببـه الدافع الجنسى ؛ وربما يسـاوى الدافعَ الجنسى الشعورُ بالنقص الذى ينبع من حساسية مفرطة .

وقد توجـد هذه الصعوبـات الداخلية حتى يكون التكـيف مع العالم الخارجى قد تحقق بدون جديد ظاهر ؛ بل وحتى حين يبدو الشباب الذين اضطروا إلى خوض كفـاح مرير فى سبيل الوجود لا يعـانون من مشاكل داخلية ، علـى حين أن الذين كان تكيفـهم ، لهذا السـبب أو ذاك ، قد جرى رخواً رهواً ، يعـانون من مشاكل جنسيـة أو من نزاعات نشأت عن شعورهم بالنقص .

ومن الناس من لهم أمزجـة خاصة تخلـق لهم المشاكل ؛ وهؤلاء ، فى الغالـب ، أناس مـعـصوبون (= مصابون بالعـصاب) . لكن من سوء الفهم الخطير خلط هذه المشاكل بالعُصاب . فثمة فرق كبير بين الاثنين : المعصوب مريض لأنه يجهل مشاكله ولا يعرف بها ، بينما صاحب المزاج يعانى من مشاكل يعرفها ويشعر بها ، لكن دون أن يكون مريضًا .

ولو نحن ذهبنا نحاول استخلاص العوامل الأساسية التى تتفرع عنها المشاكل التى نجدها فى طور الشباب ، لوجدنا فى جميع الحالات سمة خصوصية : تعلقًا متفاوت الظهور بالمستوى الطفولى من الوعى ، وتمردًا علي القوى الحاسمة فينا وفيما حولنا ، التى تميل إلى زجّنا فى العالم . إن شيئًا فينا يريد أن يظل طفلاً ، أو غير واعٍ ، أو واعيًا - فى أبعد الأحوال - على الأنيّة فقط ؛ هذا الشيء لا يريد منا أن نفعل شيئًا أن ننغمس فى شهوتنا إلى اللذة أو السلطة . نلاحظ فى هذا الميل شيئًا أشبه ما يكون بعطالة المادة ، وهو أن نبقى على حالة ، ما زالت موجودة حتى الآن ، ذات مستوى من الوعى أصغر من الوعى فى طور الثنائية أو أضيق أو أكثر أنيّة منه . ذلك أن الإنسان فى هذا الطور مضطر لأن يعترف ويقبل ما هو مختلف وغريب عنه وأن يعتبره جزءاً من حياته بالذات ، نوعًا من «وأنا - أيضًا» أو من «وأنا - كمان» ! .

إن اتساع أفق الحياة هو السمة الأساسية فى طور الثنائية الذى نتصدى له بالمقارمة . ومن الثابت أن هذا الاتساع يبتدىء قبل زمن هذه المرحلة ؛ فهو يبتدىء عند الولادة ، فى اللحظة التى يغادر فيها الجنين رحم أمه الضيقة ، ثم يأخذ فى الاتساع شيئًا فشيئًا حتى يبلغ نقطة حرجة من تلك المرحلة عندئذٍ يبدأ بمقاومته بعد أن تحدق به المشاكل من كل جانب .

ماذا يحدث لو تغير هذا الإنسان وصبح تلك «الأنيّة الأخرى» الغريبة ، بعد أن تكون «الأنيّة الأولى» قد تلاشت فى غيابة الماضى ؟

ولعلنا نجسب هذا الأمر قابلاً للحدوث . والحق إن الهدف الحقيقى من التعليم الدينى ، بدءاً من الحض على التخلص من «آدم القديم» ، رجوعاً فى الزمان إلى طقوس الولادة الجديدة لدى الأقوام البدائية ، إنما هو تحويل الكائن البشرى إلى إنسان مستقبلى جديد ، وتهيئة فرص الانقراض أمام أشكال الحياة القديمة .

يعلمنا علم النفس أنه ،بمعنى ما ، لا يوجد فى النفس شىء قديم، وفى نفس الوقت لا شىء يتلاشى نهائيًا فى الواقع . حتى القديس بولس لم يُترك بدون شوكة فى الجسد . ومن يقِ نفسه من الجديد والغريب وينكفىء إلى الماضى ، يقع فى نفس الحالة العُصابية التى يقع فيها من يتواحد مع الجديد ويهرب من الماضى . والفرق الوحيد بينهما أن أحدهما انفصل عن الماضى ، والآخر انفصل عن المستقبل . من حيث المبدأ ، كلاهما يفعل نفس الشىء ؛ كلاهما ينقذ حالة ضيقة من الوعى . والخيار هو كسر هذه الحالة بواسطة التوتر الكامن فى اصطراع الأضداد - فى طور الثنائية - وعندئذٍ تنشأ حالة من الوعى أوسع وأرقى .

لو أمكن الوصول إلى هذه النتيجة فى المرحلة الثانية من الحياة لكان الأمر مثاليًا - لكن هنا المشكلة ، لسبب واحد هو أن الطبيعة لا تهتم أبدًا بمستوى أعلى من الوعى ؛ إنما الأمر عندها هو على العكس من ذلك . ثم إن المجتمع لا يقدر تقديراً عاليًا هذه المآثر التى تجرى فى داخل النفس،

فهـو يمنح جوائزه دائمًا للأعـمال لا للأشخـاص - هؤلاء يُكافؤون ، فى القـسم الأعظم ، بـعـد الموت . وإن كـان الأمـر كـذلك ، كـان الحل المخصـوص لهذه المشكلة أمرًا اضطـراريًا : نحن مضطرون إلى الاقتـصار على ما هو فى متناولنا وإظهار استعدادات مخصوصة ، لأننا بهذه الطريقة نستطيع اكتشاف وجودنا الاجتماعى .

العـمل والمنفعـة وما أشـبـه ذلك هـى المثل العليـا التى يبدو أنهـا تنتشلنا من اختلاط المشاكل المتـزاحمة ؛ وربما تكون هى نجمنا القطبى فى مغامرة امتداد وجودنا النفـسى وتصليب عوده ، ولعلها تعيننا على ضرب جذورنا فى العالم ؛ لكنها لا تستطيع أن تفضى بنا إلى تنمية واعيتنا التى أعطيناها اسم الثقـافة . على أى حال ، إن هذا هو المجرى الطبـيعى فى طور الشـباب ، وهو فى جميع الظروف خيـر من التخـبط فى مُضطَرَب المشاكل .

ولذلك يتم حل المشـكلة على الوجـه التـالى : كل مـا يعطينا إياه الماضى يتكيف تبعًا لإمكانيات المسـتقبل ومتطلباته ، فنقتـصر على ما هو فى متناولنا ؛ وهذا يعنى أننا نستبعد جميع الإمكانيات الأخرى : فالإنسان يفقد جـزءًا قيّمًا من ماضيه ، وآخـر جزءًا قيّمًا من مستـقبله . وما منا لا يتذكـر أصدقاء له أو زمـلاء دراسة كانوا يبشرون بمسـتقبل مـثالى حين يصيرون فى سن الشـباب ، ولكن عندما التقينا بهم فـيما تلا من السنين

وجدناهم قد يبس عودهم وانحصروا فى قالب ضيق . هؤلاء أمثلة على الحل الذى أشرنا إليه .

غير أن المشاكل الخطيرة فى الحياة لا تنحل بصورة نهائية أبداً ، وإذا بدت لنا أنها كذلك ، كان معنى ذلك أننا أضعنا شيئًا . إن معنى المشكلة وتصميمها لا يكمن فى حلها ، وإنما فى العمل الدائب على حلها ، وهذا وحده يحفظنا من السخف والتحجر . وهذا ينطبق أيضًا على حل المشاكل المتعلقة بطور الشباب ، وهو الحل الذى ينهض على الاقتصار على ما هو فى متناولنا ؛ لكن مفعوله غير دائم ولا يسرى إلا مؤقتًا بمعنى أعمق . طبعًا ، أن نحتل مكانة فى المجتمع ، وأن نغير من طباعنا تغييراً يتلاءم كثيراً أو قليلاً مع هذا الوجود ، لهو عمل بالغ الأهمية فى كل الأحوال . إنه صراع نخوضه مع أنفسنا كما نخوضه مع العالم الخارجى ، وهو أشبه ما يكون بصراع الطفل دفاعًا عن أنيّته . ويجب أن نسلم بأن هذا الصراع غير ملحوظ ف معظمه لأنه يحدث فى الظلام ؛ غير أننا عندما نرى أوهام الطفولة وسوابق أفكارها وعاداتها الأنانية كيف تظل تتشبث عنيدةً فيما يليها من السنين - عندئذٍ ندرك مدى الجهد الذى بذلته فى تكوينها . ثم إن هذا ينطبق أيضًا على المثل العليا والمعتقدات والأفكار التى ترشدنا وعلى المواقف التى نخرج بها إلى الحياة - التى فى سبيلها نقاتل وفى سبيلها نتألم ونحرز الانتصارات : إنها تنمو بنمونا ، حتى إنها لتصير إيّانا ظاهريًا ، لذلك نؤبّدها مسرورين ونعدها من الأمور

البديهية ، تمامًا مثلما يؤكد الطفل أنيّته فى وجه لعالم رغم أنفه - وأحيانًا على رغم أنف نفسه ! .

كلما دنونـا من منتصف العمـر ، وأفلحنا فى تحصين أنـفسنا داخل منطلقاتنا الشخصية ومركزنا الاجـتماعى ، بدا الأمر لنا كما لو أننا عرفنا الطريق الصحيح والمثل العليـا ومبادىء السلوك القويم ، فنحسبـها صالحة للأبد ، ونجعل من التـمسك بها إحدى فضـائلنا . نحن نغضى كليًا عن الحقيـقة الأساسية ، وهى أن المآثر التى يكافـئنا عليها المجتـمع إنما نجنيها على حسـاب الانتقاص من شخـصيتنا . إن جـوانب كثيرة من الحـياة ، وكان ينبغى لنـا أن نختبرها ، تظل قابعـة فى بيت المؤونة بين الذكريات التى تراكم عليها الغـبار . حتى إنها لتكون فى أكثر الأحـيان نارًا موقدة تحت الرماد .

تظهـرنا الجـداول الإحصـائيـة على زيادة تكرار حـالات الكآبة عند الرجال الذين بلغـوا سن الأربعين أو دَنَوا منها . أما النساء فـتبدأ عندهن المتاعب العصابية بوجه عام فى سن مبكرة بعض الشىء . فى هذه المرحلة من الحياة - بين الخـامسة والثلاثين والأربعين - نرى فى النـفس البشرية تغيرًا كبـيرًا يجرى إعداده . فى أوله ، لا يكون التغيـر شعوريًا ظاهرًا ، بل علامـات غير مبـاشرة على تغير يبـدو أنه يصعد من الخافـية (= اللا شعور) . وفى الغالب يكون أشبه بتغـير بطىء فى شخصية الفرد ، وفى حالات أخرى ربما تعود إلى الظهور ملامح بعـينها كانت اختفت منذ سن

الطفولة ؛ أو تبدأ تضعف بعض الميول والاهتمامات ، لكى تنهض ميول واهتمامات أخرى تحل محلها . كذلك كثيراً ما يحدث أن تتصل المعتقدات والمبادىء التى سلمنا بها حتى ذلك الحين وتقسو إلى حد تصل معه إلى التعب وعدم التسامح ؛ وهذا يحدث عند نقطة ونحن ندلف إلى الخمسين . عندئذٍ يبدو الأمر لنا كما لو أن وجود هذه المبادىء قد تعرّض للخطر ، فيصبح من الضرورى تثبيتها وتقويتها .

نبيذ الشباب لا يظل صافيًا مع تقدم السن ، بل غالبًا ما يتكدّر صفوه. وبوسعنا أن نرى جميع المظاهر التى ذكرناها لتوّنا تطفو إلى الأعلى عاجلاً أحيانًا وآجلاً أحيانًا أخرى ، وهى على أوضح ما تكون عند الأحاديين . وعندى أن تأخر ظهورها غالبًا ما يرجع إلى بقاء الأبوين على قيد الحياة . وعندئذٍ تكون الحال كما لو أن فترة الشباب قد استمرت على خلاف الأصول . لقد عانيت هذا بصورة خاصة فى حالات أناس عمر آباؤهم طويلاً ، حتى إذا مات الأب كان لموته فعل النضج السابق لأوانه الذى كاد أن يكون أمراً مفجًا .

أعرف رجلاً تقيًا كان يعمل راعى كنيسة ؛ لما جاوز الأربعين أخذ يبدى تشدداً لا يطاق فى أمور الأخلاق والدين ، وصار فى نفس الوقت حادّ المزاج بشكل ظاهر ؛ ثم أمسى ليس أكثر من «عمود الكنيسة» المنخفض القابع فى الظلام . وظل ماضيًا على هذا المنوال حتى بلغ الخامسة والخمسين حين استيقظ فجأة فى إحدى الليالى وقال لامرأته :

«الآن عرفت أخيراً . . ما أنا في الحقيقة إلا وغد !» لكن هذه المعرفة الذاتية لم تبق بدون آثار . لقد أنفق سنيّ عمره الأخيرة في حياة صاخبة بدّد فيها شطراً كبيراً من ثروته . من الواضح أنه شخص ظريف جداً ، قادر على الاستقصاء في كلا الاتجاهين .

إن لتكرار الاضطرابات العُصابية هذه السمة العامة كلما تقدم العمر بالإنسان : تفضح محاولة نقل الميول النفسية الشبابية إلى ما وراء وصيد سن التمييز ، مَن منا لا يعرف أولئك الشيوخ الظرفاء الذين ألزموا أنفسهم دائماً بتسخين طبق أيام الدراسة وإيقاد شعلة الحياة في ذكريات بطولة أيام الشباب ويلتزمون جهالةً ميؤوساً منها فيما تبقى لهم من العمر؟ هؤلاء ليسوا بمعصوبين ، بل ثقيلون متجمدون . لأن المعصوب شخص لا يستطيع أبداً أن تكون له الأشياء كما يريد أن تكون في الحاضر، فهو بالتالي لا يستطيع أن يستمتع بالماضي أبداً .

والمعصوب كما أنه لم يستطع أن يتهرب من الطفولة فيما مضى ، كذلك هو الآن لا يستطيع أن يتخلى عن الشباب ؛ إنه يخاف من الأفكار الرمادية التي تشعره بتقدم سنّه ؛ وهو إذ يشعر بأن المستقبل أمامه أمر لا يُحتمل . نجده يجهد دوماً لأن ينظر إلى الخلف . وكما أن الشخص الطفولي يخشى من المجهول في العالم وفي الوجود البشري ، كذلك يخشى من تقدمت به السن النصف الثاني من الحياة ؛ إذ يبدو له الأمر كما لو أن مهمات مجهولة تحف بها المخاطر مطلوب منه أن يقوم بها ، أو

كما لو أن حيـاته تبدو له حتى الآن حياة جميلة غـالية لا يمكنه الاستغناء عنها .

ألعله - في العـمق - خـوف من الموت ؟ إن هذا لا يبـدو لى أمـرًا محـتملاً جـدًا ؛ لأن الموت لم يزل بعيدًا ؛ ولذلـك لا ينظر إليه إلا فى ضوء مفهوم تجريدى . تُظهرنا الخـبرة على أن الأساس والسبب فى جميع صعـوبات هذه النقلة إنما يكمنان فى تغيـر عميق ومميـز يحدث فى داخل النفس . ولكى أصف هذا التغير أشبهه بمجـرى حركة الشمس اليومية - لكنها شمس لها مشاعر الإنسـان وواعيته المحدودة . فى الصباح ، تشرق الشمـس من قلب بحر الليل ، بحـر الخافـية (اللاشعـور) ، وتطل على العالم المتألق الذى يمتد أمامها على مـسافة تتسع باطّراد كلما علت فى كبد السماء . وهى ، إذ توسّع ميدان فعلهـا كلما علت ، تدرك أهميتها وترى أن هدفهـا هو الوصول إلى أعلـى ارتفاع ممكن حتـى تُشيع بركاتهـا على أوسع نطاق . بهـذا الإيمان تواصل سيـرها غـير المؤمل حـتى تصل إلى السمت ؛ وهـو سير غـير مؤمّل لأن سـرعتـه وحيدة فـريدة ، ولا يمكن احتـساب أعلى نقطة فيه مـقدمًا . حتى إذا كـان الظهر بدأت بالنزول . والنزول معناه عكس الأهداف والقيم التى كانت عزيزة غالية عند الصباح؛ وعندئذٍ تقع الشمس فى تناقض مع نفسها ، حتى ليُمسى الأمر كما لو أن عليها أن تسحب أشعـتها إلى الداخل بدلاً من إصدارها ، فلم يلبث النور والدفـء حى يخفتا وينطفئا فى نهاية المطاف .

كل تشبيه أعرج ؛ وهذا التشبيه لا يقل عرجًا عن غيره . ثمة حكمة فرنسية توجز لنا ذلك فى نوع من الإذعان الساخر : ليت الشباب يدرى، وليت الشيخوخة تقدر ! .

لحسن الحظ ، نحن البشر لسنا شموسًا تطلع وتغيب ، وإلا لكُنّا رحلنا بعيدًا عن قيمنا الثقافية . إلا أن فينا شيئًا يشبه الشمس ؛ فالكلام عن الصباح والربيع ، وعن المساء والخريف ، ليس مجرد رطانة عاطفية . فنحن بهذا لا نعبر عن حقيقة سيكولوجية وحسب ، وإنما عن حقيقة فيزيولوجية أيضًا ؛ ذلك لأن الانقلاب عند الظهيرة يغير حتى من صفاتنا الجسمانية . ويمكننا أن نلاحظ عند شعوب الجنوب بصفة خاصة أن المرأة العجوز يخشن ويعمق صوتها ويطرّ شاربها وتقسو ملامح وجهها وتتسم بغير ذلك من سمات الذكورة . كما نلاحظ ، من ناحية ثانية ، أن الطبيعة المذكرة عندهم تخفف منها ملامح أنثوية كالسمنة ونعومة قسمات الوجه .

فى الأدب الأثنولوجى حكاية تروى عن قائد حرب هندى لما بلغ منتصف العمر ظهر عليه «الروح الأعظم» فى المنام وطلب منه منذ ذلك الحين فصاعدًا أن يجلس بين النساء والأطفال ، وأن يرتدى ملابسهن ويأكل من طعامهن ؛ فامتثل للأمر بدون أن يفقد شيئًا من هيبته . إن هذه الرؤيا تعبر تعبيرًا صادقًا عن الانقلاب النفسى الذى يحدث للإنسان فى ظهيرة الحياة ، أوعند بداية انحدارها . فقيم الإنسان ، بل وحتى جسمه ، كل ذلك يميل إلى الخضوع للانقلاب نحو النقيض .

يمكننا تشبيه الذكورة والأنوثة ومكوناتهما النفسية بمخزن استنفدت منه في النصف الأول من الحياة مقادير غير متساوية. فالرجل يستنفد مخزونًا ضخمًا من مادة الذكورة، ويتعين عليه الآن أن يستعمل القليل الباقي من مادة الأنوثة. وما يجري مع المرأة هو العكس تماما، فهي تتيح لمخزونها المهمل من مادة الذكورة أن ينشط في أواخر أيامها.

وترجح كفة هذا التحل في مجال النفس بأكثر من رجحانها في مجال الفيزياء. فكثيرا ما يصادفنا امرؤ في الأربعين أو الخمسين يترك عمله وتقوم امرأته بارتداء البنطلون وتفتح حانوتًا صغيرًا تؤدي فيه أعمالاً تتطلب منها مهارة يدوية في بعض الأحيان. ومن النساء من لا يكترثن بالمسؤولية الاجتماعية ولا يستيقظ فيهن الوعي الاجتماعي إلا بعد سن الأربعين. ولقد بات من الشائع جدًا في الحياة العملية الحديثة ـ ولاسيما في الولايات المتحدة أن يحدث للناس انهيار عصبي في سن الأربعين أو بعده. ونحن لو درسنا ضحايا هذا الانهيار عن كثب لوجدنا أن الشئ الذي انهار إنما هو الأسلوب المذكر في الحياة الذي ظل يحتل الساحة حتي الآن؛ وأما الباقي فرجل مؤنث. وفي الاتجاه المعاكس يمكننا ملاحظة النساء في نفس هذه المجالات من العمل وقد نمين في الصف الثاني من الحياة ذكورة غير شاسعة وصرامة تلقي المشاعر والقلب علي قارعة الطريق. وما أكثر ما يكون هذا الانقلاب مصحوبًا بجميع أنواع الكوارث الزوجية؛

إذ ليس من الصعب أن نتصور ما يحدث عندما يكتشف الزوج مشاعره الرقيقة ، والزوجة ذكاءها الحاد .

ولعل أسوأ من هذا كله أن تكون هذه الميول عند أناس مثقفين وأذكياء لكنهم لا يعرفون شيئًا حتى عن إمكانية حصول مثل هذه التحولات ، فنجدهم يخضون غمار النصف الثانى من الحياة وهم عزّل من السلاح تمامًا ، أو لعله يوجد كليات لمن هم فى سن الأربعين تعدهم لما تبقى لديهم من العمر ومتطلباته مثلما تقوم الكليات العادية بإعداد الشباب لمعرفة العالم والحياة ؟ كلا ، لا يوجد ولا واحدة . فنحن نخطو خطواتنا فى «عصر» الحياة ونحن عزّل تمامًا . وشرّ من ذلك أننا نتخذ هذه الخطوات ومعنا سوابق افتراضات خاطئة بأن حقائقنا ومثلنا العليا سوف تظل تخدمنا كما خدمتنا حتى الآن . لكننا لا نستطيع أن نعيش «عصر» الحياة طبقًا لبرنامج «صبح» الحياة ؛ لأن الذى كان كبيرًا عند الصباح أمسى صغيرًا عند المساء ، وما كان صدقًا صباحًا أمسى كذبًا مساءً . لقد بلغ من توليت معالجتهم ونقبت فى حجرات نفوسهم السخية ، ممن كانوا فى سن متقدمة ، من الكثرة حدًا يمنعنى من ألا أتأثر بهذه الحقيقة الأساسية .

على من تقدمت به السن أن يعلم أن حياته غير سائرة صُعُدًا ، ولا هى ماضية فى التفتح ؛ إنما عليه أن يعلم أن ثمة سياقًا داخليًا عنيدًا يفرض على الحياة أن تتقلص . فالشاب يكاد أن يأثم ، لا بل من الخطر

عليه ، إذا هو أسرف فى الإنشغال بنفسه ، بينما الكهل من واجبه بل من الضرورى له أن يمنح نفســه اهتمامًا جادًا . فالشــمس ، بعد أن تكون قد أرقت ضيــاءها سخــيّة على العالم . تعــود فتلملم أشــعتهــا لكى تضىء نفسها. كثير من الشيوخ ، بدلاً من أن يفعلوا ذلك ، يفضلون الاهتمام بصحــتهم حتى الوسوســة ، أو هم يصابون بداء البخل ، أو يصــبحون نظريين غير عمليين ، أو مــهللين للماضى ، أو مراهقين إلى الأبد - كل هذه تعويضــات يرثى لها عن إنارة نفوسهم ؛ لكنهــا آثار لابد منها تنتج عن التوهم بأن النصف الثانى من الحيــاة يجب أن تحكمه مبادىء النصف الأول .

قلت لتوّى إن لدينا مدارس لمن بلغوا سن الأربعين ، لكن هذا القول غير صحيح تمامًا . فأدياننا كانت على الدوام هى هذه المدارس فيما مضى؛ لكن كم منّا من يعــتبــرها اليوم كــذلك ؟ كم منا نــحن ، الطاعنين فى السن، مَن تربّى وتَنَشّأ فــى هذه المدارس ، وتم إعــداده من أجــل النصف الثانى من الحياة ، ومن أجل الشيخوخة ، ومن أجل الخلود ؟

إن الكائن البشرى ما كان ليبلغ سن السبعين أو الثمانين لو لم يكن لهذا العمر الطويل معنى بالنسبة إلى النوع الذى ينتسب إليه . إن «عصر» الحياة البشرية أيضًا يجب أن يكون له معنى خاص به ، ولا يمكن القبول به هدفًا عندما يكون الوجود بالغ الشقــاء إلى حد يطيب لنا معه أن نضع له نهاية . أو عندمــا نكون مقتنعين بأن الشمس تســعى إلى غروبها - ،

لكى تنير أقوامًا بعيدين - ، بنفس العزيمة التى تبديها وهى ترتفع فى كبد السمـاء . لكن الإيمان اليوم قد أضـحى فنًا بالغ الصعوبة حـتى لقد بات الناس معه ، ولا سيما المثـقفين ، لا يكادون يجدون طريقهم إليه . لقد أدمنوا عادة التـفكير أن المسائل المتعلقـة بالخلود ، الآراء متضاربة بشـأنها وليس عليها براهين مقنعة . وحين أصبح «العلم» هو الشعار الذى يحمل وزن القناعة فى عالمنا المعاصر ، رحنا نطالب ببـراهين علمية لكن المثقفين القادرين على التـفكير يعلمون أن البرهان على شىء من هذا القـبيل ليس له محل الإطلاق ، لأننا لا نعرف عنه شيئًا .

بودى أن أشير هنا إلى أننا ، لنفس السـبب ، لا نستطيع أن نعرف إن كان يحدث شىء لشخص بعـد موته . لا نستطيع الجواب لا سلبًا ولا إيجابًا . كل ما فى الأمر أننا لا نملك عليه براهين علمية محددة على نحو أو آخر ؛ ولـذلك نجدنا فى نفس الموقع عندمـا نتسـاءل إن كان كـوكب المريخ آهلاً بالسكان أم لا . وسكان المريخ ، إن وجدوا ، لا يـعبؤون إن كنا نثبت أو ننفى وجودهم . فـقد يكونون موجـودين أو لا يكونون . وهذا هو موقفنا من مسألة الحياة بعد الموت - وهى مسألة يمكننا أن نصرف النظر عنها .

لكن هنا يسـتـيقظ فىّ وجـدان الطبـيب ويحملنـى على قول كلمـة جوهرية فى هذه المسـألة . لقد لاحظت أن الحياة الهـادفة هى بعامـة خير للمرء أن يواكب الزمن فى جريانه من أن يسـير بعكسه إلى الخلف . فى

نظر الطبيب ، الرجل العجوز الذى لا يستطيع توديع الحياة يبدو هزيلاً ومعتلاً فى مثل الهزال والاعتلال الذى يبدو على الشاب الذى لا يستطيع أن يعانق الحياة . والحق إن المسألة فى أكثر الحالات هى مسألة نفس الشهوة الصبيانية ونفس الخوف ونفس العناد والرغبة الطاغية عند أحدهما كما هى عند الآخر . وإنى ، وأنا الطبيب ، لعلى قناعة بأن اكتشاف هدف فى الموت بوسع المرء أن يسعى إليه لهو أمر صحى إن كان لى أن أستعمل هذه الكلمة - ، وأن الانصراف عنه أمر مناف للصحة ، وإنه أمر غير طبيعى ، من شأنه أن يسلب الغاية من النصف الثانى من الحياة . ولذلك أعتبر التعليم الدينى المتعلق بالحياة بعد الموت موافقًا لمنطلق الصحة النفسية . أنا إن سكنت بيتًا وأنا عالم بأنه سوف ينهدّ على رأسى بعد أسبوعين ، تصبح جميع وظائفى الحيوية مسكونة بهذه الفكرة ؛ أما لو شعرت بأننى فى مأمن ؛ فإن بإمكانى السكن فيه وأنا مطمئن ناعم البال. كذلك من الأمور المرغوب فيها فى العلاج النفسى أن نعتبر الموت نقلة ليس أكثر - جزءًا من سياق حياة ذات مدى ومدة لا تطالها معرفتنا .

رغم أن معظم الناس لا يعرفون لماذا تحتاج أجسامهم إلى الملح ، إلا أن كلاً منهم يطلبه لكى يلبى به حاجة غريزية . نفس الشىء ينطبق على أشياء النفس . منذ الأزمنة الغابرة والسواد الأعظم من الناس يشعرون بحاجة إلى الإيمان بديمومة الحياة . ولذلك تفرض علينا مقتضيات العلاج ألا نسلك فى طرقات فرعية ، بل فى منتصف الطريق الذى سلكته

البشرية ، وبذلك يكون تفكيرنا صحيحًا تمامًا فيما يتعلق بمعنى الحياة ، حتى وإن لم نفهم ما نحن نفكر فيه .

هل لنا أن نفهم ما نحن نفكر فيه ؟ إن التفكير الذى نفهمه عبارة عن معادلة : ما يخرج منه ليس سوى ما يدخل فيه . هذا هو عمل العقل لكن ما وراءه تفكير فى الصور البدئية ، فى الرموز الأقدم من الإنسان التاريخى ، المركوزة فيه منذ أقدم الأزمنة ؟ هذه الصور أو الرموز حية أبدًا على تعاقب الأجيال ، ومازالت تكون الأساس فى بنية النفس البشرية ، ولا يمكننا أن نحيا حياتنا كاملةً ما لم ننسجم مع هذه الرموز ، وإنه لمن الحكمة أن نعود إليها . فالمسألة ليست مسألة إيمان ، ولا مسألة عرفان ، بل هى موافقة تفكير مع الصور البدئية الخافية (= اللا شعورية) . إنها مصدر جميع الأفكار الخافية ؛ ومن هذه الأفكار البدئية فكرة الحياة بعد الموت . العلم وهذه الرموز لا يتكافآن . إنها الشروط التى لابد منها للخيال ؛ إنها المعلومات الأولية - المواد التى ليس يسع العلم أن ينكر ملاءمتها وصحة وجودها ارتجالاً . إذ ليس له أن يعاملها إلا على أساس أنها معطيات واقعية ، تمامًا مثلما يفعل عندما يكتشف وظيفة كوظيفة الغدّة الدرقية مثلاً . قبل القرن التاسع عشر ، كانت تعتبر الغدة الدرقية عضوًا لا معنى له ، لا شيء إلا لأنها لم تكن مفهومة . كذلك إن من قصر النظر أن نقول اليوم إن الصور البدئية لا معنى لها . وعندى إن هذه الصور أشبه شيء بأعضاء نفسية ، وإنى أعاملها بأقصى العناية ، يحدث

أحيانًا أن يملى علىّ واجبى أن أقول لمريض متقدم فى السن : «صورتك عن الله أو فكرتك عن الخلود ، ضامرة ؛ وبالتالى استقلابك النفسى عاطل عن العمل» . إن علاج الخلود القديم أكثر عمقًا وأبعد معنى مما يخيل إلينا .

وهنا أعود لحظة إلى تشبيه الشمس . إن الدرجات المائة والثمانين من قوس الحياة يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام . الربع الأول ، وهو الواقع إلى الشرق ، طفولة ، وهى الحالة التى نخلق فيها المشاكل لغيرنا، دون أن نكون على وعى بمشكلاتنا الخاصة . لأن المشكلات التى نعيها هى التى تملأ الربعين الثانى والثالث ؛ على حين أننا فى الربع الأخير ، فى نهاية الشيخوخة ، نعود فننحدر إلى مستوى خلق المشكلات لغيرنا ، حين لا نكون فيها مبالين بحالة الوعى . الطفولة ونهاية الشيخوخة طوران مخلفان كل الاختلاف ، لكن يجمعهما عنصر مشترك : الانغماس فى الحوادث النفسية الخافية (= اللا شعورية) . ولما كان عقل الطفل ينشأ عن الخافية (= اللاشعور) ، كان سياقاته النفسية - وإن كانت لا تفُهم فى يسر - ليس من الصعب تبيّنها مثلما هو من الصعب تبيّن السياقات النفسية لدى الطاعن فى السن الذى عاد ثانية فغاص فى الخافية ، وأخذ يتلاشى فيها تدريجيًا . الطفولة والشيخوخة طوران من أطوار الحياة ليس فيهما مشكلات واعية ، ولهذا السبب لم أتطرق إليهما فى هذا البحث .

الفصل السادس

موازنة بين فرويد ويونج

حقيق بمن يريد أن يتـولى بحث الفرق بين مذهب «فرويد» ومذهبى أنا أن يكون طرفًا ثالثًا يقف خـارج دائرة تأثيـر الأفكار التى تندرج تحت اسم كل منها . هل يمكن إيلائى الثقة بأن أكـون حياديًا إلى درجة أرتفع معـها فوق أفكارى ؟ وهل بوسع إنســان أن يفعل ذلك ؟ إنى لأشك فى الأمـر . ولو قيل لى إن شـخـصًا استـطاع أن يبذ «البـارون منشهاوزن» بتحقيقه هذه المأثرة ، لأيقنت أن أفكاره مستعارة .

صحـيح أن الأفكار ذات الانتـشار الواسع ليـست ملكًا لمن نزعم أنه صاحبها ، بل العكس هو الصحيح ، إنه هو مسترق لأفكاره . إن الأفكار التى نهلل لها بما هى حقائق إنما تتمتع بشىء خاص بها من حيث ذاتها . هذه الأفكار ، رغم أنها تظهر إلى الوجود فى وقت معين ، إلا أنها أفكار غير زمانية على الإطلاق . فهى تطلع من مجـال الحياة النفسية ذات الصفة التكاثرية التى يثبت منها العقل الزائل (الوقـتى) في الإنسان الفرد ، مثلما

ينبت النبـات ويزهر ويحمل الثـمر والبـزر ، ثم يذوى ويموت . الأفكار تنبع من ينبوع لا يحيط به حياة شخـصية واحدة لإنسان واحد . نحن لا نخلقهـا ، بل هى تخلقنا . والحق إننا عندما نتـعامل مع الأفكار لابد لنا أن ندلى باعـتـراف ، لأنها تنقل إلـى رائعة النهــار ليس خـيـر ما فـينا وحسب، وإنما أقبح ما فينا من نقـائص وعيوب أيضًا . وإن هذا ليحدث فى الأفكار المتعلقة بعلم النفس بصـفة خاصة . من أين تأتى هذه الأفكار إن لم يكن أكثـر جوانب الحياة الذاتيـة ؟» أليست كل خبرة تفـسيراً ذاتيًا إلى حد كـبير ، حتى فى أحـسن الظروف ؟ ثم أليست الذات هى أيضًا حقيقـة موضوعية بما هى جزء من العالـم ؟ ومـا يصدر عنها إنما يأتى من التربة العـالمية ، تمامًا مثلما تقيم الأرض التى نقتسمــها جميـعنا معًا أود الكائن العـضوى الأندر والأغرب وتمده بالغـذاء . تحديدًا ، أكـثر الأفكار الذاتية ، بما هى أقرب إلى الطبيـعة وإلى الكائن الحى ، هى التى تستحق أن تكون الأكثر صحة . لكن ما هو الصحيح أو ما هى الحقيقة ؟

لأغراض تتـعلق بعلم النفس ، أعـتقد أنه خـير لنا أن نتـخلى عن مفهوم يقـول إننا اليوم فى وضع يسمح لنا بأن نطلق إبانات «حقـيقية» أو «صحيحـة» عن طبيعة النفس . إن خير ما نسـتطيع أن نفعله هو أن نعبر عنها التعبير الصحيح . وأريد بالتـعبير الصحيح إقراراً صريحًا ، وعرضًا مفصلاً لكل ما قد لوحظ ملاحظة ذاتية . فشخص يولى اهتمامًا للأشكال أو الصيغ التى يمـكن أن تتشكل فيـها هذه المادة ويعـتقد أنه قـد صنع ما

يجده فى نفسه ، وآخر يزن بميزان أثقل قيامه بدور المراقب ، ويشعر بموقفه المتلقى أو السلبى ، مصراً على أن مادته الذاتية إنما تقدم نفسها له . الحقيقة تقع بين الاثنين إذن ، التعبير الصحيح هو إعطاء الشكل أو الصيغة لما قد لاحظناه فعلاً .

وعالم النفس الحديث مهما كانت آماله مطلقة غير مقيدة ، لا يستطيع الإدعاء أنه حقق أكثر من ذلك النوع من التلقى الصحيح والتعبير المكافىء المعقول . وعالم النفس الذى بحوزتنا اليوم عبارة عن شهادات أفراد قلائل ، منبثين هنا وهناك ، على ما قد وجدوه فى أنفسهم . والقالب الذى صبوا فيه هذه الشهادات مكافىء أحيانًا ، وغير مكافىء احيانًا أخر . وبما أن كل فرد يتطابق ، فى شىء من التفاوت ، مع نموذج خاص به ، تأتى شهادة عالم النفس مقبولة بما هى وصف صحيح لما عند عدد كبير من الناس . لكن بما أن أناسًا آخرين يتطابقون مع نماذج أخرى، ومع ذلك يظلون ينتسبون إلي النوع البشرى ، يحق لنا أن نستنتج أن الوصف ينطبق عليهم أيضًا ، لكن انطباقًا غير تام . ما قد تعين على «فرويد» أن يقوله عن الجنس ، ولذة الطفولة ، ، وتنازعهما مع «مبدأ الواقع» ، كذلك ما قد تعين عليه أن يقوله عن «الزنا بالقرابة القريبة» وما أشبه ، يمكن اعتباره أصح تعبير عن تكوينه النفسى الخاص به. لقد أعطى «فرويد» إنما قصور نظره ونظر لتلاميذه قد عرف بى فى هذا الضوء . لا يستطيع الممارس الخبير بالعلاج النفسى أن ينكر أنه قد صادف

- على الأقل - عشرات الحالات تجيب على أوصاف «فرويد» فى جميع جوانبها الأساسية . إن «فرويد» بإقراره بما قد وجده في نفسه ، قد ساعد على ولادة حقيقة عظيمة عن الإنسان . لقد محض حياته وجهده فى سبيل تشييد علم نفس جاء صياغة لكينونته الخاصة به .

إن طريقتنا فى النظر إلى الأشياء محكومة بما نحن عليه . وبما أن الناس الآخرين قد تكونوا بصورة مختلفة عنا ، اختلفت رؤيتهم إلى الأشياء واختلفت طريقتهم فى التعبير عن أنفسهم . فهذا «ادلر» - وهو أقدم تلاميذ «فرويد» - يمثل حالة يجدر الإشارة إليها . فقد عمل على نفس المادة التجريبية التى عمل عليها «فرويد» لكنه فهمها من منطلق يختلف اختلافًا كليًا . وطريقته فى النظر إلى الأشياء لا تقل إقناعًا عن طريقة «فرويد» لأن «ادلر» يمثل نموذجًا مشهورًا . وإنى لأعلم أن أتباع كلتا المدرستين يؤكدون أنني على خطأ ، لكن عزائى أن التاريخ وجميع أصحاب العقول المنصفة سوف ينصفوننى . بحسب طريقتى فى التفكير ، كلتا المدرستين تستحق اللوم على إفراطها فى التوكيد على الجانب المرضى من الحياة ، وعلي تفسير الإنسان تفسيرًا حصريًا على ضوء عيوبه ، والمثال الذى يقنعنا فى هذا الصدد عجز «فرويد» مثلاً عن فهم الخبرة الدينية ، كما يظهر ذلك واضحًا فى كتابه «مستقبل وهم» . من جانبى ، أفضل أن أنظر إلى الإنسان فى ضوء ما فيه من صحى وسليم ، وأن أحرر المريض من وجهة النظر التى تصبغ كل صفحة كتبها «فرويد» . إن

تعليم «فرويد» أحادى على نحو محدد . من حيث إنه يستمد تعميمه من وقائع لا علاقة لها إلا بحالات العقل المعصوب ، وإن صحة تعميمه لتقتصر فى الواقع على هذه الحالات . فى نطاق هذه الحالات يصح تعليم «فرويد» حتى عندما يكون على خطأ ، لأن الخطأ أيضًا يعود إلى الصورة وينقل حقيقة إقرار صحيح . على كل حال ، إن سيكولوجية «فرويد» ليست سيكولوجية العقل المتمتع بالصحة .

العرض المرضى فى سيكولوجية «فرويد» هو كما يلى : «إنه يقوم على نظرة إلى العالم لم تنتقد أو حتى غير واعية ، وهذ خليق بأن يضيق ساحة الاختبار والفهم البشريين إلى حد كبير . لقد كان خطأ فادحًا من جانب «فرويد» أن يدير ظهره إلى الفلسفة . فهو لم ينتقد ، ولا مرة واحدة ، اطروحاته ولا حتى فرضياته التى تنطوى عليها نظرته الشخصية. ومع ذلك فقد كان هذا النقد ضروريًا ، كما يمكننا أن نستدل على ذلك مما قلته فيما تقدم ، فلو أنه فحص فرضياته فحصًا دقيقًا ، لما كان عرض على الأنظار استعداده العقلى الغريب على ذلك النحو الساذج الذى عرضه فى «تفسير الأحلام» ، ولكان ذاق من المصاعب ما ذقته ، فى جميع الأحوال . أنا لم أرفض أبدًا تناول شراب النقد الفلسفى وما فيه من حلو ومر ، لكننى تعاطيته فى حذر ، جرعة صغيرة فى كل مرة . خصومى يقولون إن ما تعاطيه منه قليل جدًا ، وشعورى يقول لى إنى كدت أفرط فى تعاطيه ، ما أيسر ما يسمم النقد الذاتى سذاجة المرء ، تلك الحوزة

التى لا ثمن لها ، أو بالأحرى تلك الهبة التى لا غنى عنها لكل إنسان مبدع . على كل حال .

لقد ساعدنى النقد الفلسفى على أن أرى لكل سيكولوجية - بما فيها سيكولوجيتى الخاصة - صفة الاعتراف الذاتى . ومع ذلك كان على أن أمنع قواى النقدية أن تدمر قدرتى الإبداعية ، وإنى لأعرف حق المعرفة أن كل كلمة أتفوه بها تحمل معها شيئًا من نفسى ، من نفسى الخصوصية والفريدة . بتاريخها الخاص وعالمها الخاص . وحتى حين أتعامل مع معطياتى التجريبية ، إنما أتكلم عن نفسى اضطرارًا . لكننى لا أستطيع أن أخدم قضية معرفة الإنسان للإنسان إلا أن أسلم بذلك . تلك القضية التى أراد «فرويد» أن يخدمها هو أيضًا ، ولقد خدمها بالفعل ، بالرغم من كل شىء . فالمعرفة لا تنهض على الحق وحده . بل على الباطل أيضًا .

ولربما كان هنا ، حيث تنهض مسألة التسليم بأن كل تعليم سيكولوجى من عمل إنسان فهو مصطبغ بذاتيته ، يرتسم الخط الفاصل بين «فرويد» وبينى على أقصى ما يكون من الوضوح :

وهناك فرق آخر يبدو لى أنه يتكون مما يلى : إننى أحاول أن أحرر نفسى من الافتراضات الخافية (اللا شعورية) ، وبالتالى غير المفحوصة ، فيما يتعلق بالعالم عامة . أقول «أحاول» لأنه ما من أحد على يقين أنه قد حرر نفسه من جميع افتراضاته الخافية . لكنى ، على الأقل ، أحاول

أن أخلص نفسى من أغلظ سوابق الحكم ، ولذلك أميل إلى الاعتراف بجميع طرائق الآلهة ، لكن على شرط واحد هو أن تكون خلاقة فى النفس البشرية . أنا لا أشك فى أن الغرائز ، أو السوائق ، هى قوى دافعة فى حياة الإنسان ، سواء أسميناها جنسًا أم حب سيطرة ، ولكننى أيضًا لا أشك فى أن هذه الغرائز تتصادم مع الروح ، لأن هذه الغرائز لا تنفك تصطدم بشىء ماض ، فلماذا لا يكون هذا الشىء روحًا ؟ أنا لا أعرف ما هى الروح فى ذاتها ، كذلك لا أعرف ما هى الغرائز . إن أحداهما غامضة بمقدار غموض الأخرى ، ومع ذلك فأنا غير قادر على صرف النظر عن الواحدة بتفسيرها فى صيغة الأخرى . لأن معنى هذا أننا نعاملها على أنها سوء فهم ليس أكثر . أن يكون للأرض قمر واحد، إن هذا ليس بسوء فهم . ليس فى الطبيعة سوء فهم . إن سوء الفهم لا وجود له إلا فى المجالات التى يدعوها الإنسان «فهمًا» ويقينى أن الغريزة والروح كلتيهما تقعان فوق متناول فهمى . إن هما إلا اصطلاحان سمحنا لهما أن يرمزا إلى قوى مسيطرة لا نعرف عن طبيعتها شيئًا .

كما يمكننا أن نرى ، إنى أولى جميع الأديان قيمة إيجابية . ففى رمزيتها أتعرف بتلك الأشياء أو الصور التى صادفتها فى أحلام مرضاى وفى تخيلاتهم . فى تعاليمها الأخلاقية أرى نفس الجهود التى يبذلها مرضاى عندما يسعون إلى سلوك الطريق المستقيم فى تعاملهم مع قوى الحياة الداخلية ، تحت إرشاد بصائرهم وإلهاماتهم . ثم إن الطقوس

والشعائر ومراسم تسليم الأسرار ورياضات الزهد ، فى جميع أشكالها وتنوعاتها ، تثير فى اهتمامًا عميقًا ، كما تثير اهتمامى كثير من التقنيات التى ترمى إلى إيجاد علاقة خاصة بهذه القوى . كذلك أولى قيمة إيجابية لعلم الحياة ·البيولوجيا) وتجريبية العلم الطبيعى عمومًا ، وأرى فيها محاولة جبارة لفهم النفس الإنسانية إذ تقربها من العالم الخارجى . كذلك أعتبر الأديان العرفانية تؤدى مهمة تساويها فى الجبروت من الطرف المضاد : محاولة ترمى إلى استمداد معرفة الكون من الداخل . فى صورتى للعالم ، يوجد عالم رحب فى الخارج كما يوجد عالم رحب فى الداخل ، وبين هذين العالمين يقف الإنسان ، تارة يواجه الأول ، وتارة يواجه الثانى ، وحسب استعداده أو مزاجه يعتبر أحدهما الحقيقة المطلقة حين ينكر الآخر أو يضحى به .

إن هذه صورة افتراضية ، بطبيعة الحال ، لكنها بالغة القيمة إلى حد لا يسعنى أن أتخلى عنها أبدًا ، فأنا أعتبرها فرضية متحققة من ناحية إثارتها للاهتمام ، ومن الناحية التجريبية أيضًا ، وما هو أكثر من ذلك أنها مؤيدة بإجماع الناس عليها . وقد جاءتنى هذه الفرضية من صدر داخلى ، رغم أنه يحق لى أن أتخيل أن الاكتشافات التجريبية قد أفضت إلى الكشف عنها . ومن هذه الفرضية جادت نظريتى فى النماذج Types ، وكذلك توفيقى بين مذاهب تختلف عن مذهبى كاختلاف مذهب «فرويد» عن مذهبى .

إنى أرى فى كل ما يحـدث صراعًا بين الأضداد ، وقد استـقيت من هذا المفهـوم فكرتى عن الطاقة النفـسية . فـأنا أعتقـد أن الطاقة النفسـية تنطوى على صـراع بين الأضداد بنفس الطريقة التى تـنطوى فيهـا الطاقة الفيزيائية على تفاوت فى القـوة مما يعنى وجود أضداد كالدافىء والبارد ، والعـالى والواطى . لقـد بدأ «فرويد» باعتـباره السائـق الجـنسى الطاقة النفسية الوحيدة ، ولـم يسلـم بأنه حالة يتسـاوى فيها مع الفاعليات النفسية الأخرى إلا بعد انفـصالى عنه . من جانبى ، أعتبر مـختلف السوائق أو القوى النفـسية تندرج فى مـفهوم الطـاقة تفاديًا لاعـتباطيـة علم نفسى لا يتعـامل إلا مع السوائق أو الدوافع . ولذلك لا تجـدنى أتكلم عن سوائق أو قوى منفصلة ، بل عن «كثافة القـيمة أو شدتها» بما قلته لتوى لا أريد أن أنكر ما للجنس من أهميـة فى الحياة النفسيـة ، رغم أن «فرويد» يصر عنيدًا على أنى أنكرها . إن مـا أسعى إليه لهو وضع حـدود لمصطلحات الجنس التى تهدد بإفـراغ كل بحث فى نفس الإنسان ، إن ما أرغب فـيه لهو أن أضع الجـنس فى مكانه الصحـيح . إن البداهة تعيـدنا دائمًا إلى القول بأن الجنس ما هو إلا واحدة من غـرائز الحياة ، واحدة من الوظائف النفسـية - الفيزيولوجية ليس أكثـر ، وهى مع ذلك وظيفة بعيـدة مدى الأهمية .

لا مراء فى أنه يوجد اليوم اضطراب ظاهر فى الحـياة الجنسية . ومن المعلوم أيضًا أننا عندما نشكو من وجع ضرس لا يمكننا أن نفكر إلا فيه .

والجنس الذى يصفه «فرويد» إنما هو ذلك الهاجس الجنسى الذى يظهر كلما وصل المريض إلى نقطة يحتاج فيها مضطراً للخروج من موقف أو وضع خاطىء . هو دافع جنسى مفرط يتراكم خلف سد ، ثم ينكفىء فوراً إلى نِسَبِهِ الطبيعية ما إن ينفتح الطريق إلى النمو . وهو ما نعثر عليه في غيظنا القديم من الوالدين والأقارب ، وفى المنازعات العاطفية أو الانفعالية المضجرة التى تحدث فى العائلة التى كثيراً ما تقيم سداً يقف فى وجه طاقات الحياة . وهذا التوقف هو الذى يظهر دائمًا فى ذلك النوع من الجنس الذى يسمى «طفوليًا» وهو فى الحقيقة ، ليس جنسًا بالمعنى الصحيح ، بل تفريغ غير طبيعى لشحنات من التوتر ترتد إلى منطقة أخرى من مناطق الحياة . أما وإن الحال كذلك ، فما الفائدة من التجذيف في هذه البلاد التى يغمرها الفيضان ؟ وإنى لعلى يقين بأن التفكير المستقيم ليسلم بأن فتح أقنية تصريف لهو أكثر الأشياء أهمية . يجب علينا ، من خلال تغيير الموقف أو من خلال طرائق جيدة من الحياة ، أن نجد ذلك الفرق فى القوة الكامنة الذى تتطلبه الطاقة الحبيسة . وإذا لم يتحقق هذا ، أقيمت حلقة مفرغة ، وهذا هو الخطر الذى تعرضه سيكولوجية «فرويد» . فهى لا تدلنا على طريق ليمضى بنا إلى تجاوز هذه الدورة المنيعة من الحوادث البيولوجية . إن من شأن هذه الحالة الميؤوس منها أن تحملنا أن نصيح كما صاح بولس : «إن كنت إنساناً حقيراً ، فمن ينقذنى من جسد هذا الموت ؟» أما رجل الفكر فيتقدم هازاً برأسه ويقول مع «فاوست» : «إنك لا تشعر إلا بشهوة واحدة ، بأغلال

الجسد الذى يعيدك إلى الوراء إلى حيث الأب والأم ، أو يقذف بك إلى الأمام حيث الأولاد الذين نبعوا من جسدنا «زنا بالقرابة القريبة «فى الماضى» وزنا بالقرابة القريبة» فى المستقبل ، الخطيئة الأصلية المترتبة على ديمومة الوضع العائلى . لا شىء يحررنا من هذه الأغلال إلا شهوة الحياة المضادة ، الروح . ليس أبناء الجسد من يعرفون الحرية ، بل «أبناء الله» فى رواية «أرنست برلاخ» المأساوية عن حياة العائلة ، Der tote Tag ، تقول الشيطانة - الأم فى النهاية : «الشىء الغريب أن الإنسان لا يتعلم بأن الله أبوه» . هذا ما لم يتعلمه «فرويد» ولا كل من يشاركه نظرته على الأقل ، إنهم لا يجدون أبداً المفتاح إلى هذه المعرفة . اللاهوتى لا يساعد الذين يبحثون عن المفتاح ، لأن اللاهوت يتطلب الإيمان ، والإيمان لا يصنع : إنه ، فى معناه الحقيقى ، هبة لطف «نعمة» نحن ، أبناء هذا العصر ، تواجهنا ضرورة اكتشاف حياة الروح ثانية ، يجب أن نختبرها بأنفسنا من جديد . إنها الطريقة الوحيدة التى نستطيع بواسطتها تحطيم القوة التى تقيدنا إلى دورة الحوادث البيولوجية .

إن موقفى من هذه المسألة يشكل النقطة الثالثة من الاختلاف بين «فرويد» وبينى . وبسببها يتهموننى بالمستطيقا (التصوف) . غير أنى لا أعتبر نفسى مسئولا عن تطوير الإنسان ، دائمًا وفى كل مكان ، تطويراً عفويًا لصيغ دينية من التعبير ، وعن انقذاف النفس الإنسانية ، منذ الأزمنة السحيقة ، فى قلب المشاعر والأفكار الدينية . ومن لا يستطيع أن

يرى هذا الجانب من النفس الإنسانية فهـو أعمى ، ومن يأخذ على عاتقه مهمة دحضهـا أو إثباتها ، فليس عنده حس بالواقع . أو هل يتعين علينا أن نرى فى العقـدة الأبوية التى تظهر عند جميـع الأعضاء المنتـسبين إلى مدرسة «فرويد» وعند مـؤسـسهـا بالذات ، دليـلاً مـقنعًا على إمكانيـة الانفـلات من سور الوضع الـعائلى المنيع ؟ إن العـقـدة الأبوية هذه التى يدافعون عنها فى تعصب وعناد وحساسية مفرطة إن هى إلا جلباب التدين مفهومًا بشكل خاطىء ، إنها مستطيقًا عبروا عنها بلغة البيولوجيا والعلاقة العائلية . أما فـيما يتعلق بفكرة «فرويد» عن «الأنية العِليا» فـهى محاولة مخـتلفة لتـهريب صورة «يهـوه» الذى حظى بالتمـجيد فى زمـانه (زمان «فرويد») متنكرًا بلباس نظـرية سيكولوجية . وعندما يفـعل الإنسان مثل هذه الأشيـاء ، حرى به أن يقـولها صـراحةً ، من جانـبى ، أفضل أن أسمى الأشياء بأسمائها التى عرفت بها دائمًا . إن عجلة التاريخ يجب ألا تعود إلى الوراء ، كذلك يجب ألا نجحد تقدم الإنسان نحو حياة روحية ، كانت بدأت منذ طقوس تسليـم الأسرار الأولى . من حق العلم أن يقسم ميدان بحثه وأن يضع فرضـيات محددة ، لأن العلم يجب أن يعمل بهذه الطرقة لكن الـنفس الإنسانية لا يجـوز أن تقطع مزقًا . النفس الإنسـانية كينونة كلية تحـتضن الواعية ، بل أم الواعيـة . والتفكير العلمى ، بما هو وظيفة واحدة من وضـائفها ، لا يستطيع أبدًا أن يستنفد جـميع إمكانيات الحياة . والطبيب النفسى يجب ألا يسمح لرؤيته أن تصطبغ بصبغة منظار علم الأمراض ، يجب ألا يسمح لنفسه أن ينسى أن العقل العليل هو عقل

بشرى ، وأنه ، بسبب جميع ما فيـه من علل ، يشترك فى حياة الإنسان النفسـية فى كلّيتهـا . ويجب عليه أن يكون قادراً حـتى على التسليم بأن الأنية معتلة لمجرد انفصالهـا عن الكل ، الأمر الذى ينم عنه فقدان صلتها بالبـشرية مثلـما فقـدت صلتهـا بالروح . صحـيح أن الأنيّة هى «مكان الخوف» كمـا يقول «فرويد» فى كتابه «الأنـية والهوية»[1] ، لكنها تظل كذلك ما دامت بعيدة عن «أبيها» و «أمها»[2] . إن «فرويد» يحطم سؤال «نيقوديموس» : «هل بوسع الإنسـان أن يدخل رحم أمه مرة ثانـية ويولد مرة ثانية ؟» ، نقول هذا لكى نقارن الأشياء الصـغيرة بالأشياء العظيمة ، ولعل من حقنا هـنا أن نقول إن التاريخ يعـيد نفسـه ، ذلك لأن السؤال يعود اليـوم كرة أخرى لكى يحتل الـواجهة ، لكن فى صورة قـتال أهلى ميدانه علم النفس الحديث .

ظلت طقوس تسليم الأسرار على مدى الاف السنين وهى تعلم الولادة الثانية الروحـية ، ومع ذلك ، وهذا ما يبعث على الاستـغراب الشديد ، ينسى الإنسان مرة بعد مـرة معنى الولادة الإلهية . وهذا لا شك يدل على حياة روحيـة غير قوية ، رغم أن العقاب على سوء الفـهم عقاب شديد ، لأنه ليس أقل دماراً من دمار الأعصاب والشعور بالمرارة والضمور والعقم. من السهل جداً أن نطرد الروح من الباب ، لكـننا عندما نفعل ذلك يغدو

---

(١) The Ego and the Id - المترجم - .

(٢) الروح والطبيعة . مترجم النص إلى الإنكليزية .

ملحًا لحياة ذا طعم تفه لا نكهة فيه ، لكن لحسن الحظ ، فى حوزتنا دليل على أن الروح تجدد قواها دائمًا مـن خلال ما نتوارثه جيـلاً بعد جيل من تعليم مـركزى لطقـوس تسليم الأسـرار القديمة . بين حين وآخـر تنهض كـائنات بشرية تفـهم المقصـود من أبوّة الله للإنسـان ، فلا يضـيع على الإنسان ميزان التساوى بين الجسد والنفس .

الفرق بين «فرويد» وبينى يرتد إلى فروقات جوهرية فى مسلماتنا أو فرضياتنا . وبما أن المسلمـات شىء لا يمكن الاستغناء عنه ، إن من الخطأ الادعـاء أننا لا نضع مسلـمات . وهذا هو السـبب فى أننى تعـاملت مع مسائل أساسية ، فإذا أخذنا هذه المسائل واعتبرناها نقطة انطلاق بالإضافة إلى المسلمات ، استطعنـا أن نفهم الفروقات الكثيـرة والمفصلة التى تفرق بين «فرويد» وبينى فهمًا أفضل .

الفصل السابع
الإنسان القديم

تعنى كلمة archaic (قديم) : الأولى أو الأصلى . والحديث الجاد عن الإنسان المتمدين ، إنسان عالمنا المعاصر ، مهمة من أصعب المهام وأقلها قحمَدَةً ، فى حين أننا لجدُنا فى وضع أفضل عندما نريد التحدث عن الإنسان القديم . فى الحالة الأولى ، نحاول الوصول إلى وجهة نظر تمكننا من السيطرة على الموضوع ، لكننا ما نلبث أن نقع فى نفس سوابق الرأى ، وتنسدل على أعيننا نفس حجب الأهواء ، التى يعانى منها نفس الذين نريد أن نتحدث عنهم . أما فى حالة الإنسان القديم ، فنحن بعيدون عن عالمه فى الزمان ، وقدراتنا العقلية أضحت متمايزة لدينا بأكثر مما هى متمايزة لديه . ولذلك فإن بوسعنا أن نحتل موقعًا أفضل نستطيع منه أن نطل على عالمه وعلى المعنى الذى كوّنه عنه .

تحدد لنا هذه الجملةُ الموضوعَ الذى سوف يشتمل عليه البحث . وأنا إن لم أقتصر على الجانب النفسى من حياة الإنسان القديم ، لم أستطع

أن أرسم له صورة فى هذا الحيّز الضيّق . ولـذلك سوف أقصر همّى على أن تأتى هذه الصورة شـاملة إلى الحد الذى يفى بالغرض ، غيـر آخذ فى اعتـبارى معطيات علم الأنـتروبولوجيا المتـعلق بالأقوام البدائيـة . عندما نتكلم على الإنسان بصفة عامة ، لا نأخذ فى اعـتبارنا جانبه التشريحى - شكل جمـجمتـه أو لون بشرته - ، بل عـالمه النفسى ، ودرجة وعـيه ، ونمط حياته . وبما أن هذا كله يتـصل بموضوع علم النفس ، لذلك سوف نتناول ههنا العقليةَ البدائية أو القديمة ، بصورة رئيسية . وبالرغم من أننا قد حددنا الموضوع على هذا النحو ، لسوف يتضح أننا قد وسّعنا من نطاق البحث ؛ ذلك لأن الإنسـان البدائى ليس هو وحده الذى يمتلك سـياقات نفسـية قديمة ، وإنما إنسـان عالم اليوم المتـمدن هو أيضًا يكشف عن هذه السياقات النفسية القـديمة ، دون أن تكون هذه السياقات مجرد «ارتدادات» متفرقة أتت على الإنسان الحديث من صعيـد حياته الاجتماعية . إن الأمر على العكس من ذلك تمامًا ، كل إنسان مـتمدن ، مهمـا بلغت درجة نموّ وعيه ، لم يزل إنسانًا قديمًا فى الطبقات السـفلى من كيانه النفسى . وكما أن الجسم البـشرى يوصلنا بالثدييـات ، ويكشف لنا عن بقايا كثـيرة من مراحل تطور أوليـة ترجع إلى عصر الزواحف ، فكذلك النفس البـشرية نتاج تطور إن تأثرنا أصوله تكشف لنا عن عـدد لا حصر له من السّمات القديمة .

إذا قابلنا بدائيين لأول مـرة ، أو قرأنا شيـئًا عن العقلية البـدائية فى الأعمال العلمية ، يتملكنا العـجب من غرابة أطوار الإنسان القديم . فهذا

ليفي بروهل – وهو حجّة فى علم نفس المجتمعات البدائية – ما ينفك يشدد على الفارق الكبير الذى يفصل حالة العقل «ما قبل المنطقية» عن نظرتنا الواعية . وقد بدا له ، وهو الإنسان المتمدن ، أن من الأمور المستغربة أن يضرب البدائي صفحًا عن الدروس التى يتعلمها من خبرته ، وأن يظل متمكسًا بصحة «الأفكار الجامعة» ، بدلاً من أن يعمد إلى تفسير الأشياء على أنها من طوارىء الحظ أو المصادفة ، أو يبحث لها عن أسس ترضى العقل والمنطق . ويريد ليفى بروهل بـ «الأفكار الجامعة» تلك الأفكار التى تشيع فيما بين الناس على النطاق الأوسع ، ويسلّمون بصحتها تسليمًا قاطعًا ، كالأفكار البدائية المتعلقة بالسحر وتأثير الطقوس وما أشبه . فنحن – على سبيل المثال – نعرف جيدًا أن الناس يموتون إن تقدم بهم عمر ، أو نزل بهم مرض ؛ بينما يختلف الأمر عند البدائى ، فعنده أن الطاعنين فى السن إن ماتوا بموتهم ليس لتقدمهم فى العمر ، بدعوى أن هناك من هم أكبر سنًا ولم يموتوا . وكذلك ما من أحد يموت من المرض ، لأن أناسًا آخرين شُفُوا من نفس المرض ، أو لم تصل إليهم عدواه أبدًا (وماتوا مع ذلك) . وعنده إن التفسير الصحيح لكل ذلك إنما هو السحر دائمًا ؛ فإما أن يكون روح قد قتل الرجل أو سحر قد بيتوه له . على أن أقوامًا بدائية تقر بأن الموت فى ساحة القتال هو الموت الطبيعى الوحيد ، بينما ينكر آخرون أن يكون هذا أمرًا طبيعيًا ، بادّعاء

أن العدو الذى جلب لهم الموت إما ساحرٌ أو ذو سلاح به سحر . وقد تتخذ هذه الفكرة الغريبة شكلاً أظهر وأبين . من ذلك مثلاً ، وجد خلخالان فى جوف تمساح قتله أوروبى . عرف الأهلون أن هذين الخلخالين يخصّان امرأتين كان قد ابتلعهما تمساح فى وقت سابق وسرعان ما أطلقوا تهمة السحر على هذه الحادثة الطبيعية ، التى ما كانت تثير لدى الأوروبى أى نوع من أنواع الارتياب ، وأعطوها تفسيراً لا يخطر على البال، بَنَوهُ على واحد من سوابق الرأى التى يسميها ليفى بروهل بـ «الأفكار الجامعة» . قال الأهلون أن ساحراً مجهولاً استدعى التمساح وكلّفه الاتيان بالامرأتين ، فقام التمساح بأداء المهمة . لكن ماذا عن الخلخالين فى جوف التمساح ؟ أكد الأهلون أن التمساح لا يأكل الآدمى إلا أن يؤمر بذلك . والتمساح إنما تلقّى الخلخالين من الساحر مكافأة له على الخدمة التى قام بها .

تعتبر هذه الحكاية مثالاً نموذجيًا على الطريقة الاعتباطية فى تفسير الأشياء ، وعلامة على حالة العقل «قبل المنطقية» وقد دعوناها «قبل المنطقية» لأن هذا التفسير يجافى المنطق مجافاة تامة . غير أن هذه الطريقة تصدمنا لأننا ننطلق من أسس تختلف اختلافًا كليًا عن الأسس التى ينطلق منها الإنسان البدائى . لكن لو كنا نؤمن ، كإيمانه ، بالسحر والقوى الخفية ، بدلاً من الإيمان بالأسباب أو العلل الطبيعية ، لرأينا استنتاجاته معقولة تمامًا . والحق إن الإنسان البدائى ليس أكثر منطقًا ، أو أقل

منطقيًا، منا . وما يجعله يختلف عنا أن سوابق رأيه ليست كسوابق رأينا، وأن تفكيره ومسلكه ينهضان على أسس تغاير الأسس التى ينهض عليها تفكيرنا ومسلكنا . فكل شىء يخرق العادة ويورثه القلق والدهش إنما يعزوه إلى مصدر غيبى . وعنده أن هذه الأشياء ليست أشياء غيبية ، وإنما هى من صميم عالم خبرته . نحن نشعر أننا إنما نعبر عن التعاقب الطبيعى للحوادث عندما نقول : هذا المنزل احترق وانهدم لأن صاعقة قد انقضت عليه . والإنسان البدائى يشعر بالتعاقب الطبيعى عندما يقول : إن ساحرًا قد سخر الصاعقة لإحراق هذا المنزل بالذات . لا شىء فى خبرة الإنسان البدائى - شرط أن يكون خارقًا للعادة ومثارًا للدهشة -.لا يجد تفسيرًا له بالاستناد إلى مثل هذه الأسس . وهو ، إذ يفسر الأشياء على هذا النحو ، إنما يشبهنا تمام الشبه : لا يفحص فرضياته . وعنده أن يكون هذا المرض ، أو العلل الأخرى ، قد ورثتها الأرواح ، أو نجمت عن السحر ، حقيقة لا مراء فيها ، تمامًا مثلما نعتبر أن يكون للمرض سبب طبيعى أمرًا مفروغًا منه . ولذلك فهو لا يختلف عنا اختلافًا أساسيًا فى نشاطه العقلى ، وما يفصله عنا هو فرضياته وحسب .

كثيرًا ما نحسب أن للإنسان البدائى مشاعر غير مشاعرنا ، ونظرة أخلاقية مغايرة لنظرتنا - وإن حالة العقل «قبل المنطقية» عنده تختلف عن حالتنا العقلية فى هذه النواحي أيضًا . لا ريب أن له قيمًا أخلاقية مختلفة عن قيمنا . من ذلك مثلاً ما أجاب به شيخ قبيلة زنجية لما سئل عن الخير

والشر ، قال : «لو أنى سَبّبتُ أرواح عدوى لكان ذلك خيراً ، أما أن يسبّى هو أرواجى فهذا شر» . فى كثير من الأقاليم يعد إهانة كبيرة أن تدوس على ظل شخص ، وفى أقاليم أخرى خطيئة لا تغتفر أن تسلخ فقمة بسكين من حديد بدلاً من صوان . لكن ، لماذا لا نكون صريحين : ألسنا نعتقد أن من الحرام أو العيب أن نأكل السمك بسكين فولاذية ، أو نظل نعتمر قبعاتنا ونحن فى غرفة ، أو أن نسلم على سيدة والسيكار فى فمنا ؟ إن هذه الأشياء عندنا ، كما عند البدائى ، أمور لا علاقة لها بالأخلاق . فهناك من يصطادون الرؤوس ويلتزمون فضيلة الصدق ، ومن يمارسون طقوسًا وحشية ويتمسكون بالتقوى والوجدان الحى ، ومن يرتكبون جريمة القتل عن إيمان صحيح . والبدائى لا يقل استعداداً عنا لتقويم موقف ما من الناحية الأخلاقية ، فالخير عنده كالخير عندنا تمامًا ، والشر عنده كالشر عندنا تمامًا ، لا فرق إلا فى الشكل الذى يظهر فيه الخير والشر ، أم سياق الحكم الأخلاقى فهو نفسه .

كذلك نحسب البدائى مرهف الحواس أكثر منا ، أو أن حواسه تختلف عن حواسنا . والحق إن حاسة تعيين الجهة أو حاسة السمع أو البصر ، التى بلغت عنده درجة عالية من الرهف ، مسألة ناشئة عن طبيعة اهتماماته ومشاغله ، فلو يواجه أوضاعًا غريبة عن خبرته لكان بطيئًا وبليداً إلى حد يذهلنا . أطلعت مرة أحد الصيادين من الأهلين ، وكان حاد البصر كالصقر ، على صور فى مجلة يمكن أى ولد من أولادنا

أن يعرف لتوه أنها وجوه بشرية . لكن الصيادين راحوا يقلبون الصور مرة ومرة إلى أن صاح أحدهم ، وهو يتتبع القسمات بأصابعه : «هؤلاء رجال بيض» ! وهلل الجميع لهذا الاكتشاف العظيم .

أما حاسة تعيين الجهة البالغة الدقة عندهم ، ويتمتع بها كثير من الأهلين ، فمسألة دربة ومران . لأنه من الضرورة القصوى أن يكونوا قادرين على معرفة طريقهم وسط الغابات والأدغال . حتى الأوروبى ، بعد أن يقضى فترة وجيزة من العيش فى أفريقيا . يبدأ بملاحظة أشياء ما كان ليحلم بملاحظتها من قبل ، إنه يفعل ذلك لكيلا يضل الطريق فيقنط من نجاته برغم البوصلة .

لا شىء يدل على أن الإنسان البدائى يفكر أو يشعر أو يدرك بطريقة تختلف اختلافًا أساسيًا عن طريقتنا فى التفكير أو الشعور أو الإدراك . فأداؤه النفسى هو ، جوهريًا ، نفس أدائنا - ولا يختلف عنا إلا فى مسلماته الأولية . وفى مقابل هذا نجد من الأمور التى لا أهمية لها نسبيًا أن يكون له ، أو يبدو أن يكون له ، مساحة من الوعى أضيق مما عندنا، وأنه عاجز جدًا ، أو عاجز تمامًا ، عن القيام بنشاط عقلى مركز . فعلى سبيل المثال ، لم أستطع أبدًا أن أعقد محادثة تدوم أكثر من ساعتين ، لأن الأهين كانوا عندئذ يعلنون دائمًا أنهم قد حل بهم تعب . كانوا يقولون إن الحديث كان صعبًا عليهم ، رغم أن أسئلتى كانت فى غاية السهولة ولم تكن ذات هدف محدد . لكن هؤلاء أنفسهم كانوا يبدون من

التركيز والقدرة على الاحتمال ما يبعث على الإعجاب عندما يكونون فى صيد أو سفر . فمثلاً كان باستطاعة الساعى ، الذى يتولى نقل رسائلى، أن يعدو مسافة خمسة وسبعين ميلاً بدون توقف . وشاهدت امرأة ، حاملاً في شهرها السادس ، وتحمل طفلاً على ظهرها ، وتدخن أنبوبًا طويلاً من التبغ - شاهدتها ترقص طوال الليل حول نار ملتهبة ، فى درجة حرارة ٩٥ ، بدون أن تسقط من الإعياء . لا مراء فى أن البدائيين قادرون على التركيز على الأشياء تهمهم . ونحن عندما نحاول الانتباه إلى أمور لا تهمنا ، سرعان ما نلحظ مبلغ ضعف قوانا على التركيز . نحن أنفسنا، كما هو الحال بالنسبة إليهم ، نعتمد على التيارات العاطفية التى تجرنا من الداخل .

صحيح أن البدائى أكثر بساطة وطفولية ، فى الخير وفى الشر على السواء ، وليس فى هذا بحد ذاته ما يبعث على الاستغراب . ومع ذلك ما إن نقترب من عالمه حتى يتكون لدينا إحساس بأن فيه شيئًا غريبًا يحملنا على الذهول . وإذا صح تحليلى لهذا الإحساس ، فإنه متأت بصورة رئيسية عن اختلاف مسلماته الأولية عن مسلماتنا اختلافًا أساسيًا - إنه يعيش فى عالم مختلف ، إن صح التعبير . فهو فى نظرنا أحجية صعبة الحل ما لم نتعرف إلى سوابق رأيه ، وعندئذ يصبح كل شىء بسيطًا نسبيًا . كذلك يمكننا القول إن البدائى لا يبقى أحجية فى نظرنا إذا عرفنا نحن ما هى سوابق أفكارنا .

من سوابق الفكر العقلانية عندنا أن لكل شيء سببًا طبيعيًا يطاله الإدراك ، ونحن مقتنعون بهذا غاية الاقتناع . والسببية ، كما نفهمها ، هي من أقدس الدغماطيقيات عندنا ، فليس في عالمنا مكان مشروع لغير المرئي أو للاستبدادي الآتي من قوى الغيب - اللهم إلا أن نجري وراء عالم الفيزياء المعاصر منكبًا على فحص عالم الذرة البالغ الدقة والخفاء حيث تحدث فيه أشياء غريبة . غير أن هذا العالم يظل بعيدًا عن الطريق المطروق . نحن ننفر كل النفور من فكرة القوى غير المرئية الاستبدادية ، لأنه لم يمض زمن طويل على خلاصنا من عالم الأحلام والخرافات المخيفة ، وتشييدنا على أثره صورة للكون جديرة بواعيتنا العقلانية ، التي هي أحدث ما حققه الإنسان وأعظمه . لقد أصبحنا الآن يحيط بنا عالم مطيع للقوانين العقلانية . صحيح أننا لا نعرف أسباب كل شيء ، إلا أننا سوف نكتشف هذه الأسباب مع الزمن ، ولسوف تأتي هذه الاكتشافات مطابقة لتوقعاتنا . هذا ما عقدنا عليه الرجاء ، ونحن حريصون عليه باعتباره أمرًا مسلمًا به تمامًا مثلما يحرص البدائي على مسلماته ويتمسك بها . وهناك أيضًا - وهذا أمر أكيد - طوارئ ساقها الحظ أو المصادفة ، لكنها أمور عرضية وقد أضفينا عليها سببية خاصة بها. فالعقل الذي يحب النظام يشمئز من طوارئ الحظ والمصادفات ، لأن لها طريقة في قطع مجرى الأحداث التي تنبأنا بها تثير فينا الضحك والغيظ جميعًا . إننا نشمئز من فكرة طوارئ الحظ بمقدار ما نشمئز من

القوى غير المرئية ، لأنها تذكرنا بأكثر مما يلزم العفاريت الشيطانية أو بنزوات «الإله الطالع من المكنة» إنها ألد أعداء حساباتنا الدقيقة ، وتهديد دائم لمشروعاتنا . ربما أنها مضادة للعقل بداهة ، لذلك فهى تستحق منا الاحتقار ، وعليه يجب ألا نغفل عن إعطائها ما تستحق . والعربى يَوْلِيها احترامًا أكثر مما نفعل حين يكتب على كل رسالة يبعث بها عبارة «إن شاء الله» وعندئذ فقط تصل الرسالة . لكن رغم رفضنا التسليم للحظ ، ورغم جريان الحوادث على وفق القوانين العامة ، رغم كل هذا لا يمكننا نكران أننا عرضة للحوادث غير المحسوبة فى كل زمان ومكان . وأى شىء أغمض وأكثر استبدادًا من الحظ ؟ بل أى شىء أكثر منه حتمية وإزعاجًا ؟ .

لو أمعنا النظر مليًا فى الأمر لأمكننا القول إن علاقة السببية التى تربط الحوادث وفق القوانين العامة تصح عند منتصف الطريق ، أما سائره فيتكفل به شيطان الحظ . ولطوارىء الحظ أيضًا قوانينها الطبيعية ، وفى أغلب الأحيان تضطرنا آسفين إلى أن نتبين أنها فى منتهى الابتذال . وليس ما يضايقنا فيها جهلنا لأسبابها ، بل إن ما يغيظنا فيها أنها تنزل بنا حينًا بعد آخر بطريقة استبدادية ظاهرة . هذا ما يصدمنا فيها على الأقل . وهى تسبب الغيظ لنا ، حتى إنها لتحمل أكثر الناس عقلانية على لعنها وشتمها . وكيفما كان تفسيرنا لحادث الطارىء ، فإننا لا نستطيع أن نغير من حقيقة قوة تأثيره فينا . وكلما أخضعنا شروط

وجودنا للتنظيم ، استبعدنا الحظ من حساباتنا وقلت حاجتنا إلى الوقاية منه . لكن برغم ذلك ، كلنا يحسب لاحتمالات الحظ حسابًا ، أو يعتمد عليها ، حتى حين لا يؤيد «المعتقد الرسمى» هذا الإيمان .

وإنها لفرضية من فرضياتنا التى تصل بنا إلى حد القناعة الإيجابية أن يكون لكل شىء أسباب نطلق عليها اسم «الأسباب الطبيعية» ونحسب أن بمقدور إدراكنا أن يطالها . والإنسان البدائى ، من الناحية الأخرى يفترض أن كل شىء هو من فعل القوى غير المرئية الاستبدادية - بعبارة أخرى ، كل شىء هو من فعل الحظ والمصادفة ، إلا أنه لا يسميه حظًا بل قصدًا .

أما السببية الطبيعية فشىء ظاهرى ولا يستحق الذكر . فإن ذهبت ثلاث نسوة يمتحن الماء من النهر ، وأمسك تمساح بوسطاهن وجرها إلى تحت ، فإن نظرتنا إلى الأشياء تقضى بنا إلى القول بأن المصادفة هى التى جعلت التمساح يمسك هذه المرأة بالذات . ويبدو لنا الأمر طبيعيًا للغاية أن يمسك التمساح بهذه المرأة ، لأن هذا الحيوان قد يأكل الآدمى أحيانًا . أما البدائى فعنده أن هذا التفسير إنما يطمس الحقائق ، ولا يفسر ولا جانبًا من الحكاية . وهو على حق فى اعتبار نظرتنا للموضوع سطحية بل سخيفة حتى ، ذلك أنه كان ممكنًا ألا تحدث هذه الحادثة ويظل التفسير مع ذلك مناسبًا للموضوع . إن انسياق الأوروبى مع أهوائه وسوابق رأيه لا يسمح له أن يرى مبلغ ما فى تفسيره للأشياء على هذا النحو من ضآلة .

الإنسان البدائى يتطلع إلى ما هو أكثر من التفسير . فما نسميه نحن حظًا أو مصادفة هو عنده قوة استبدادية . ولذلك فقد كان قصد التمساح - كما استطاع كل منا أن يلاحظ ذلك - أن يمسك بالمرأة الواقفة بين المرأتين الأخريين . إذ لو كان قصده غير ذلك لكان أخذ غيرها . لكن لماذا كان قصد التمساح كذلك ؟ إن هذا الحيوان ليس من عادته أن يأكل الأدمى ، وهذه حقيقة صحيحة - تمامًا كما نقول : لا مطر فى الصحراء . والحق إن التمساح حيوان جبان ، ويمكن تخويفه بسهولة . ولو فكرنا فى عدد أفراد نوعه لعجبنا من أنه لم يقتل إلا بضعة قليلة من الناس ؟ فإذا قام بالتهام إنسان كان ذلك حدثًا مفاجئًا ومنافيًا للطبيعة . ولذلك يقتضى تعليل هذه الحادثة ، لأن التمساح ما كان ليقدم على قتل إنسان من تلقاء نفسه . إذن ، من ذا الذى طلب منه أن يفعل ذلك ؟ .

الإنسان البدائى يبنى أحكامه على أساس الوقائع التى تحدث فى العالم الذى يحيط به ، فإن حدث فيه ما لم يتوقعه ينتابه دهش - وهو محق فى هذا - ويروح يفتش عن الأسباب . وهو ، عند هذا الحد ، يتصرف كما نتصرف نحن تمامًا ، لكنه يذهب أبعد مما نذهب ؟ لأن لديه نظرية واحدة أو أكثر حول طوارئ الحظ والمصادفة وما تنطوى عليه من قوة استبداد . نحن نقول " لا شىء إلا الحظ أو المصادفة . أما هو فيقول : قصد بحساب ، إنه يولى أهمية خاصة لما فى سلسلة السببية من ثغرات هى فى نفس الوقت حائرة ومحيرة ، وهى الطوارئ التى لم تفلح فى أن

تكشف لنا عن العلاقة السببية التى يتوقعها العلم ، وهذا ما يكون النصف الثاني من الحوادث على وجه العموم . لقد كيّف البدائى نفسه مع الطبيعة منذ زمن طويل على أساس جريانها وفقًا للسنن العامة ، ولذلك فإن أخشى ما يخشاه هو المصادفة التى لم يتنبأ بها وما فيها من قوة اعتباطية تحمله على أن يرى فيها عاملاً تحكميًا لا يمكن التحسب له . وهو هنا أيضًا على حق ، لأننا نفهم تمامًا أن كل ما يخرق العادة يجب أن يورثه الخوف . يعيش آكل النمل بكثرة لا بأس بها فى الأقاليم الواقعة إلى الجنوب من «جبل أيلكون» حيث أقمت بعض الوقت . وآكل النمل حيوان ليلى خجول قلما تقع العين عليه . فإذا اتفق أن شوهد فى النهار ، عد ذلك حدثًا خارقًا غير طبيعى من أشنه أن يثير دهشة الأهلين بمثل ما يثير دهشتنا وكانت هى الأخيرة . «تكرار الحوادث» شىء نتندّر به فى عياداتنا ، لكنه من حقائق العلم البدائى المقررة منذ أزمان سحيقة . وقد جازف أحد الباحثين الحديثين بالقول : «السحر علم الأدغال» ولا ريب فى أنه يمكننا أيضًا أن نسمى التنجيم وقراءة الغيب علم الأزمنة القديمة .

إن ما يحدث بانتظام مطرد تسهل ملاحظته علينا لأننا مهيؤون له . أما عندما نكون أمام أوضاع ينقطع فيها مجرى الأحداث بصوة اعتباطية ، يصعب علينا معرفة كنهها ، فإننا نحتاج إلى المعرفة والمهارة . بعامة ، إن من يعهد إليه بمراقبة الأحداث يجب أن يكون أذكى رجال القبيلة وأدهاهم ، وأن يبلغ من العلم مبلغًا يمكنه من تفسير جميع الحوادث

الخارقة ، ومن الفن مبلغًا يمكنه من التصدى لها . فهو العالم والاختصاصى والخبير بطوارئ الحظ والمصادفات . وفى نفس الوقت الأمين على تراث القبيلة وعلومها التقليدية . تحيطه القبيلة بالاحترام والمهابة ، ويتمتع فيها بسلطة كبيرة ، إلا أنها ليست كبيرة جدًا لأن أفراد القبيلة يعتقدون فى سرهم بأن لدى جيرانهم ساحرًا أقوى من ساحرهم . فأنجع الدواء لا يكون أبدًا فى متناول اليد ، بل يستجلب من مكان بعيد . أقمت زمنًا عند قبيلة يكنون لعرافهم العجوز رهبة عظيمة ، ومع ذلك ما كانوا يرجعون إليه إلا فى الأمراض الخفيفة تصيب الماشية والناس . أما فى الأمراض الخطيرة فكانوا يلجؤون إلى مرجع أجنبى يؤتى به لقاء أجر باهظ من أوغندا – تمامًا كما هو الحال عندنا .

طوارئ الحظ أو المصادفات تأتى فى الغالب متسلسلة أو جماعات . ومن القواعد القديمة المجربة فيما يتعلق بالأحوال الجوية أن السماء إذا أمطرت على مدى عدة أيام فهى سوف تمطر فى اليوم التالى . ومن الأمثال الشائعة : «النكبات لا تأتى فُرادى» و «السماء لا تمطر بل تصب الماء صبًا» . هذه الحكم المسبوكة فى صيغة الأمثال هى ما يشكل العلم البدائى . والناس يؤمنون بها ويقدسونها فى حين يبتسم منها الإنسان المثقف إلا أن يحدث له حادث خارق . سأقرأ عليكم حكاية مزعجة : أعرف امرأة استيقظت ذات صباح على نقرة غريبة على طاولة السرير ، وبعد أن تلفتت حواليها برهة عرفت السبب : انقصفت حافة القدح

وتشكلت منها حلقة عرضها ربع بوصة تقريبًا . بدا لها أن ما حدث شيء غريب ، فأمرت بإحضار قدح آخر ، وما هي إلا دقائق خمس حتى سمعت نفس النقرة وانقصفت القدح أيضًا . اشتد قلقها هذه المرة ، ثم جيء لها بقدح ثالث . وما هي إلا عشرون دقيقة أخرى حين انقصفت حافة القدح الثالث محدثة نفس الصوت . لقد تعاقبت هذه المصادفات الثلاث تعاقبًا فوريًا كان فوق ما تطيق فكفرت لتوها بالأسباب الطبيعية وأحلت محلها «الأفكار الجامعة» ، القائلة بأن قوة استبدادية تقف وراء الحوادث . مثل هذه الحادثة تحدث لكثيرين من المعاصرين – شريطة ألا يكونوا من ذوى الرؤوس اليابسة جدًا – عندما يجدون أنفسهم وجهًا لوجه أمام حوادث لا تفلح السببية الطبيعية فى تعليلها ، ونحن ، بطبيعة الحال، نفضل إنكار مثل هذه الحوادث لأنها حوادث مقيتة بما تقطع علينا مجرى سير عالمنا الدائر بانتظام ، وتجعل كل شيء ممكنًا ، وتأثيرها علينا يظهرنا على أن العقل البدائى لما يمت فينا بعد .

ولا نحسبن إيمان البدائى بالقوة الاستبدادية منبعثًا من فقاعة هواء كما كنا نحسب دائمًا ، إن إيمانه بها مستند إلى خبرته . ما كنا نحسبه خرافة يسوغه اجتماع المصادفات ، فثمة مقياس حقيقى لاحتمال تزامن الحوادث فى الزمان وتوافقها فى المكان . ويجب ألا ننسى أن خبرتنا لا يصح الركون إليها تمامًا من هذه الناحية ، فملاحظاتنا غير مكافئة لأنها تقودنا إلى إغفال هذه الأمور من اعتبارنا . فمثلاً ، لا يخطر لنا ببال أبدًا ،

ونحن في وضع جدى ، أن نعتقد صلة فيما بين هذه الحوادث : في الصباح يطير الطائر في حجرتك ، وبعد ساعة تشاهد حادثة في الشارع . وعند العصر يموت قريب لك . وفي المساء يقلب طاهيك وعاء الحساء . وحين تعود إلى بيتك في وقت متأخر من الليل تكتشف أنك ضيعت المفتاح . أما البدائي فلا يغفل عن واحدة من سلسلة هذه الحوادث ، لأن كل حلقة منها تعطيه جوابًا على توقعاته ، وإنه لعلى حق ، لأنه أقرب إلى الصواب مما نريد أن نعرف له به ، ولأن لتوقعاته القلقة ما يسوغها من حيث إنها تؤدي له غرضًا يبتغيه ، فهو يعتقد أن هذا اليوم يوم نحس لا ينبغي له أن يقوم فيه بعمل . في عالمنا يعتبر هذا الاعتقاد خرافة تستوجب اللوم ، لكنه في عالم البدائي دهاء وحكمة .

في عالم البدائي يتعرض الإنسان للحوادث الطارئة بأكثر مما نتعرض لها نحن الذين نعيش في عالم بالغ التنظيم يقينا شر مثل هذه الحوادث . فإن كنت في صحراء قاحلة ، لم تجرؤ علي الإفراط في المجازفة . والأوروبي سرعان ما يدرك هذا .

البوابلو الهندي ، إذا أحس أنه في وضع لا يبعث على الاطمئنان يعتزل بعيدًا عن مجلس القوم . والروماني القديم ، إذا تعثر على عتبة بابه وهو يهم بمغادرة المنزل ، كان يمتنع عن القيام بما كان ينوي القيام به في يومه . إن هذا في نظرنا لغو لا معنى له ، لكن في ظروف الحياة البدائية مثل هذا الفأل غير الحسن يميل بالمرء إلى إلتزام جانب الحذر على

الأقل . وإن أنا لم أكن فى حالة تامة من ضبط النفس ، خضعت حركات جسمى لنوع من الإرتباك ، وزاغت نظراتى ، وصرت على شىء من شرود الذهن . وينتج عن ذلك أننى إما أن اصطدم بشىء ، أو أتعثر فى خطاى ، أو أدع شيئًا يسقط ، أو أنسى شيئًا من الأشياء . فى ظروف العالم المتمدن ، تعتبر هذه أشياء تافهة ليس إلا ؟ أما فى الغابة البكر فخطر مميت . وإنه لأمر مميت أن تنقل خطوك فى غير موضعه وأنت تجتز جذع شجرة بلله المطر ، يستعمل جسرًا عاليًا فوق نهر يعجّ بالتماسيح . هب أننى ضيّعت بوصلتى بين الأعشاب ، أو نسيت تعبئة بندقيتى ومشيت فى طريق اعتاده كركدن الأدغال . فإن كنت شارد الذهن عما حولى فقد أدوس على أربد (= الأفعى النافخة) . حدث مرة عند هبوط الظلام أننى نسيت أن أحتذى حذاء البعوض فى الوقت المناسب ، وكان من جراء ذلك بعد أحد عشرًا يومًا أن كدت أموت من وافدة الملاريا الاستوائية . ومَن ينسّ إغلاق فمه وهو يسبح يتعرّض لزُحار قاتل . وعندنا أن السبب الطبيعى لمثل هذه الحوادث هو شرود الذهن ، أما عند البدائى فَنُذُر أُحكِم تدبيرها موضوعيًا ، أو هى سحر .

لكن المسألة ربما كانت أكثر من مسألة شرود ذهن أو قلة انتباه . فقد ذهبت مرة فى جولة فى غابة «كبراس» ، وهى من إقليم «كيتوشى» إلى الجنوب من «جبل إيلكون» . وإنى لأسير فوق الحشائش الكثيفة ، إذ كدت أطأ واحدة من الأرابد ، لكننى استطعت أن أقفز بعيدًا فى الوقت

المناسب . عصر ذلك اليوم عاد مرافقى راجعًا من الصيد ، وكان شاحب الوجه وفرائصه ترتعد من الخوف . لقـد أوشك أن تلدغه حية «الماما» ، وهى حية طولها سبع أقدام ، حيث قذفت بنفسها على ظهره من تلّ نملة بيضـاء . ولا شك أنها كـانت قتلتـه لولا أنه استطاع فى آخـر لحظة أن يصيبهـا بطلق نارى . فى الساعـة التاسعـة من مساء ذلـك اليوم هاجم مخيّمنا قطيع طباع جائعة كانت قبل يوم فاجأت رجلاً ولطمته وهو نائم . وبرغم اشـتعال النار احـتشـدت فى كوخ الطاهى الذى راح يـصرخ لائذًا بسور المخـيّم . بعد ذلك لـم يحدث شىء طيلة الرحلة . وإن يومًا كـهذا اليوم يمد جمـاعة الزنوج بمادة للتفكير ؛ أما نحن فلم يكن الموضـوع أكثر من تكرار لحوادث (لا رابط بينهـا) . لقد كان الأمر بالنسبـة إليه تصديقًا لم يكن منه مفـر لفأل غير حـسن بدأ فى أول يوم من أيام الرحلة . كان ذلك عندما سقطنـا جميعًا ، السيـارة والجسر معهـا ، فى نهر كنا نحاول عبوره . فكان أن تبـادل الأولاد ، الذين كانوا بصحبتنا ، النظرات فـيما بينهم كأنهم يريدون القـول : «حسن ، إنها لبداية رائعـة !» . وقد بلغ الأمر ذروته عندمـا دهمتنا عـاصفة اسـتوائيـة هوجاء ظلت تبـرق وترعد وتغدق علينا المطر حتى بللتنا تمامًا وطرقتنى على أثرها حمى أقعدتنى عدة أيام . وفى مساء اليوم الذى وجد فيه صديقى لنفسه فرصة سانحة للصيد، لم أتمالك نفسى من القول كما يحدث لنا ، نحن البيض ، إذا جلسنا معًا وراح يحدق كل منا فى الآخـر : «يبدو أن المتاعب كانت قـد بدأت قبل هذا بكثيـر . هل تذكـر الحلم الـذى رويتـه لى ونحن فى زيورخ قـبل

مغادرتنا؟» . في ذلك الحين كان قد رأى كابوسًا مـخيفًا جدًا . رأى نفسه يصطاد في أفريقيا ، وفجأة تهجم عليه حيّة هائلة من حيّات «المامبا» فيفيق على الفور وهو يصرخ مذعورًا . لقد أقضّ الحلم مضجعه ، وأصبح يعتقد بأنه نذير بموت واحد منا . وقـد حسب ، بطبيعـة الحال ، أنني أنا الذى سوف يموت ، كدأبنا في إلقاء التبـعة على «الفتى الآخر» . لكنه كان هو الذى أصابته ملاريا حادة شارف فيها على الهلاك .

إن قراءة مثـل هذه المحادثة في زاوية من عالم ليس فيـه أفاع تلدغ ، ولا بعوض ينقل الملاريا ، أمر لا يعنى إلا قليلاً . لكن المرء حين يتخيل نفســه يلفّه الليل الإستوائى بزرقتـه المخملية ، والكتل الهـائلة السوداء من الأشجار تعلو هامته ، وقد انتصبت واقفة في غابة عذراء ، وأصوات خفية تنبعث من الفــراغ الليلى ، ونار مُفردة بالقرب منها بنادق مـحشوّة وكلل البعـوض، ولاماء يشربه إلا ماء المسـتنقع يغليه لكى يسوغـه بعد ذلك ، وفوق هذا كله اعـتقاد أعرب عنه افـريقى عجوز كان يعـرف ماذا يقول : «هذه ليست بلاد الإنسان ، بل بلاد الله» . هنا ، ليس الإنسان بالملك ، بل الطبـيعـة - الحيـوان والنبـات والأوبئة . وحين يتـلاءم المرء مع هذا المكان، يعلم مقدار ما يحده من معـنى ظاهر في أشياء لو وجدها في غير هذا المكان لاستثارت منه ابتسامـة ساخرة . ذلك هو عالم القوى الهوجاء الاعتباطية التى ينبغى للبدائى أن يتعامل معها يومًا فيومًا . الحادثة الخارقة ما هى بالنكتة عنده . والنتائج التى يصل إليها من مثل «ليس هذا بالمكان

الصالح» أو «هذا اليـوم غير مـلائم» هى نتائج أوحت بها إليـه تحذيرات اختـبرها ، ومن يدرى مـا هى الأخطار التى يتـفاداها حين يتـقيـد بهذه التحذيرات ؟ .

«السـحر علم الأدغـال» . والفأل يحـدث تعديلاً فى سـير عـمل ، وتخليًا عن مشروع كـان بدىء به من قبل ، وتغييـرًا فى موقف نفسى . وجمـيع هذه رجوعـات (= ردود فعل) مـلائمة للغـرض على اعتـبار أن حوادث الحظ أو المصادفات تجنح إلى الوقوع متـعاقبة أو متسلسلة ، وعلى اعتبار أن البدائى لا يشـعر أبدًا بالسببية النفسيـة . أما نحن فقد تعلمنا ، بفضل توكيدنا الأحادى على ما نسميه بالأسباب الطبيعية ، أن نميز ما هو ذاتى مما هو موضوعى و «طبيعى» ، فى حين يتحد الذاتى والموضوعى عند البـدائى فى العـالم الخـارجى . وإذا مـا حـدث شىء خـارق فليس هو المدهوش ، وإنما الشىء هو الذى يدهشـه . فالشىء الخـارق هو «المانا» ، ممنوحةً قوة السحر . وما نسمـيه نحن بقوة المخيِّلة والإيحاء هى عنده قوى خارجية تؤثر فيه من الخارج . وليست بلاده كـيانًا جغرافيًا ولا سياسيًا ؟ إنما بلاده الإقليم الذى يضم أساطيره وديانته وجميع أفكاره ومشاعره مادام لا يشعر بهذه الوظائف (الفكر والشعور) . وخوفه يستوطن هذه الغابة أو تلك . ذلك الكهف تأوى إليـه شيـاطين تخنق كل إنسـان يدخله . فى ذلك الجـبل يربض الثـعـبـان الكبيـر ، وفى تلك الرابيـة قـبـر الملك الأسطورى. كل امرأة تحبل إذا ما اقتربت من هذا النبع أو هذه الصخرة أو

الشجرة ؛ تلك المخاضة يحرسها عفاريت الأفاعى ؛ هذه الشجرة ذات سَمت له صوت يستطيع أن ينادى أناسًا معينين . والخلاصة إن البدائى إنسان غير نفسانى ؛ لأن الحوادث النفسية تحدث خارجًا عنه بطريقة موضوعية . حتى الأشياء التى يراها فى منامه تبدو له أشياء واقعية ؛ وهذا هو سببه الوحيد الذى يجعله يعير الأحلام انتباهه . قال الحمّالون الذين كانوا بصحبتنا - وهو من جبل أيلكون - قالوا أنهم يحلمون أبدًا ؛ الساحر وحده هو الذى يحلم . ولما سألت الساحر عن ذلك أجاب أنه أمسك عن رؤية الأحلام منذ أن جاء البريطانيون إلى البلاد . أما أبوه فقد ظل حتى ذلك الحين يرى أحلامًا كثيرة ، فكان يعرف مكان القطعان التائهة ، والمكان الذى تأخذ عجولها إليه ، ومتى تقع الحرب أو ينزل الوباء . أما الآن فمفوض المنطقة هو الذى يعرف كل شىء ؛ بينما هم لا يعرفون شيئًا . لقد بدا مستسلمًا كل الإستسلام كإستسلام بعض قبائل «البابون» الذين يعتقدون أن شطرًا كبيرًا من التماسيح التحق بالحكومة البريطانية . حدث أن محكومًا من الأهلين فرّ من قبضة السلطة فنهشهُ تمساح فأحدث فيه تشويهًا فظيعًا بينما كان يعبر النهر . فاستنتجوا من ذلك أن التمساح كان من رجال البوليس . إن الله لم يعد يخاطب عرّاف القبيلة فى الأحلام ، بل صار يخاطب البرياطانيين لأنهم هم أصحاب السلطة . لقد ذهبت فاعلية الحلم عنهم . أرواح الأهلين تهاجر عنهم أحيانًا ، فيأتى العراف ويمسك بها ويضعها فى أقفاص كما توضع الطير، أو تفد عليهم أرواح غريبة فتحل بهم الأمراض .

إن من شأن هذا الإسقاط للحوادث النفسية أن يعقد صلات بين إنسان وإنسان ، أو بين إنسان وحيوان أو شيء ، صلات لا يمكن أن نفهمها نحن . إنسان أبيض أطلق النار على تمساح ، وعلى الفور توافد حشد كبير من الناس من القرية القريبة يطالبون بدفع الدية . وحجتهم أن التمساح كان امرأة عجوزًا بعينها ، كانت تقيم فى قريتهم وقد ماتت فى نفس اللحظة التى أطللقت النار فيها على التمساح : لقد كان واضحًا - فى اعتقادهم - أن التمساح كان يمثل «روح الأجم» الذى يتوحد مع تلك المرأة . رجل آخر أطلق النار على فهد كان يكمن لماشيته ؛ فى ذلك الوقت بالضبط ماتت امرأة فى القرية المجاورة ، لقد كانت متوحدة مع الفهد .

اصطلح ليفى بروهل على تسمية هذه العلاقات الغريبة باسم «المشاركة الصوفية» ، وبرأيى أن كلمة «صوفية» لم يوفق فى اختيارها . لأن البدائى لا يرى شيئًا صوفيًا فى هذه الأمور ، بل هى عنده أمور طبيعية للغاية ؛ إنما نحن الذين نجد فيها الغرابة . ولعل السبب فى ذلك أننا لا نعرف شيئًا عن مثل هذه الظاهرات النفسية[1] . لكن هذه الظاهرات تحدث لنا أيضًا ، إلا أننا نعطيها صيغًا تعبيرية أكثر مدنية . فى حياتنا اليومية يحدث لنا دائمًا أن نحسب السياقات النفسية لدى غيرنا مثلما هى لدينا تمامًا، فنحسب أن ما يسرنا وما نرغب فيه هو ما يسر

(١) أى انفصال والإسقاط dissociation and projection .

الناس وما يرغبون فيه ، وأن ما هو شر لنا ينبغى أن يكون هو نفسه شراً لهم . والقضاء لم يأخذ بالمنطلق السيكولوجى ويعترف بمبدأ نسبية الذنب عند النطق بالحكم، إلا فى وقت متأخر . وبسطاء الناس مازالوا يتميزون غيظًا من عقيدة «ما هو مباح لجوبيتر غير مباح للبقر» . ومازالت المساواة أمام القانون تمثل إنجازاً عظيمًا ، ولم يحل محله مبدأ غيره حتى الآن كذلك لم نزل ننسب إلى «الفتى الآخر» كل الشرور والنقائص التى لا نريد أن نعترف بها فى أنفسنا ، وهذا ما يفسر لنا أسباب التهجم عليه وسلقه بألسنتنا . غير أن ما يحدث فى هذه الحالة هو أن «روحًا» دنيا تنتقل من شخص إلى آخر . فالعالم لم يزل حافلاً بـ «البهائم السوداء» و «أكباش الفداء»[1] ، تمامًا مثلما كان حافلاً فيما مضى من الأيام بالساحرات والذئاب التى صارت كائنات بشرية .

والإسقاط حادثة نفسية من أكثر الحوادث النفسية شيوعًا ؛ إنه نفس «المشاركة الصوفية» التى عدّها ليفى بروهل السمة الخاصة التى يتسم بها الإنسان البدائى . كل ما فى الأمر أننا أعطيناها اسمًا آخر ، وجرينا على عادة نكران أن نذنب بها . كل ما هو خاف فينا نكتشفه فى جارنا ، ونتعامل معه على أساسه . صحيح أننا لم نعد نخضعه إلى امتحان تناول السم أو نحرقه أو ننتزع منه الاعتراف بالقوة ؛ إلا أننا نعمد إلى إيذائه بإطلاق الأحكام الجائرة عليه مقتنعين بها قناعة عميقة . إن ما نحاربه فيه هو فى العادة جانبنا الأدنى .

---

(١) فى الأصل betes noires .

والحقيقة البسيطة هي أن الإنسان البدائي هو من بعض الوجوه أقدر منا على الإسقاط لأن حالته العقلية غير متمايزة مما يستتبع معه أن يكون عاجزاً عن نقد نفسه . فكل شيء عنده يتصف بالموضوعية التامة . ولغته تعبر عن هذه الحقيقة بصورة أساسية . نحن كثيراً ما نعمد ، بدافع من حسّ الفكاهة ، إلى تصوير شخص كالأوزة أو البقرة أو الدجاجة أو الحيّة أو الثورة أو الحمار . لكن البدائي ينسب «روح الأجم» إلى شخص ما لا يكون في نسبته هذه أثر من حكم أخلاقي يريد إطلاقه عليه . فالإنسان القديم مفرط في «الطبيعيّة» من هذه الناحية ؛ وإن تأثره الشديد بالأشياء كما هي عليه يحول دونه وإصدار الأحكام بصورة فورية ؛ ولذلك كان أقل ميلاً منا إلى فعل ذلك . قال لي مرة أحد هنود البوابلو ، معلنًا ذلك بصورة جازمة ، أنني أنتمي إلى «توتم الدب» - بعبارة أخرى ، أنني دبّ - لأنني لم أهبط السلم ووجهي إلى الأمام كما يفعل الآدمي ، بل أهبط منه موليًا ظهري ومتشبثًا بيدي كما يفعل الدب . لو قال لي أوروبي إن لي طباع الدب ، لكان ذلك نفس الشيء ، مع فارق طفيف في المعنى . إن موضوع «روح الأجم» ، الذي كان بالنسبة إلينا موضوعًا غريبًا جداً عندما التقينا به في المجتمعات البدائية ، أصبح لدينا - نحن البيض - شأنه في هذا كشأن أشياء كثيرة - صوراً كلامية ليس إلا . فلو أخذنا مجازاتنا على حسب مدلولاتها الحسية لعدنا إلى وجهة النظر البدائية . فعلى سبيل المثال نحن نستعمل التعبير الطبي : «أخذ يد المريض to handle apatient» ومعناهُ بالصيغة الحسية «وضع اليدين

عليـه» – أو «العـمل باليدين» . إن هذا بـالضبط هو مـا يفـعله العرّاف بمرضاه .

يصعب علينا أن نفهم مـسألة «روح الأجم» ، لأن الطريقة من رؤية الأشيـاء توقعنا في الحـيرة وتسبـب لنا الارتباك . ولا نستطـيع أن نفهم «الروح» كينونة تهاجر وتتخذ لهـا سكنًا فى حيوان وحشى . فإذا وصفنا شـخصًا بأنه حـمار ، فـإننا لا نعنى من كل وجـه أنه ذلك الحيـوان ذو القوائم الأربع الذى نسـميه حمارًا ، وإنمـا يشبه الحمار من وجـه بعينه . وفـيمـا يتعلق بهـذا الشخص ، إن مـا فعلـناه هو أننا اقتطعنا جـزءًا من شخصيته أو نفسه وجـسدّناه في صورة حمار . وعليه إن المرأة – الفهد ، أو الفهد – المرأة ، هى كائن بشرى فى نظر البدائى ، وما الفهد فيها إلا «روح الأجم» . ولما كانت كل الحياة النفسية الخافية «= اللا شعورية» حياة حسية ومـوضوعية لدى الإنسان القديم ، كان الشـخص الموصوف بالفهد يُفتَرض أنه له روح فهد . ولو نحن ذهبنا فى التجسيد إلى أبعد من هذا، لكانت مثل هذه الروح تعيش في الأجم على صورة فهد حقيقى .

إن هذه التـوحدات identifications التى يحدثـها اسقـاط الحوادث النفسـية تخلق لدى البدائى عـالمًا لا يجد فيـه نفسه مـحاطًا بـ «الطبيـعة» وحسب ، وإنما بـ «النفس» أيضًا ، ومتوحـدًا معه إلى حدّ ما . إنه ليس سيد عالمه بأى حال ، بل جزء منه . الإنسان البدائى ، فى افريقيا مثلاً ، لم يزل بعيـدًا عن تمجيد القوى البـشرية ، ولا يحلم باعتـبار نفسه سـيد

المخلوقات . وفى تصنيفه الزولوجى لا يأتى «الإنسان العاقل» فى الذروة ، بل الفيل ، ثم يليه الأسد فالأصلة (= الشعبان الكبير) أو التمساح ، فالإنسان فالحيوانات الدنيا ولا يخطر له ببال أن بمقدوره أن يحكم الطبيعة. إنما الإنسان المتمدن هو الذى يكافح من أجل السيطرة على الطبيعة ، ولذلك يصب أعظم جهوده فى البحث عن الأسباب الطبيعية التى تعطيه مفتاح مختبر أسرار الطبيعة . وهذا ما يفسر لنا لماذا ينفر أشد النفور من فكرة القوى الاستبدادية ولا يعترف بها ؛ لأن وجود هذه القوى من شأنه أن يقدم الدليل على أن محاولته للسيطرة على الطبيعة محاولة غير مجدية .

وملاك القول إن السمة البارزة التى تسم الإنسان القديم هو موقفه من اعتباطية طوارئ الحظ أو المصادفة التى يوليها فى حوادث الكون أهمية أكبر بكثير مما يولى الأسباب الطبيعية . إن لحوادث الحظ وجهين ؛ فهى من جهة تجنح إلى الحدوث متسلسلة ، ومن جهة ثانية تتمتع بغائية ظاهرة من خلال اسقاط المحتويات النفسية الخافية (= اللا شعورية) - بعبارة أخرى من خلال «المشاركة الصوفية» . الإنسان القديم لا يصل إلى هذا التمييز قطعًا ، لأنه يسقط الحوادث النفسية بدرجة من الكمال إلى حد أنها تتوحد مع الحوادث الطبيعية . فالمصادفة عنده فعل اعتباطى وغائىّ فى آن واحد - تدخل من جانب كائن تنبض فيه الحياة - لأنه لا يدرك أن الحوادث غير العادية لا تثيره إلا بمقدار ما يخلع عليها من قوة إدهاش أو

إخافة . والحق إننا هنا نتحرك فوق أرض قلقة : هل الشيء يكون جميلاً لأنني أنسب الجمال إليه ؟ نحن نعلم جيدًا أن مفكرين لهم وزنهم تنازعوا فيما إذا كانت الشمس العظيمة هي التي تنير العالم ، أم أن العين البشرية هي التي تفعل ذلك بفضل صلتها بالشمس . الإنسان القديم يقول إنها الشمس ، والإنسان المتمدن يقول إنها العين - على الأقل بمقدار ما يفكر أصلاً وبمقدار ما لا يشكو من علة الشعراء . يجب عليه أن يجرد الصفات النفسية لكي يسيطر عليها ، وينبغي له أن يسترد جميع اسقاطاته القديمة لكي يرى عالمه موضوعيًا .

في عالم البدائي كل شيء يتصف بالصفات النفسية ؛ أي كل شيء يتمتع بعناصر النفس الإنسانية ، وبالتحديد عناصر الخافية العامة (= اللا شعور الجماعي) ؛ لأنه لا يوجد حياة نفسية فردية . وفي هذا الصدد ، يجب ألا ننسى أن ما يرمي إليه سر المعمودية المسيحية لهو أعظم تطور نفسي عرفه تاريخ الإنسانية . فالمعمودية تهب الكائن البشري روحًا وحيدة. ولا أعني ، بطبيعة الحال ، طقس المعمودية بحد ذاته بما هو فعل سحري ينتج آثاره في تأدية واحدة . إن ما أعنيه هو أن فكرة المعمودية تنتشل الإنسان من توحده القديم بالعالم وتعجل منه كائنًا يسمو على عالمه. وإن استطاعة البشرية الارتقاء إلى مستوى هذه الفكرة لهو المعمودية في أعمق مدلولاتها ، لأنها تعني ولادة «الإنسان الروحي» الذي يعلو على الطبيعة .

من بديهيـات درس الخافيـة (= اللا شعـور) أن كل محتـوى نفسى مستقل نسـبيًا يتشخّص كلما سنحت له الفرصـة . والأمثلة الواضحة على ذلك هلوسات المجانين وجلسات تحضيـر الأرواح . فكلما اسقطنا محتوى مستقـلاً ظهر لنا شخص غير مرئى ، وهو مـا يفسر لنا ظهور الأرواح فى جلسة روحانية عادية ، وظهور الأشباح على الإنسان البدائى . فإذا اسقطنا محتوى نفسيًا هامًا على كائن بشرى ، فعندئذٍ يتحول إلى «مانا» - فيتمتع عندئذٍ بقدرة إتيان الخوارق ، ويتحـول هو أو هى إلى ساحر أو ساحرة ، أو إلى إنسان يتـحدر من ذئب وما أشبـه . الاعتقاد البـدائى بأن العرّاف يلتقط الأرواح التى ضلّت ليلاً ويحبسها فى قـفص كما تحبس العصافير ، يفسر لنا هذا تفسيراً جليًا . فالإسقاطات النفسية تمنح العرّاف قوة «المانا» ؛ فهى تنطق الحيوان والشجر والحجر ، لأنهـا فاعليات نفسية تجبر المرء على طاعتهـا . لهذا السبب يقع المجنون تحت رحمة أصواته ، فـاقد الرجاء ، ذلك لأن الشىء الذى أسقطه ما هو إلا فاعليته النفسية . فبدون أن يعلم، يكون هو الذى يتكلم من خلال أصواتـه ، بمثل ما يكون هو الذى يسمع ويرى ويأتمر .

من وجهـة نظر سيكولوجـية ، يعتـبر اعتـقاد البـدائى أن قوة الحظ الاستبدادية تجيب على مقاصد الأرواح والسحر - أمرًا طبيعيًا للغاية ، لأنه نتيجة حتمية توصّل إليـها من الوقائع كما يراها . ولو أننا شرحنا وجهة نظرنا العلمـية إلى ذكىّ من الأهـلين لا تهمنا بالتـخريف والافـتقـار إلى

المنطق . فهو يعتقد أن العالم تنيره الشمس ، دون العين البشرية . وبخنى مرة صديقى ، «بحيرة الجبل» ، (وهذا هو اسمه) ، وهو شيخ قبيلة هندية من البوابلو ، وبّخنى توبيخًا شديدًا لأننى نطقت عبارة القديس أوغسطين: «ليست الشمس إلهنا ، بل خالقها» . قال لى غاضبًا وهو يحدق فى الشمس : «من يذهب إلى هناك هو أبونا وإنك تستطيع أن تراه . منه يأتى كل نور وكل حياة - ما من شىء إلا وقد خلقه هو» . ثم أخذ منه الحماس وراح يبحث عن الكلمات وقال معجبًا : «حتى الإنسان فى الجبال الذى يذهب وحيداً لا يستطيع أن يوقد ناراً من غيره» . قلما يمكن التعبير عن وجهة النظر القديمة بأجمل من هذه الكلمات . القدرة التى تحكمنا تأتى من العالم الخارجى ، ومن خلالها وحدها يسمح لنا بالحياة . وعندنا ، لم يزل الفكر الدينى يبقى على حالة العقل القديم ، رغم أن زماننا قد تجرد من الآلهة ، ومازالت ملايين لا حصر لها تفكر بهذه الطريقة .

فى حديثى عن نظرة الإنسان البدائى إلى اعتباطية الحظ ، بيّنت أن لهذا الموقف غاية يخدمها ، وبالتالى هو موقف له معناه . فهل نجازف ، على الأقل مؤقتًا ، بطرح فرضية مفادها أن الإيمان البدائى بالقوى الاستبدادية تبرره الوقائع وأنه ليس متأتيًا عن مجرد وجهة نظر سيكولوجية ؟ إن هذا يخيفنا ؛ لكن ليس فى نيّتى أن أقفز من المقلاة إلى النار وأحاول إثبات أن السحر موجود فعلاً . إن ما أريده هو النظر فى

النتائج التى نصل إليها لو أننا جارينا الإنسان البدائى فى حسبانه أن النور يأتى من الشمس ، وان الأشياء جميلة بحد ذاتها . وأن جزءاً من الروح البشرى فهد . إننا بهذا نسلّم بالفكرة البدائية : «المانا» . وبناء على هذه الفكرة ، الشىء الجميل هو الذى يهزنا ويثير إعجابنا ، ولسنا نحن الذين نصنع الجمال . إن شخصًا بعينه «شيطان» - لم نسقط عليه ما فى نفوسنا من شر ، وبهذه الطريقة نجعل منه شيطانًا . يوجد أناس - أشخاص المانا- نعجب بهم لأنهم أهل للإعجاب ، لا بتصورنا أنهم كذلك قطعًا. إن مفوم «المانا» يقوم على وجود شىء كمثل قوة موزعة على نطاق واسع فى العالم الخارجى تنتج جميع الآثار التى تخرج عن المألوف . كل شىء موجود «يفعل» ، وإلا لم يكن له وجود فعلى ؛ ولا يكون فاعلاً إلا بفضل صداقته الملازمة له أو الكامنة فيه ؛ والوود حقل من القوة . إن مفهوم «المانا» البدائية ، كما نرى ، هو من طبيعة نظرية فى الطاقة فى حالتها الخام .

كان بإمكاننا حتى الآن أن نجارى فى يسر هذه الفكرة البدائية . لكن الصعوبة إنما تنشأ عندما نحاول أن نذهب بمضامينها إلى أبعد من ذلك ؟ وعندئذ ينعكس أو ينقلب السياق النفسى الذى تكلمت عنه . هذه المضامين هى : أنها ليست مخيلتى أو رعبى ما يجعل من العرّاف ساحراً؛ إنما «هو» ساحر يسقط قواه السحرية علىّ . الأشباح ليست هلوسات من عقلى ؛ وإنما تظهر لى بإرادتها هى . رغم أن هذه الإبانات مستمدة

منطقيًا من فكرة «المانا» ، إلا أننا نتردد فى قبولها ونروح نتلفت حولنا بحثًا عن نظرية حول الإسقاط النفسى تريحنا . والمسألة ليست أقل من هذا : هل النفس عمومًا - وأعنى بها الروح أو الخافية (اللا شعور) - منبعثة منا ، أم أن النفس - وهى فى أولى مراحل وعيها - كانت خارجة عنا فعلاً فى شكل قوة استبدادية ذات مقاصد خاصة بها ؟ وهل جاءتنا تدريجيًا لتأخذ مكانها فينا فى مجرى التطور النفسى ؟ هل كانت المحتويات النفسية المنفصلة - بالاصطلاح المعاصر - أجزاء من نفوس الأفراد ، أم أنها كانت موجودة بذاتها منذ بداية كينوناتها النفسية وفقًا للنظرة البدائية على شكل أشباح أو أرواح أجداد وما أشبه ؟ هل تجسدت فى الإنسان تدريجيًا فى مجرى التطور حتى كوّنت فيه تدريجيًا أيضًا ذلك العالم الذى ندعوه بالنفس ؟

تبدو لنا الفكرة برمّتها متناقضة إلى درجة خطيرة ؛ لكن مع ذلك يمكننا أن نفهم شيئًا منها . فالمعلم الدينى والمربى يؤمنان بإمكان غرس شىء فى النفس البشرية لم يكن موجودًا فيها من قبل . إن قوة الإيحاء أو التأثير أمر حقيقى ، حتى إن أحدث المدارس السلوكية فى علم النفس باتت تأمل بالوصول إلى نتائج بعيدة المدى فى هذا المجال . الشكل البدائى يعبّر عن بنية النفس المعقدة بمعتقدات واسعة الانتشار كالمسّ والانسلاب وتجسد أرواح الأجداد وحلول الأرواح إلى غير ذلك . إذا عطس أحدنا فمازلنا نقول له : «بارك الله فيك !» ، ونعنى بذلك :

«نرجو ألا تؤذيك روحك الجـديدة ! . عندما خرجنا فى مـجرى تطورنا من تناقضات مـتعددة الجوانب وحقـقنا شخصيـة موحّدة ، كنا نعانى مما يشبه نفسًا مـؤلفةً من عناصر مختلفة انضم بعـضها إلى بعض . ولما كان الجسم البـشرى قد شُيّد بالوراثة على أساس عـدد من وحدات «مندل» ، كـان من الأمـور التى لا تخـرج عن الموضـوع تمامًا أن نقـول بأن النفس البشرية قد تم تركيب بعضها إلى بعض على نحو مماثل .

الأفكار المادية فى عصرنا لها ميل نستطيع أن نتبيّنه فى الفكر القديم، كلاهـما يؤدى إلى نتـيجـة واحدة هى أن الفـرد أثر ناتج ليس إلا . فى الحالة الأولى ، هو أثر ناتج عن الأسـباب الطبيعيـة ؛ وفى الثانية ، أثر ناتج عن حـوادث الحظ . يترتب على ذلك أن الفـرد الإنسانى فى كلـتا الحالتين لا يسـاوى شيئًا بحـد ذاته ، لأنه نتج بسائق المصادفـة عن قوى تشتمل عليها البيئة الموضوعية . وقد نشأ عن ذلك أن الفرد البشرى ليس كائنًا وحيداً أبداً ، بل يخـضع دائمًا لعملية تبادل التغييـر والتغير مع أى شيء آخر ، وأنه بالتـالى يمكن الاستغناء عنه فى يسر ؛ يسـتوى فى هذه النظرة كل من الماديّة الحديثة والفكر البـدائى القديم . وهكذا عادت المادية الحديثة فى نظرتها الضيقة للسـببية إلى نقطة انطلاق الإنسان القديم ، مع فارق أن المادى أكثـر جذرية ، لأنه أكثر تنهيـجًا ، من الإنسان القديم . لكن هذا الأخير يتمتع بميزة عليه من حـيث إنه يستثنى شخصية «المانا» . فى مجرى التـاريخ ، ارتفعت شخصيات «المانا» إلى مـقام الآلهة ، فكان منها أبطال وملوك شـاركوا الآلهة خلودها بأكلهم من طعامـها الذى يجدد

لها الشباب . إن فكرة خلود الفرد هذه وما له من قيمة لا تفنى ، نجدها في المجتمعات البدائية أولاً وقبل كل شيء فى الإيمان فى الأشباح أو الأرواح ، ثم فى أساطير العصر الذى لم يكن فيه قد دخل الموت إلى العالم عن طريق الغفلة أو الحمق البشرى .

الإنسان البدائى لا يدرى بهذا التناقض فى نظرته . لقد أكّد لى الحمّالون من الزنوج أن ليس لديهم فكرة عما سوف يحدث لهم بعد الموت ، وعندهم أن الإنسان يموت لا أكثر ؛ لا يعود يتنفس ؛ تُحمل جثته إلى الأجمَة حيث تأكلها الضبع هذا ما يعتقدون أنه يحدث له فى النهار ؛ أما فى الليل فيعجّ بأرواح الموتى التى تجلب الأمراض للماشية والإنسان ، وتهجم على السّارين تُعمل فيهم مختلف أشكال الفتك والعنف ، العقل البدائى يحفل بمثل هذه المتناقضات ، إلى من شأنها أن تخرج أوروبيًا عن جلده ، وهو الذى لا يخطر له ببال أن شيئًا كهذا يمكن أن يكون له وجود فى عالمه المتمدن . إن لدينا جامعات تعتبر فكرة التدخل الإلهى مسألة قابلة للجدل - لكن حيث اللاهوت جزء من المنهاج التعليمى . وربما عدّ باحث فى حقل العلوم الطبيعية من قبيل الأشياء البائدة أن يُنسب إلى فعل الله أصغرُ تباين فى نوع من أنواع الحيوان ، وفى الوقت نفسه قد يكون عنده فى دُرج آخر من عقله إيمان مطلق بالمسيحية يطيب له أن يعرضه أيام الآحاد . إذن ، لماذا نتعب أنفسنا حول تناقض الإنسان البدائى ؟

لا يمكننا استخلاص منهج فلسفى من أفكار الإنسان البدائى الأولية ؟ لأنها لا تمدّنا إلا بالمتناقضات أو المتضادات ، ومع ذلك إن فى هذه المتناقضات معينًا لا ينضب لكل المجهود العقلى ، إذ تطرح علينا مشكلات الفكر فى جميع العصور والمدنيات . هل «الأفكار الجامعة» لدى الإنسان القديم أفكار عميقة حقًا ، أم أنها تبدو كذلك ويمكننى أن أتحدث عن شىء كنت لاحظته عندما كنت مقيمًا بين ظهرانى قبيلة «جبل ايلكون». لقد بحثت ونقبت ، فى البعد والعمق ، عن أثر لأفكار دينية واحتفالات وطقوس ، لكنى لم أعثر على شىء بعد أسابيع من البحث والاستقصاء . لقد أتاح لى الأهلون أن أشاهد كل شىء أردت مشاهدته ، وكانوا فى منتهى السخاء بمعلوماتهم تكلمت معهم دون وساطة من ترجمان ، لأن كثيراً من الطاعنين فى السن كانوا يتكلمون «السواحلية» . فى بادئ الأمر ، كانوا كارهين للغاية ، لكن ما إن انكسر الجليد حتى قابلونى بحفاوة بالغة . لم يكونوا يعرفون شيئًا عن عادات دينية ، لكنى لم يتطرق إلىّ اليأس ؛ ففى ختام واحدة من محادثاتنا الكثيرة غير المثمرة، إذا رجل عجوز يقول بصوت : «فى الصباح ، عندما تطلع الشمس ، نغادر أكواخنا ، ونبزق بأيدينا ، ثم نرفعها إلى الشمس » . طلبت منه أن يؤدوا الطقس بحضورى وأن يصفوه لى بالضبط ففعلوا . وضعوا أيديهم أمام أفواههم ، وبزقوا أو نفخوا فيها نفخًا شديدًا . ثم راحوا يقلبون أيديهم ويرفعون راحات أكفهم نحو الشمس . ولما سألتهم عن معنى هذا الذى فعلوه - لماذا نفخوا أو بزقوا بأيديهم ، وكان سؤالى

لا جدوى منه ، قالوا : «إن هذا ما نفعله دائمًا» . لقد كان من المستحيل الوصول إلى تفسير له عندهم ، وبتُّ مقتنعًا أعظم اقتناع أنهم لا يعرفون إلا ما فعلوا ، لكنهم لا يعرفون لماذا فعلوه . إنهم لا يرون لفعلهم معنى. ثم إنهم يحيّون القمر الجديد بنفس الحركات .

هب أننى غريب تمامًا عن مدينة زيورخ وقد جئت هذه المدينة بغية الكشف عن عاداتها . فأول مكان أحل فيه هو مشارف المدينة القريبة من بعض بيوت الضاحية ، ثم آتى لأتصل بسكانها من قريب فأقول للسيدين مولر وموير : «أخبرنى من فضلك عن بعض عادات ديانتكم» ؛ يفاجأ الرجلان بالسؤال ، لأنهما لا يترددان إلى الكنيسة أبدًا ، ولا يعرفان عنها شيئًا ، ويؤكدان أنهما لا يمارسان عادة من العادات الدينية .

لكنى ذات صباح أفاجىء السيد مولر يقوم بعمل غريب . رأيته يدور حول الحديقة ، يخبىء بيضًا ملونًا ، وينصب تماثيل غريبة من الأرانب . لقد أمسكت به متلبسًا «الجرم المشهود» . فأسأله : «لماذا أخفيت عنى هذا الطقس البالغ الأهمية ؟» . فيجب : «لا شىء» ، كل شخص يفعل هذا فى عيد الفصح» ، . فأسأله أيضًا : «لكن ما معنى هذا البيض وهذه التماثيل- ولماذا تخفيها ؟» ، فيبهت ولا يحير جوابًا . إنه لا يعلم ، ولا يعلم ما معنى شجرة الميلاد . لكنه يفعل هذه الأشياء مع ذلك . إنه مثل الإنسان البدائى تمامًا فهل كان أسلاف الزنوج فى جبل ايلكون يعلمون

ماذا كانوا يصنعون ؟ إن هذا احتمال بعيد . الإنسان القديم يفعل ما يفعل، لكن الإنسان المتمدن يعرف ماذا يفعل .

ما معنى الطقس الذى يمارسهُ «الإيلكونى» الذى رويته لتوّى ؟ واضح أنه قربان للشمس التى هى عند الأهلين «مونَغُو» - أى «مانا» أو إلهية - عند لحظة الشروق فقط . فإذا بزقوا بأيديهم فمعنى ذلك ، فى الاعتقاد البدائى ، أن البزاق هو المادة التى تحتوى على «المانا» الشخصية ، وهو القوة الشافية التى تستحضر الحياة وتمنحها المدَدَ . وإذا نفخوا بأيديهم فالنَفَس هو الريح والروح ، «روحو» ، وهو فى العربية «روح» ، وفى العبرية «رُواخ» ، وفى اليونانية «نيوما» . فالطقس معناه : «أقدم روحى الحية لله» ؛ صلاة لا كلام فيها ، صِلاة تأدية أو فعل ، كان يمكن أن يُنطَق بها كما يلى : «أيها الرب ، فى يديك أستودع روحى»[1] . هل هذا مجرد اتفاق أو مصادفة ، أم أن هذه الفكرة كانت مبطونة ومقصودة قبل أن يوجد الإنسان ؟ لا يسعنى إلا أن أترك هذا السؤال بلا جواب .

(١) انظر انجيل لوقا ٢٣ : ٤٦ «ونادى يسوع بصوت عظيم قائلاً يا أبت فى يديك أستودع روحى . . .» . المترجم .

الفصل الثامن
علم النفس والأدب

من الأمور الجليّة أتم الجلاء أن علم النفس ، بما هو درس للسياقات النفسية ، يمكننا الاستفادة منه في درس الأدب ؛ وذلك لأن النفس الإنسانية هى الرحم التى تحتضن جميع العلوم والفنون . ولعلنا نأمل من البحث السيكولوجى أن يفسر لنا تشكل العمل الفنى من ناحية ، وأن يكشف لنا عن العوامل التى تجعل من شخص ما مبدعًا فنيًا من ناحية ثانية . وبذلك يجد العالم النفسى نفسه أمام مهتمين منفصلتين ومتمايزتين، ويتعين عليه أن يفهمهما بطريقتين مختلفتين اختلافًا عظيمًا .

فى حالة العمل الفنى ، يقتضى أن نتعامل مع نتاج صادر عن فاعليات نفسية بالغة التعقيد ، لكنه يقتضى أن نتعامل مع الجهاز النفسى ذاته . فى الحالة الأولي ، يجب علينا تحليل أثر فنى محسوس محدد تحليلاً نفسيًا ؛ بينما فى الثانية ، يجب علينا تحليل الكائن البشرى المبدع

الحى بما هو شخصية مفردة . ورغم أن هاتين المهمتين متصلتان فيما بينهما برباط وثيق حتى لا غنى لإحداهما عن الأخرى ، إلا أن واحدة منهما لا يمكنها أن تمدنا بالتفسيرات التى تريدها الأخرى ، يمكننا -بطبيعة الحال- أن نستخلص بعض النتائج المتعلقة بالفنان من عمله الفنى ، والعكس بالعكس ؛ لكن هذه الاستنتاجات ليست حاسمة أبدًا ، وليست نهائية ؛ وإنما هى فرضيات محتملة أو تخمينات موفقة ، فى أحسن الأحوال . إن معرفتنا بعلاقة «غوته» الخاصة بزمه تُلقى شيئًا من الضوء على صيحة «فاوست» : «الأمهات . . الأمهات . . ما أغرب سماعَ هذه الكلمة !» لكن هذه المعرفة لا تُتيح لنا أن نرى كيف أمكن لعلاقته بأمه أن تنتج دراما «فاوست» بالذات ، مهما كنا مصيبين فى تحسسنا بما فى شخص «غوته» من صلة عميقة بأمه ، كذلك لن نكون أكثر توفيقًا فى حكمنا لو أننا اتخذنا الوجهة المضادة . وإذا جئنا إلى «واغنر» لم نجد فى «خاتم النبلونغز» ما يمكننا من التعرف أو الاستنتاج بصورة محددة بأن «واغنر» كان يجب أن يرتدى عرَضًا ملابس شبيهة بملابس النساء ، بالرغم من وجود صلات خفية بين عالم الذكورة البطولى ، عالم «النبلونغز» ، وبين ميول أنثوية معينة ذات طبيعة مَرَضية فى «واغنر» الرجل .

الحالة الراهنة من تطور علم النفس لا تسمح لنا بأن نقيم تلك الروابط السببية الصارمة التى نتوقعها من العلم . فنحن لا نستطيع أن نعمل بفكرة السببية ، ونحن على ثقة مما نعمل ، إلا فى نطاق المنعكسات

والغرائز السيكو-فيزيولوجية . ينبغى على عالم النفس أن يكتفى ، انطلاقًا من النقطة التى تبدأ فيها الحياة النفسية - أى المستوى البالغ التعقيد- أن يكتفى بوصف الحوادث وصفًا يتفاوت سعةً أو ضيقًا ، وبالتصوير الحى لسَدَى العقل ولحمته بكل ما فيه من تشابك يبعث على الذهول . وينبغى عليه ، بعمله هذا ، أن يمتنع عن اعتبار أى سياق نفسى واحد ، مأخوذًا على حدة ، سياقًا «ضروريًا» . ولو كانت الحال على خلاف ذلك ، واستطاع عالم النفس أن يركن إلى الكشف عن الصلات السببية فى داخل العمل الفنى وفى سياق الخلق الفنى ، لما ترك لدرس الفن أرضًا يقف عليها ، ولجعل منه فرعًا خاصًا من علمه . وعالم النفس ربما لا يتخلى عن الإدعاء بأنه إنما يبحث فى العلاقات السببية ، وأنه إنما يقيم هذه العلاقات فى الحوادث النفسية المعقدة . وهو لو فعل ذلك لأنكر على علم النفس حق الوجود . لكنه ، مع ذلك ، لا يستطيع أبدًا أن يبرهن على صحة دعواه هذه بالمعنى الأوسع ، لأن الجانب الإبداعى من الحياة ، الذى يعبر عن نفسه فى العمل الفنى على أوضح ما يكون التعبير، يحبط جميع المحاولات التى ترمى إلى صياغته صياغة عقلية . كل رجع (= رد فعل) على حافز يمكننا أن نفسره تفسيرًا سببيًا ؛ لكن فعل الإبداع ، الذى هو الترتيب غير المقيد بمجرد الرجع ، سوف يظل مستعصيًا أبدًا على الفهم البشرى . يمكننا أن نصف مظاهر فعل الإبداع فقط ؛ يمكننا أن نتحسسه تحسسًا غامضًا ، لكن لا يمكننا أبدًا الإحاطة به إحاطة تامة . ولسوف يظل علم النفس ودرس الفن يتجه كل منهما نحو

الآخر ويستمد منه العـون دائمًا ، ولن يلغي أحدهما الآخر . من المبادىء الهامـة فى علم النفس أن الحوادث النفسيـة ذات صفة اشتـقاقية (= غـير أصلية) ، ومن المبـادىء الهامة فى درس الفن أن الـناتج النفسى شيء فى ذاته ومن أجل ذاته ، لا فرق بين أن يكون موضـوع البحث العمل الفنى أو الفنان نفسه . كلا المبدئين صحيح على الرغم من نسبيتهما .

١ - العمل الفنى :

ثمة فرق أساسى فى الفهم بين عالم النفس فى فحصه العمل الفنى، وبين الناقد الأدبى . ما هو ذو أهمـية وقيمة حاسمـتين عند هذا الأخير ، ربما يكون غير وارد عند الأول . فـالنتاج الأدبى ذو القيمة المشكوك فـيها هو - فى الأغلب - ذو أهمـية عظمى لـدى عالم النفس . فـعلى سبـيل المثال ، ما يسـمى بـ «الرواية السيكولوجية» لا ينال عـالم النفس مكافأته منها كما يحسب صاحب العقل الأدبى . مثل هذه الرواية ، منظوراً إليها فى كليّتهـا ، إنما تفسر نفسهـا بنفسها . فـقد أدت مهمـتها فى التفـسير السيكولوجى ، وإن أقصى ما يستطيع أن يفعله عالم النفس هو أن ينقدها أو يتوسع فيـها . والسؤال الهام المتعلق بكيـفية قيام مـؤلف معين بكتابة رواية بعينها يبـقى بلا جواب بطبيعـة الحال ؛ لكنى أود إرجاء بحث هذه المشكلة العامة إلى الجزء الثانى من هذا الفصل .

الروايات التى تعود بأكثـر النفع على عالم النفس هى الروايات التى لا يعطى فيها المؤلف تفسيرًا سيكولوجيًا لشـخصياته ، بل يدع فيها مجالاً للتحليل والتفسير ، أو الروايات التى تستثير اهتمامه بالأسلوب الذى تقدم به نفسـهـا . والأمـثلة التى تنطبق على هذا الـنوع هى روايات «بنوا» ، والخيال الإنجـليزى على طريقة «رايدر هكارد» ، ويندرج فى هـذا النوع أيضًا ذلك الرفـد الذى استـرفده «كونان دويل» فأثمـر إنتاجًا لقى أعظم الإقبال ، وأعنى به القصص البـوليسى . كذلك تأتى رواية (موبى ديك) لـ «ملفيل» ، التى أعتبرهـا أعظم رواية أمريكية ، فى نطاق هذا النوع من الكتابة . الحكاية المثـيرة التى تخلو ظاهريًا من العـرض السيكولوجى هى أكـثر مـا يهم عـالم النفس . فـبناء هذه الحكاية يقـوم على أسـاس من المسلّمات السـيكولوجية الضمنيـة ، وكلما كان المؤلف غيـر عارف بها ، أسفرت عن نفسها أمام البصيرة النـاقدة صافيةً لا تشوبها شائبة . أما فى الرواية السيكولوجية فنجد المؤلف يحاول أن يصوغ مادته صياغة ثانية لكى يرفـعـها من مـسـتـوى الحـدث الخام إلى مـسـتـوى العـرض والتنوير السيكولوجيين ؛ وهو إجراء كثيرًا ما يجعل المغزى السيكولوجى من عمله غامـضًا أو محـجوبًا عن الأنـظار . إن مثل هذه الروايات لهى بالضـبط الروايات التى تحمل غـير صاحب الاخـتصاص علـى أن يُقبل على «علم النفس» على حين أن الروايـات من النوع الآخر هـى التى تتحـدّى عـالم النفس ، لأنه هو وحده الذى يستطيع أن يمنحها معنى أعمق .

حتى الآن لم أتكلم إلا عن الرواية ، لكنى بصدد حقيقة سيكولوجية لا تقتـصر على هذا الشكل من الفن الأدبى . هذه الحقـيقة نصادفـها عند الشعـراء أيضًا ، وتواجهنا عندما نـقارن القسم الأول والقـسم الثانى من دراما «فاوست» فالحب المأساوى عند «غريتشن» يفسر نفسه بنفسه ، إذ لا يسع عالمَ النفس أن يضيف إليـه شيئًا لم يقله الشاعر بكلمـات خير من كلماته . أما القسم الثانى فيقـتضى التفسير . فرواية «فاوست» توضح ، عن طريق التطرف فى كلا الاتجاهين ، هذا التميـيز السيكولوجى فيما بين الأعمال الأدبية .

ولكى أبرز هذا التمـييز ، رأيت أن أدعـو أحد الأسلوبين من الخلق الفنى سيكولوجيًا ، والثانى رؤيويًا . فـالأسلوب السيكولوجى يتعامل مع المواد المستفادة من مجال الواعية البشرية ، يتعامل مع الدروس المستفادة من الحيـاة ، مع الصدمـات العاطفـية ، مع مـعاناة الهـوى وأزمات المصـير الإنسـانى عـمومًا – كل من هـذه المواد يسهم فـى تكوين حيـاة الإنسـان الواعية، وحياته الشعورية على وجه الخصوص . والشاعر يتمثل هذه المادة نفسيًا ، فيرتفع بها من مستوى العامـية إلى مستوى التجربة الشعرية ويتم التعبـير عنها بطريقة تجبـر القارىء على الوصول إلى نفاذ بصـيرة بشرية أوضح وأعمق ، عن طريق استحضاره أمام واعـيته ما كان يتهرب منه فى العادة ، أو يتغاضى عنه ، أو لا يحـسّه إلا بشعور من الانزعاج البارد . إن عمل الشاعر هنا تفسير وتجلية لما تنطوى عليه واعيته وللاختبارات التى

لا مناص للإنسان من اختبارها في حياته بما يتناوب عليه من أفراح وأتراح. فهو لا يترك لعالم النفس شيئًا - اللهم إلا أن نأمل من هذا الأخير أن يعرض أمامنا الأسباب التي جعلت «فاوست» يقع في حب «غريتشن» أو الأسباب التي جعلت «غريتشن» تقتل ابنها! مثل هذه الموضوعات تذهب إلى حد صنع قدر الإنسان ؛ تكرر نفسها ملايين المرات، وإليها ترجع الرتابة في محاكم البوليس وفي القانون الجنائي ؛ لا يكتنفها الغموض لأنها تفسر نفسها بنفسها على أوضح ما يكون التفسير .

والأعمال الأدبية التي تندرج تحت هذا التصنيف لا حصر لها : فمنها الروايات الكثيرة التي تعالج شئون الحب والبيئة والعائلة والجريمة والمجتمع، ومنها الشعر التعليمي ، والجانب الأكبر من الشعر الغنائي ، ومنها الدراما في فرعيها التراجيدي والكوميدي . مهما كان الشكل الخاص الذي يتخذه العمل الفني السيكولوجي ، يظل يأخذ مادته من المجال الواسع من الخبرة الإنسانية الواعية - من واجهة الحياة ، إن جاز لنا التعبير . وإنما سميت هذا اللون من الإبداع الفني سيكولوجيًا لأنه لا يتجاوز في فعاليته قابلية الفهم السيكولوجي . فهذا اللون من الإبداع ، سواء كان خبرة أم كان هو التعبير عنها ، إنما يدخل نطاق ما يمكن فهمه. حتى الخبرات الأساسية نفسها التي تكوّن مادة العمل الفني ليس فيها ما يدعو إلى الاستغراب بالرغم من كونها غير عقلية ؛ وإنما على العكس ،

فهذه الخبرات كانت معروفة منذ بداية الزمان : الهوى ونتيجته المحتومة ، خضوع الإنسان إلى تقلبات القدر ، الطبيعة الخالدة وما تحويه من جمال وجلال .

الفرق العميق الذى نحسّه بين القسمين الأول والثانى من «فاوست» يعلّمنا الفرق بين الإبداع الفنى السيكولوجى والرؤيوى . إن هذا الأخير يعكس جميع شروط الأول . فالخبرة التى تقدم مادة التعبير لا تعود خبرة مألوفة ، بل شيء غريب يستمد وجوده من الأرض الواقعة فى مؤخرة عقل الإنسان ؛ تلك الأرض التى تشعرنا بهاوية الزمان الذى يفصلنا عن عصور ما قبل البشرية ، أو تذكرنا بعالم فوق - بشرى يتلاقى فيه النور والظلام. إنها خبرة بدئية تتجاوز فهم الإنسان ، ولذلك هو فى خطر من الخضوع لها . إن قيمة الخبرة وقوتها مستمدتان من هائليتها . فهى تصدر عن أعماق لا زمان لها ؛ وهى غريبة ، باردة متعددة الجوانب ، شيطانية، حافلة بالزخرفة ؛ نموذج من عماء الأزل يبعث على الضحك فى شيء من العبوس ؛ «جريمة بحق جلالة قدر الإنسان» على حد تعبير نيتشه ؛ تفجر مقاييسنا البشرية وأشكالنا الإنسانية الجمالية . إن الرؤية التى تستثير الحوادث المهولة ، الخالية من المعنى ، الرؤية التى لا يدركها العقل ولا الشعور والإنسانى - إن هذه الرؤية لتلقى على كاهل الفنان مطاليب أخرى غير التى تلقيها اختبارات واجهة الحياة . فهذه لا تميط لنا اللثام الذى يحجب عنا الكون ، ولا تتخطى حدود الممكن البشرى ؛ ولذا

كانت على استعداد لأن تتشكل وفقًا لمتطلبات الفن ، مهما كانت صدمتها عنيفة على الإنسان . لكن الخبرات البدئية تبدأ ، من السطح إلى القاع ، بتمزيق الحجاب المتمثل فى صورة عالم منظم ، وتتيح رؤية خاطفة لما لم يدخل بعد فى عالم الصيرورة وهو لما يزل فى عمق الهاوية التى لا قرار لها . أهى رؤية عوالم أخرى ، أم هى إظلام للروح ؟ أهى بداية الأشياء قبل خلق الإنسان ، أم هى أجيال المستقبل التى لم تولد بعد ؟ لا نستطيع أن نقطع بأنها أحد هذه الأشياء ، أو أنها ليست واحدًا منها .

التسوية - وإعادة التسوية

الالهية الابدية للروح الابدية . (غوته)

مثل هذه الرؤية نجدها فى (راعى هرماس) عند «دانتى» ، وفى الجزء الثانى من (فاوست) ، وفى البذخ الديونيسى عند «نيتشه» ، وفى خاتم نبلونغر عند «واجنر» ، وفى (الربيع الأولمبى) عند «سبتلر» ، وفى شعر «وليم بليك» وفى (ابنيروتوماكيا) عند الراهب «فرنسيسكوكولونا» ، وفى اللعثمات الفلسفية والشعرية عند «يعقوب بوهمه» . وعلى نحو أكثر تحديدًا وتخصيصًا ، تمدّ الخبرة البدئية «رايد هكارد» بمادة العجلة الخيالية التى تدور على «هى» ، she ، وتفعل الشيء نفسه لدى «بنوا» ولا سيما فى (الأطلانطيد) ، ولدى «كوبن» فى (Die andere seite) ، ولدى «ميرنك» فى (Das Griine Gesicht) - وهو كتاب لا يجوز إغفال

أهميته ، ولدى «فوتس» فى (Das Reich Ohne Raum) ، ولدى «برلاخ» فى (Der Tate Tag) ؛ وكان يمكن أن نتوسع فى ذكر أعمال وأسماء لغير هؤلاء .

فى تعاملنا مع الأسلوب السيكولوجى من الإبداع . لا نحتاج لأن نتساءل عن مادته مم تتكون ، ولا عن معناه إلامَ يرمى ؟ لكن هذا السؤال يفرض نفسه علينا ما إن نأتى إلى الأسلوب الرؤيوى من الإبداع . عندئذٍ نندهش ، ونؤخذ على حين غرة ، وتختلط علينا الأشياء ، ونحترس بل حتى نشمئز ، ثم نطلب الشرح والتفسير . هذا اللون من الإبداع لا يذكرنا بشيء من حياتنا الإنسانية اليومية ، بل بالأحلام ومخاوف الليل وتجاويف العقل المظلمة التى نحسها أحيانًا فى شيء من الإرتياب . وجمهور القراء ، فى معظمه ، يرفض هذا اللون من الكتابة - اللهم إلا أن يكون بالغ الروعة حقًا - بل حتى الناقد الأدبى يشعر بالإرتباك حياله. صحيح أن «دانتى» و «واجنر» قد مهّدا الطريق أمام فهم أعمالهما؛ إلا أن الخبرة الرؤيوية عند «دانتى» مجلببة بجلباب مقدمة من الوقائع التاريخية ، وعند «واجنر» بجلباب الحوادث الميثولوجية - حتى لكأن التاريخ والميثولوجيا هما المادتان اللتان تدور حولهما صناعة هذين الشاعرين . أما «رايدر هكارد» ، مع التسامح الشديد ، فيعتبر بعامة لا أكثر من مخترع الخيال . لكن حتى هذا ، القصة عنده ما هى إلا وسيلة للتعبير عن مادة ذات مغزى ، فى الدرجة الأولى . مهما بدت الحكاية طاغية على المضمون ، يظل المضمون راجحًا على الشكل .

إن الغموض الذى يكتنف مصادر مادة الإبداع الرؤيوى لهو غموض غريب حقًا ، وهو بهذا يقف على النقيض مما نجده فى أسلوب الإبداع السيكولوجى ؛ حتى إنه ليحملنا على الشك فى أن هذا الغموض لم يكن بالأمر المقصود ؛ بل نحن نميل - بطبيعة الحال - إلى الظن (وسيكولوجية «فرويد» تشجعنا على ذلك) بأن ثمة خبرة شخصية على مستوى عال تقف وراء هذا الظلمة الباذخة . وبذلك يكون لنا أمل بتفسير هذه اللمحات الغريبة من العماء ، وبفهم الأسباب التى تجعل الشاعر يبدو أحيانًا وكأنه يخفى عنا عامدًا خبرته الأساسية . وما هى إلا خطوة نخطوها فى هذه الطريقة من النظر إلى المادة حتى نصل إلى القول بأننا هنا إنما نتعامل مع فن مَرَضى أو عُصابى ؛ وهى خطوة لها ما يسوغها بمقدار ما تبدى مادة المبدع الرؤيوى من ملامح بعينها نجدها فى تخيلات المجانين . والعكس صحيح أيضًا ؛ فكثيرًا ما نكتشف فيما ينتجه عقل المجنون من ثروة فى المعنى هى ما نتوقعه من أعمال إنسان عبقرى .
العالم النفسى الذى يتبع مدرسة «فرويد» يميل - طبيعة الحال - إلى اعتبار الكتابات المذكورة مشكلة من مشاكل علم الأمراض . فهو إنطلاقًا من الافتراض بأن خبرة شخصية تقف وراء ما أدعوه بـ «الرؤية البدئية» ، (وهى خبرة لا يمكن أن تقبل بها النظرة الواعية) ، يحاول أن يفسر صور الرؤية الغريبة على أنها أشكال تمويهية ، ويفترض أنها تمثل محاولة لإخفاء الخبرة الأساسية . وبحسب هذه النظرة ، قد تكون هذه الخبرة

خبرة حب تتعارض أخلاقيًا أو جماليًا مع الشخصية فى مجملها ، أو على الأقل مع تخيلات العقل الواعى . ولكى يستطيع الشاعر ، من خلال أنيّته ، أن يكبت هذه الخبرة ويخفيها إخفاء لا يسمح بالتعرف عليها ، يعمد إلى استدعاء كل مصنع الخيالات إلى العمل . زد على ذلك ، إن هذه المحاولة من استبدال الخيال بالواقع ، بما هى غير كافية ، ينبغى أن تتكرر فى سلسلة طويلة من التجسيدات الإبداعية . وهذا يفسر لنا وفرة الأشكال الخيالية ، وكلها مهول وشيطانى ، باذخ ومنحرف . فهى ، من ناحية ، إبدال للخبرة غير المقبولة ؛ وهى ، من ناحية أخرى ، تساعد على إخفاء الخبرة .

رغم أن البحث فى شخصية الشاعر واستعداده النفسى يدخل فى نطاق القسم الثانى من هذا الفصل ، أجدنى مضطرًا ههنا إلى تناول نظرة «فرويد» للعمل الفنى الرؤيوى ؛ لسبب واحد هو أنها قد أثارت اهتمامًا كبيرًا ، ثم إنها كانت المحاولة الوحيدة المعروفة جيدًا وكان المقصود منها إعطاء تفسير «علمى» لمصادر المادة الرؤيوية ، أو صياغة نظرية عن السياقات النفسية التى تعمل من وراء هذا النمط الغريب من الإبداع الفنى. وفى نفس الوقت ، أفترض أن نظرتى الخاصة إلى الموضوع ليست معروفة جيدًا أو مفهومة عمومًا . بهذه الملاحظة الأولية ، سأحاول الآن عرضها بإيجاز .

لو أصررنا على القول بأن الرؤية مستمدة من الخبرة الشخصية ، لكان علينا أن نعاملها باعتبارها شأنًا ثانويًا ، مجرد تعويض عن الواقع ، فتكون النتيجة أننا نجرد الرؤية من صفتها البدئية ولا نعتبرها أكثر من عَرَض مَرَضى ؛ وعندئذٍ تتقلص دنيا العماء الحبلى وتغدو أجزاء من الاضطراب النفسى . بهذا التفسير للموضوع نشعر بالاطمئنان ، ونعود ثانيةً إلى الصورة التى كوّناها عن الكون البالغ التنظيم . وبما أننا أناس عمليون وعقلاء ، لا نأمل من الكون أن يكون كاملاً ، فنقبل هذه العيوب التى لا مناص منها ونسميها شواذّ وأمراضًا ، ونعتبر كون الطبيعة البشرية غير مستثناة منها أمرًا مسلمًا به . أما اكتشافنا المرعب للهاويات التى تتحدى العقل البشرى فنصرفها على أنها الوهم ، وننظر إلى الشاعر على أنه ضحية الخداع . حتى بالنسبة إلى الشاعر ، إنه خبرته البدئية «بشرية . . كلها بشرية إلى حد الإفراط» ، إلى حد أنه لا يستطيع أن يواجه معناها فيضطر إلى إخفائها عن نفسه .

وأظن أننا نحسن صنعًا لو أننا بيّنا بجلاء جميع ما ينطوى عليه ذلك النوع من التفسير الذى يرد الإبداع الفنى إلى العوامل الشخصية ؛ إذن لرأينا بوضوح إلى أين يفضى بنا . والحق إنه يذهب بنا بعيدًا عن دراسة العمل الفنى دراسة سيكولوجية ، ويضعنا وجهًا لوجه أمام الاستعداد النفسى لدى الشاعر . أن يطرح علينا هذا الأخير مشكلة خطيرة فهذا ما لا يمكن نكرانه ؛ لكن يظل العمل الفنى شيئًا قائمًا بذاته ولا يجوز صرف

النظر عنه . إن مسألة الأهمية التى يعلقها الشاعر على عمله الفنى - مسألة اعتباره له شيئًا تافهًا ، أو ستارًا ، أو مصدرًا للألم ، أو انجازًا - هذه المسألة لا تعنينا فى الوقت الحاضر ، باعتبار أن مهمتنا الآن هى تفسير العمل الفنى تفسيرًا سيكولوجيًا . ومن أجل هذه المهمة ، من الضرورى أن نولى الخبرة الأساسية الكامنة وراءه اهتمامًا كبيرًا ، وأعنى بها الرؤية . إذ يتعين علينا أن نتناولها بمثل الخطورة التى نتناول بها الاختبارات التى تكمن وراء الأسلوب السيكولوجى من الإبداع الفنى ؛ وما من شك فى أن كليهما يتصف بالواقعية والخطورة . والحق إن الخبرة الرؤيوية تبدو وكأنها شيء منفصل عن قدر الإنسان العادى ، ولهذا السبب نجد صعوبة فى الاعتقاد بأنها أمر واقعى . فهذه الخبرة يحوم حولها شيء من سوء الطالع يوحى لنا بالغموض الميتافيزيقى والخفاء الغيبى ، حتى لنشعر أننا مدعوون إلى التدخل باسم المعقولية الهادفة . فتكون النتيجة أننا نحسن صنعًا لو لم نسرف فى أخذها على محمل الجد، لئلا يعود العالم ثانية إلى الخرافات المظلمة . قد يكون فينا ميل إلى عالم الأسرار ، بطبيعة الحال ؛ لكننا ، فى العادة ، نعتبر الخبرة الرؤيوية نتيجة للخيال الخصب أو المزاج الشاعرى - أى ، نعتبرها نوعًا من الترخّص الشعرى الذى نفهمه بطريقة سيكولوجية . بعض الشعراء يشجع على هذا النوع من التفسير لكى يقيم مسافة كبيرة بينه وبين عمله . فعلى سبيل المثال يتمسك «سبتلر» تمسكًا شديدًا بأن الشاعر سواء لديه أن يغنى «الربيع الأولمبى» أو «ليكن هنا !» . والحقيقة إن الشعراء بشر ،

وما يقوله الشاعر فى عمله هو - فى الغالب - أبعد ما يكون عن القول الأوضح في الموضوع . والمطلوب منا لا يقل عن الدفاع عن أهمية الخبرة الرؤيوية تجاه الشاعر نفسه وتحققها . ولا أساس للزعم بأن الجزء الثانى من «فاوست» يتنكر أو يخفى الخبرة الإنسانية العادية التى نجدها فى الجزء الأول ؛ كذلك لا يسوغ لنا الزعم بأن «غوته» كان طبيعيًا عندما كتب الجزء الأول ، وفى حالة عُصابية عندما كتب الجزء الثانى . يمكننا اعتبار «هرماس» و «دانتى» و «غوته» بمثابة ثلاث خطوات أو درجات فى سلّم يغطى ألفى سنة من التطور البشرى تقريبًا ، فى كل منها نجد حكاية الحب الشخصية لا ترتبط بالخبرة الرؤيوية الأثقل وزنًا وحسب ، وإنما تخضع لها خضوعًا صريحًا . وعلى أساس من هذه الدلالة التى يمدنا بها العمل الفنى نفسه ، وتقذف بعيدًا مسألة الاستعداد النفسى الخاص لدى الشاعر ، يتعين علينا أن نسلم بأن الرؤية تمثل خبرة أبعد غورًا وأشد قوة من العاطفة البشرية . فى هذا النوع من الأعمال الفنية - ويجب ألا نخلطها أبدًا بالفنان بما هو شخص - لا نستطيع أن نشك فى أن الرؤية إن هى إلا خبرة بدئية أصيلة ، بقطع النظر عما قد يقوله المتاجرون بالعقل . الرؤية ليست شيئًا مستمدًا من غيره ، ولا شيئًا ثانويًا ، ولا هى عَرَض من شىء آخر . إنها تعبير رمزى حقيقى - أى تعبير عن شىء موجود بذاته ، لكنه معروف معرفة غير تامة . حكاية الحب خبرة حقيقية يعانى منها الإنسان معاناة حقيقية ؛ وما يصح على خبرة الحب يصح

أيضًا على خـبرة الـرؤية . لسنا بحـاجة لأن نحـاول تعـيين ما إن كـان محتوى الرؤية ذا طبيـعة فيزيائية أو نفسية أو ميتافـيزيائية . فهى ، بحد ذاتها ، حقيـقة نفسية؛ والحقيقـة النفسية لا تقل عن الحقيقـة الفيزيائية . العاطفة البـشرية تقع فى نطاق الخبرة الواعية ، بينمـا يقع موضوع الرؤية فيما وراءها . من خلال مشاعرنا نختبر ما هو معلوم ، لكن حدسنا يشير إلى أشيـاء غير معلومـة ، أشياء خبـيثة ؛ أى ، سـرية بحكم طبيعتـها بالذات . وإذا اتفق لها وأصبحت واعية (= أى دخلت فى نطاق الوعى)، فمـا تلبث حتى تتمنع وتختـفى عن عمد ؛ وهذا هو السـبب الذى جعل الناس ينظرون إليـها - منذ أقدم الأزمـنة - على أنها غامـضة خـادعة . الرؤية عصيّة على تفـحص الإنسان لها ، بل إنه يتعمد أن يحـجب نفسه عنها بسبب «الديزيدمونيا»[1] ، ويقى نفسه منها بترس من العلم ودرع من العقل . فالإنسان إنما وُلدت استـتارته من الخوف ؛ فى النهار يؤمن بعالم منظم ، ويحاول أن يتـشبث بهذا الإيمان خوفًا من العـماء الذى يؤرقه أو يقلقه فى الليل . مـاذا لو كان هناك قوة حيـة يقع نطاق فعلها فـيما وراء عالمنا اليومى؟ هل ثمة احتياجات بشرية لا يمكن الاستغناء عنها أو تجنبها؟ هل ثمـة شيء قصـدى أكثـر من الكهارب (= الإلكتـرونات) ؟ تُرى هل نخادع أنفسنا عندما نظن أننا نملك نفـوسنا ونتحكم فيها ؟ هذا هذا الذى

(١) Deisidaemonia هذه الكلمة لم نعثر عليها فى المعاجم الإنجليـزية التى بحوزتنا ، لكن تركيبها يوحى بأن فيـها «الألوهة» و «الشيطان أو العفريت» و «المرض العقلى» - المترجم - .

يسميه العلم باسم «سايكى» (= النفس) ليس مجرد علامة استفهام محصورة فى نطاق الجمجمة بصورة اعتباطية ، أم أنه باب مفتوح على عالم الإنسان من عالم آخر ، يسمح حينًا بعد آخر لقوى غريبة لا تُدرك بأن تؤثر فى الإنسان وتزعجه عن مستوى البشرية العامية وتنقله إلى مستوى أحفل بالهموم الشخصية ، كما تؤثر فى أجنحة الليل ؟ وعندما ننظر فى النمط الرؤيوى من العمل الفنى ، يبدو لنا كما لو أن حكاية الحب كانت مجرد فدام[1] مفضوض ؛ كما لو أن الخبرة الشخصية لم تكن غير مقدمة لـ «الكوميديا الإلهية» ، الكليّة الأهمية .

إن المبدع فى هذا اللون من الفن ليس وحده الذى له صلة بالجانب المظلم من الحياة ، بل الراؤون والأنبياء والمنّورون أيضًا . مهما كان هذا العالم الليلى مظلمًا ، فهو ليس عالمًا غير مألوف كليّةً ؛ لقد عرفه الإنسان منذ زمان سحيق ؛ وعرفه هنا وهناك فى كل مكان ؛ وهو يشكل عند الإنسان البدائى اليوم جزءًا لا محل للبحث فيه من صورته عن الكون (الكوزموس) . إنما نحن الذين أنكرناه بسبب خوفنا من الخرافة والأشياء الغيبية ، وبسبب سعينا لإنشاء عالم واع ، مأمون ، مطواع ، يحتل فيه القانون الطبيعى منزلة القانون المدنى فى الدولة . ثم إن الشاعر ، حتى فيما بين ظهرانينا ، يتخطف نظرَهُ حينًا بعد آخر أشكال مما يحفل به عالم

(١) الفدام (بكسر الفاء) غطاء الزجاجة (= القنينة) ، وأكثره اليوم من مادة الفلين أو المعدن الرقيق .

الليل من أرواح وعفاريت وآلة . فهو يعلم أن الغائية التي تفوق متناول الغايات البشرية هي السر الذي يهب الإنسان الحياة ؛ إن لديه تحسسًا بحوادث لا يطالها الفهم تجرى في عالم الحضور الإلهي أو عالم الملء pleroma ؛ إنه ، باختصار ، يرى شيئًا من ذلك العالم النفسي الذي يقذف الرعب في قلوب الهمج والبرابرة .

ظلت الجماعة البشرية الأولى ، منذ بداياتها فنازلاً ، وهي تسعى جاهدةً لإعطاء سرائرها الخفية شكلاً ملزمًا ، ولم تزل آثار هذا الجهد ماثلة حتى يومنا هذا . ففي رسومات روديسيا الصخرية التي ترجع إلى العصر الحجري الأول نجد ، جنبًا إلى جنب مع صور الحيوانات التي تثير دهشتنا بما يكاد ينبعث فيها من حياة ، نجد نموذجًا مجردًا : صليبًا مزدوجًا في قلب دائرة . هذا التصميم يظهر في كل منطقة ثقافية ، على درجة متفاوتة؛ ونجده اليوم لا في الكنائس المسيحية وحدها ، وإنما في أديرة «التيبت أيضًا . هذا النموذج المجرد هو ما يُعرف بـ «عجلة الشمس» ؛ وبما أنه يرجع إلى زمان لم يكن أحد يفكر فيه بالعجلات على أنها جهاز آلي ، ولا يمكن أن يكون مصدر هذا النموذج خبرة من العالم الخارجي . وإنما هو رمز لحادث نفسي ، مصدره خبرة من العالم الداخلي ؛ ولا شك أنه ما من ثقافة بدائية خلت من نظام تعليم سرى ، وقد تطور هذا النظام تطورًا عاليًا في كثير من الثقافات . فمجالس الرجال والعشائر التوتمية تحتفظ بهذا التعليم عن الأشياء التي كانت تشكل على الدوام اختباراته النابضة بالحياة منذ الأزمنة الأولى . والعلم بها ينتقل من الكبار إلى

الصغـار بواسطة طقوس تسليـم الأسرار (= الشد والتلقـين) . وفى عالم الإغريق والرومان قامت ديانات الأسرار بنفس الوظيفـة ؛ وما الميثولوجيا المخصبة فى العالم القديم إلا أثر من هـذه الاختبارات الحاصلة فى مرحلة أقدم من التطور البشرى .

ولذلك نحن نتوقع من الشـاعر أن يلجأ إلى الأسطورة يلتـمس منها أنسب شكل للتـعبـير عن خبـرته . وإنه لمن فادح الخطأ أن نحـسب أنه يتعامل مع مواد مستعملة . فالخبـرة البدئية هى مصدر قدرته المبدعة ؛ إنها خبرة لا يُسبر غورها ، ولذلك تتطلب التمثيل (= اللغة المجازية) لإعطائها الشكل . والخبرة البدئية ، بحد ذاتها ، لا تطرح علينا كلمات ولا صوراً ، لأنهـا رؤية منظورة «كمـا فى زجـاجة ، على نحـو مظلم» ، إن هى إلا تحسس عميق يجهد لكى يجد له تعبيراً . وهى أشبه شىء بالإعصار الذى يستحوذ على أنه شىء يقع فى مـتناوله ، حتى إذا ارتفع إلى الأعلى اتخذ له شكلاً مرئيًا . ولما كـان التعبيـر الخاص لا يمكنه أن يستنفـد إمكانيات الرؤية أبدًا ، بل لابد له من أن يقصـر عنها كثـيراً لما فى مضمـونها من غنى وثراء ، كان لابد للشاعـر من أن يكون تحت تصـرفه مخزون هائل من المواد إن كان يريد البـوح ولو بقليل عما فى سريرته . بـل أكثر من ذلك ، عليه أن يلجـأ إلى نوع من التمـثيل المجازى عـصى على الفهم ، حافل بالنقائض ، لكى يستطيع التعبير عما فى رؤياه من تناقض عجيب. فسابق الشعور عند «دانتى» ارتدى صـوراً طافت الجنة والنار ، وقد تعـيّن

على «غوته» أن يستحضر «البلو - كسبرغ» وأقاليم الجحيم عند قدماء الإغريق ؛ واحتاج «واغنر» إلى بنية الأسطورة الشمالية برمّتها ؛ وعاد «نيتشه» إلى الأسلوب الهيراطيقى (= الكهنوتى) وبعث الحياة فى الرائى الخرافى الذى يرجع إلى أزمنة ما قبل التاريخ ؛ واخترع «بليك» لنفسه أشكالاً لا توصف ، واستعار «سبتلر» أسماء قديمة لمخلوقات جديدة نسجها من بنات أفكاره . وليس ثمة خطوة وسيطة فى كامل السلسلة ابتداء من العالى الذى لا يوصف إلى الباذخ أو الشاذ المبتذل .

ولا يسع علم النفس أن يفعل شيئًا فى سبيل توضيح هذا التمثيل المجازى الملوّن - اللهم إلا أن يجمع مواده بعضها إلى بعض بغية المقارنة وصياغة اصطلاحات لها تيسر لنا سبيل البحث فيها . وبناء على هذه الاصطلاحات ، نسمى ما يبدو فى الرؤيا «الخافية العامة أو الكلية Un collective unconscious . ونريد بالخافية العامة أو الكلية استعدادًا نفسيًا معينًا تشكله قوى الوراثة ؛ ومنه نشأت الواعية Consciousness . فى بنية الجسم الفيزيائية نجد آثارًا من مراحل التطور الأولى ، وبوسعنا أن نتوقع أن تكون النفس الإنسانية متطابقة مع قوانين تطور النوع البشرى . من الحقائق المقررة أنه فى حالة كسوف شمس الواعية - فى الأحلام وفى حالات الخَدَر والجنون - يتصاعد إلى السطح نواتج أو محتويات فيها كل علاقات المستويات البدائية من التطور النفسى . فالصور نفسها تكون أحيانًا ذات طابع بدئى تحملنا على الظن بأنها مستمدة من تعليم سحرى قديم .

كذلك غالبًا ما تظهر موضوعات ميثولوجية فى ثياب حديثة . وما يرتدى أهمية خاصة فى دراسة الأدب الذى تظهر فيه تجليات الخافية العامة هو أنها تعويض عن الموقف الواعى . وهذا يعنى أنهـا تستطيع أن تأتى بحالة من الوعى ذات جانب أحادى ، أو بحالة شاذة أو خطرة إلى وضع متوازن مقصود ظاهريًا . فى الأحلام نستطيع أن نرى هذا السياق بوضوح جلىّ فى جانبه الإيجابى . وفى حالات الجنون ، غالبًا مـا يكون السياق التعويضى تام الوضوح ، إلا أنه يتخذ له شكلاً سلبيًا . فهناك ، مثلاً ، أشخاص كانوا حريصين على الانطواء على أنفسهم بعيدًا عن العالم لم يلبثوا حتى اكتشفوا يومًا أن أسرارهم الخفية أضحت معروفة وراح الناس كلهم يتحدثون عنها .

لو نظرنا فى «فاوست» ، واستبعدنا إمكانية أن يكون تعويضًا عن موقف «غوته» الواعى ، لكان السؤال الذى ينبغى لنا الإجابة عنه هو : فى أى علاقة يقف «غوته» من النظرة الواعية فى عصره ؟ إن الشعر العظيم يستمد قوته من حياة النوع البشرى ، وإننا لنفقد معناه تمامًا إن نحن حاولنا أن نرده إلى العوامل الشخصية . كلما أصبحت الخافية العامة أو الكلية اختبارًا حيًا وجاءت لكى تؤثر فى النظرة الواعية فى عصر من العصور ، كان هذا الحدث فعلاً إبداعيًا يرتدى أهمية عند كل من يعيش فى هذا العصر ، وكان العمل الفنى الناتج ينطوى على ما يمكننا تسميته عن ثقة رسالة إلى أجيال من الناس . هكذا يمسّ «فاوست» شيئًا فى

نفس كل ألماني . وهكذا أيضًا كانت شهرة «دانتي» الخالدة ، بينما لم يفلح «راعي هرماس» في الاندراج في قانون «العهد الجديد» : لكل حقبة أهواؤها ، سوابق الحكم الخاصة بها ، وكذلك أمراضها النفسية . والعصر ، كالفرد، له حدوده الخاصة به في نظرته الواعية ، ولذلك يلزمه تكييف تعويضي . وهذا يحصل تحت تأثير الخافية العامة أو الكلية من حيث إن الشاعر أو الروائي أو الزعيم يسمح لنفسه بالاسترشاد ، أو بالعمل على هدى من الرغبة التي لا يعبر عنها في زمانه ، ويدلّنا على الطريق ، بالقول أو الفعل ، الذي يوصلنا إلى ما يتطلع إليه كل واحد منها بصورة عمياء ويتوقعه ، بقطع النظر عما إذا كان هذا الوصول ينجم عنه خير أو شر ، ما إن كان شفاء للعصر أو دماراً له .

وإنه لأمر خطير دائمًا أن يتكلم امرؤ عن الزمن الذي يعيش فيه ، لأن ما هو قيد البحث في الوقت الحاضر لهو أوسع من أن يحيط به . ولذلك يكفي بضع إشارات . فكتاب «فرنسيسكو كولونا» صُبَّ في قالب من الحلم ، وهو تأليه للحب الطبيعي بإضفاء علاقة إنسانية عليه ، دون أن يؤيد الانغماس الهمجي في ملذات الحواس ، إذ يطرح سر الزواج في المسيحية جانبًا . وكان وضع كتابه عام ١٤٥٣ . أما «رايدر هكارد» ، الذي تصادفت حياته مع ازدهار العصر الفيكتوري ، فيتناول هذا الموضوع ويعالجه على طريقته الخاصة ؛ لم يصبّه في قالب من الحلم ، وإنما أتاح لنا أن نشعر شعوراً قويًا بتوتر الصراع الأخلاقي . و «غوته» ينسج

موضوع غـرتشن – هلن – مـاتر – غلوريوزا كما ينسج خـيطًا أحمر فى سجادة «فاوست» الملوّنة . و «نيتشه» ينادى بموت الله ، و «سبتلر» يحول فتوة الآلهة وشيخوختهم إلى أسطورة الفصول . كل من هؤلاء الشعراء ، كائنة مـا كانت أهمـيتـه ، إنما ينطق بلسان الألوف وعـشرات الألوف ، ويتنبأ بالتغيرات الحاصلة فى نظرة زمانه الواعية .

٢ - الشاعر :

الإبداع ، شأنه كشأن حـرية الإرادة ، أمر ينطوى على سر . وعالم النفس يسـتطيع أن يصف كلتا الظاهرتـين على أنهمـا سياقـان ، لكنه لا يستطيع أن يحل المشاكل الفلسفية التى تطرحانها . والإنسان المبدع لغز قد نحـاول أن نجيب عنه بطرق مـخـتلفة ، لكن دائمًا دون جـدوى ، وهىَ حقيقة لم تمنع علم النفس الحديث من أن يعود مرة بعد أخرى إلى مسألة الفنان وفنه[1] . صحـيح أن إمكانيات معـينة تُطرح فى هذا الاتجاه ، لأنه أضحى من الأمور المفهومة أن العمل الفنى يمكن إرجاعه إلى العقد النفسية بمثل ما يمكن إرجاع العُصاب إليهـا ، لقد كان ما قام به «فرويد» اكتشافًا عظيمًا عندمـا قرر أن للعصاب أصـلاً سببـيًا فى النطاق النفسى – أى أنه يستـمد نشأتـه من الحالات الانفعـالية ومن خبـرة الطفولة الحـقيقـية أو المتوهمة. فقد أنشـأ اثنان من أتباعه ، وهما رانك وستكل ، خطين من البحث لهما علاقة بهـذا الموضوع ووصلا إلى نتائج هامة . لا نكران فى

(١) انظر مقال فرويد عن «غراديفا» لجنسن وعن ليوناردو دافنشى .

أن استعداد الشاعر النفسى يشيع فى عمله أصلاً وفرعًا . كذلك لا جديد فى القول بأن العوامل الشخصية تؤثر إلى حد كبير فى اختيار الشاعر واستخدامه لمواده . ويجب أن نعترف بأننا مدينون لدراسة «فرويد» ببيان هذا التأثير والطرق الغريبة التى يعبر بها .

العُصاب ، فى اعتبار «فرويد» ، تعويض غير مباشر عن وسيلة مباشرة لإرضاء نزعة أو إطفاء شهوة . ولذلك يعتبره شيئًا غير مناسب ، خطأ أو مراوغة ، تعللاً أو تعاميًا . وعنده أن هذه من العيوب التى لا تليق بالإنسان الاتصاف بها . ولما كان العصاب ، بجميع المظاهر ، ما هو إلا اضطراب يستثير غضبنا الشديد لأنه لا معنى له ولا مغزى ، كان الذين يغامرون بقول كلمة فى صالحه قليلين جدًا . غير أن العمل الفنى يمكن بحثه كما يُبحث العصاب عندما نعتبره شيئًا يمكن تحليله انطلاقًا من مكبوتات الشاعر . العمل الفنى هنا يجد نفسه فى صحبة صالحة ، بمعنى من المعانى ؛ لأن الدين والفلسفة فى اعتبار سيكولوجية «فرويد» ، يُنظر إليهما فى نفس الضوء . لا يمكن الاعتراض على هذا الفهم لو سلّمنا أنه لا يذهب إلى أبعد من توضيح العوامل التى تعين ملامح الشخصية التى لا يمكن أن نتصور العمل الفنى وجودًا بدونها . لكن عندما نزعم أن هذا التحليل يفسر العمل الفنى نفسه ، عندئذٍ لابد لنا من أن نرفض هذا الفهم رفضًا باتًا . ذلك أن الأمزجة الشخصية التى تتسلل إلى داخل العمل الفنى ليست بالأمر الأساسى ؛ والحق إنه كلما كان علينا أن نتعامل مع

هذه الخصوصيات ، تصبح المسألة أقل من مسألة عمل فنى . الأصل فى العمل الفنى أن يسمو على حالة الشخصية ، وأن يتكلم من روح الشاعر وقلبه بما هو إنسان إلى روح البشرية وقلبها . الجانب الشخصى حد - بل وحتى خطيئة - فى مجال الفن . وعندما يكون الشكل «الفنى» شخصيًا فى الدرجة الأولى ، يكون من حقه أن نعامله كما لو أنه عُصاب . ثمة شىء من الصحة فى الفكرة التى تتمسك بها مدرسة «فرويد» وهى أن الفنانين نرجسيون بلا استثناء ؛ تريد أن تقول بذلك إنهم أشخاص لم يكتمل نموهم ، فيهم ملامح طفولية وملامح من عشق الذات . غير أن هذه الإبانة لا تصح إلا على الفنان بما هو شخص، لا على الإنسان بما هو فنان . لأن الفنان ، بما هو كذلك ، لا يعشق ذاته ولا يعشق غيره ولا يعشق بأى معنى من المعانى . الفنان ، بما هو كذلك، موضوعى غير شخصى - بل وحتى غير بشرى - لأنه ، وهو الفنان ، لا شىء غير فنه، وليس الكائن البشرى .

كل شخص مبدع فهو شَفع ، أو تركيب من مؤهلات متناقضة . إنه، من جهة كائن بشرى وله حياته الخاصة . وهو ، من جهة ثانية ، غير شخصى بل سياق إبداع . ولما كان من الممكن أن يكون سليمًا أو سقيمًا ، بما هو كائن بشرى ، كان علينا أن ننظر فى تكوينه النفسى لكى نكشف عن العوامل التى تعين شخصيته . لكن عندما ننظر فى عمله الإبداعى لا نستطيع أن نفهمه إلا بوصفه فنانًا . وإننا لنرتكب خطأ

مؤسفًا لو حاولنا تفسير أسلوب حياة جنتلمان انجليزى أو ضابط بروسى أو كاردينال كاثوليكى من منطلق العوامل الشخصية . فالجنتلمان أو الضابط أو الكاردينال إنما يعمل بهذه الصفة من منطلق غير شخصى ، وقد عيّنت موضوعيّة من نوع خاص أوصاف تكوينه الشخصى . يجب علينا أن نسلّم بأن الفنان لا يعمل بصفة رسمية ؛ إنما العكس هو الأدنى إلى الحقيقة . لكنه يظل ، مع ذلك ، يشبه النماذج التى ذكرتها تواً من جانب واحد ، لأن الاستعداد الفنى بالتخصيص ينطوى على رجحان للحياة النفسية الجماعية على الشخصية . فالفن نوع من السائق الفطرى يستولى على الكائن البشرى ويجعله أداة مسخرة له . ليس الفنان شخصًا يمتلك إرادة حرة يسعى نحو أهدافه الخاصة ، وإنما هو شخص يتيح للفن أن يحقق أغراضه من خلاله . قد يكون للفنان ، بما هو كائن بشرى ، أمزجته وإرادته وغاياته الشخصية ؛ لكنه ، بما هو فنان ، هو «إنسان» بمعنى أعلى ، هو «إنسان كلىّ» ، إنسان يحمل الخافية (= اللا شعور) ويمنحها الشكل ، أى الحياة النفسية للنوع البشرى . ولكى يقوم بهذه المهمة الصعبة ، يصبح من الضرورى له أنه يضحى بسعادته وبكل ما يجعل من حياته جديرة بالحياة فى نظر الإنسان العادى .

وإذا كان الأمر كذلك ، فليس بمستغرب أن يكون للفنان حالة تثير الاهتمام على نحو خاص لدى عالم النفس الذى يستخدم المنهج التحليلى. إن حياة الفنان لا يمكن إلا أن تكون حافلة بالصراعات ، لأن فى داخله

قوتين تتصارعان : فهو ، من ناحية ، إنسان عمومى يسعى إلى تحقيق السعادة والراحة والأمان فى الحياة ؛ وهو ، من ناحية ثانية ، مسكون بهوى طاغ إلى الخلق والإبداع الذى قد يذهب به إلى حد القضاء على كل شهوة شخصية . الأصل أن تكون جياة الفنانين لا تبعث على الارتياح - هذا إن لم نقل مأساوية - بسبب قصورها من الناحية البشرية والشخصية، لا بسبب حظهم العاثر . قلما نجد استثناء من قاعدة وجوب أن يدفع امرؤ ثمنًا غاليًا لقاء ما وهبه الله من نار مبدعة . إن الأمر يبدو كما لو كان كلاً منا قد امتلك منذ حين مولده قدرًا معينًا من الطاقة ، والقوة الأشد فى تكويننا سوف تستأثر بهذه الطاقة ، وهى قد تفعل كل شىء إلا التخلى عن الاستئثار بها ، ولا تدع منها إلا القليل الذى لا قيمة له . وعلى هذا النحو تقوم القوة المبدعة بانتزاح الدوافع البشرية إلى درجة لا يمكن معها للأنية الشخصية إلا أن تنمى جميع أنواع الصفات الخبيثة ، كالقسوة أو انعدام الرحمة والأنانية والغرور (أو ما يسمى «عشق الذات») ، بل وحتى كل أنواع المثالب والعيوب ، فى سبيل الاحتفاظ بشرارة الحياة ووقاية نفسها من الاستلاب الكلى . إن عشق الذات عند الفنانين لأشبه بالأولاد غير الشرعيين أو المنبوذين الذين يتعين عليهم ، منذ سنيّهم الغضة ، أن يحموا أنفسهم من التأثير المدمر الذى يأتيهم من أناس ليس عندهم حب يمنحونه ؛ أولاد نمت عندهم صفات خبيثة من أجل هذا الغرض بالذات ؛ وفيما تلا من الزمن ظلوا يحتفظون بتركيز على الذات لا سبيل إلى قهره،

فبقوا مدى الحياة طفوليين وفاقدى الرجاء ، أو معتدين على حرمة الأخلاق والقانون . بعد هذا ، هل يخامرنا شك فى أن الفن هو الذى يفسر الفنان ، وليس الحرمان والصراع فى حياته الشخصية ؟ إن هذه ليست سوى نتائج مؤسفة نتجت عن كونه فنانًا ؛ أى ، إنسانًا ، كان مطلوبًا منه منذ حين مولده أن يؤدى مهمة أعظم من المهام التى تُسند إلى الأناس العاديين . المقدرة الخاصة معناها نقطة باهظة من الطاقة فى اتجاه خاص ، ينتج عنها نَزحٌ من جانب آخر من الحياة .

لا فرق إن كان الشاعر يعلم أن عمله يولد معه وينمو ويكبر أو إن كان يحسب أنه إنما يوجده بإعمال الفكر من الفراغ . إن رأيه فى المسألة لا يغير من الأمر شيئًا ، وهو أن عمله يزيد نموه عليه كما يزيد نمو الابن علىٰ أمه . السياق المبدع له صفة أنثوية ، والعمل المبدع ينشأ من أعماق الخافية ، أو من مملكة الأمهات ، بعبارة أخرى . كلما سادت القوة المبدعة، تحكمت الخافية (= اللا شعور) بالحياة الإنسانية وقولبتها من دون الإرادة الفاعلة ؛ وعندئذٍ تُلقى بالأنيّة الواعية إلى تيار الأعماق بما هى ليست أكثر من مراقب للحوادث . والعمل فى السياق يصبح قدر الشاعر ويعين تطوره النفسى . ليس «غوته» هو الذى أبدع «فاوست» ، إنما هو «فاوست» الذى أبدع «غوته» . وما «فاوست» إلا رمز لا أكثر . لا أريد بالرمز مجازًا يشير إلى شيء مألوف جدًا ، بل تعبير يدل على شيء غير معروف بجلاء ، لكنه مليء بالحياة مع ذلك . إنه ، هنا ، شيء يحيا فى

روح كل ألمانى ،وقد ساعد «غوته» على ولادته . هل يُعقل أن يكتب «فاوست» أو «هكذا تكلم زرادشت» غير ألمانى ؟ كلاهما يعزف على شيء يتردد فى الروح الألمانية ، على «صورة بدئية» كما أسماها «يعقوب بركهارت» ذات مرة ، هى صورة للطبيب أو المعلم للنوع البشرى . هى صورة النموذج الأول للشيخ الحكيم ، المنقذ أو الفادى ؛ الصورة القابعة دفينة وهاجعة فى خافية الإنسان منذ فجر الثقافة ، وتستيقظ كلما خرجت الأزمنة عن مفصلها ووقعت الجماعة البشرية فى خطأ فادح . عندما يندّ الناس عن سواء السبيل ، يشعرون بحاجة إلى مرشد ، أو معلم ، أو حتى إلى طبيب . هذه الصورة البدئية كثيرة ، لكنها لا تظهر فى أحلام الأفراد أو فى الأعمال الفنية إلا عندما يدعوها إلى الحضور انحراف عن النظرة العامة . فعندما تتميز الحياة الواعية بالأحادية والموقف الخاطىء ، تنشط – بودنا أن نقول «غريزيًا» – هذه الصور وتظهر إلى النور فى أحلام الأفراد وفى رؤى الفنانين والرائين ، وبذلك تعيد إلى العصر توازنه النفسى .

بهذه الطريقة يأتى عمل الشاعر ملبيًا للحاجة الروحية فى المجتمع الذى يعيش فيه ؛ ولهذا السبب كان العمل يعنى للشاعر شيئًا أكثر من قدره الشخصى ؛ سواء أكان عالمًا بذلك أم لا . والشاعر ، بوصفه أداة مسخّرة لعمله بصورة أساسية ، يخضع له ، ولا يحق لنا أن نتوقع منه تفسيرًا له. لقد بذل قصارى جهده بإعطائه الشكل لما هو كامن فيه ،

وعليه أن يترك مهمة التفسير للآخرين وللمستقبل . إن العمل الفنى أشبه شيء بالحلم ؛ على الرغم من وضوحه البادى ، إنه لا يفسر نفسه ، وهو ليس غير غامض أبداً . الحلم لا يقول أبداً : «ينبغى لك» ، أو «هذه الحقيقة»؛ بل يعرض صورة بنفس الطريقة التى تتيح فيها الطبيعة للنبات أن ينمو ، ويبقى علينا أن نستخلص نتائجنا منه . فإذا عَرَض لامرئ كابوس ، فمعنى ذلك أنه إما مسرف فى الخوف وإما مسرف فى الأمان منه ؛ وإذا حلم بـ «الشيخ الحكيم» ، فقد يعنى أنه مفرط بالحذلقة ، مثلما يعنى أيضاً أنه بحاجة إلى معلم . وإن كلا المعنيين ليصل بنا ، بطريقة خفية ، إلى نفس النتيجة ، كما نلاحظ عندما ندع للعمل الفنى أن يؤثر فينا كما أثر فى الفنان ؛ فلكى نفقه معناه ، ينبغى لنا أن نسمح له أن يشكلنا مثلما شكل الفنان من قبل ، وعندئذٍ نفهم طبيعة خبرته ، فنرى أنه قد اجتذب قوى الشفاء والفداء من النفس العامة أو الكلية التى تقبع تحت الواعية وما فيها من عزلة وأخطاء مؤلمة ، وأنه قد تغلغل فى أعماق رحم الحياة التى ينطمر فيها جميع الناس ، الرحم التى تنقل إيقاعاً مشتركاً إلى الوجود البشرى ، وتتيح للإنسان الفرد أن يفضى بمشاعره ومعاناته إلى البشرية جمعاء .

إن سر الإبداع الفنى والأثر الذى يحدثه الفن يجب البحث عنه فى العودة إلى حالة «المشاركة الصوفية» ، إلى ذلك المستوى من الخبرة الذى من يعيش عنده هو الإنسان لا الفرد ، والذى لا يُعتدّ عنده بسعادة الفرد الإنسانى ولا بشقائه ، بل بالوجود البشرى فقط . وهذا ما يفسر لنا لماذا

كان كل عمل فنى عظيم عملاً موضوعيًا وغير شخصى ، لكنه يظل ، مع ذلك ، يحرك مشاعرنا أفرادًا وجماعات . وهذا ما يفسر لنا أيضًا لماذا كانت حياة الشاعر الشخصية غير أساسية لفنه ، بل عَون على مهمته الإبداعية أو عائق لها فى أحسن الأحوال . فقد يسلك مسلك الأغبياء أو المواطن الصالح أو المعصوب أو الأبله أو المجرم . قد تكون حياته الشخصية شيئًا لا غنى عنه ومبعثًا على الاهتمام ، لكنها لا تفسر الشاعر .

الفصل التاسع

المنطلقات الأساسية في علم النفس التحليلي

كان الاعتقاد السائد فى القرون الوسطى ، ومن قبلُ عند الإغريق والرومان ، أن الروح كائن له وجود مستقل . والحق إن البشرية كلها ظلت تؤمن هذا الإيمان منذ بداياتها الأولى حتى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، حيث شيّدت لنفسها اعتقاداً جديداً يقوم على مبدأ «علم النفس بلا نفس» أو «علم الروح بلا روح» . فأصبح كل شىء لا يرى بالعين أو لا يُلمس باليدين مشكوكًا فيه ، تحت تأثير المادية العلمية ، بل إن هذه الأشياء (غير المنظورة أو غير الملموسة) أصبحت مدعاة للسخرية بسبب صلتها المفترضة بالميتافيزيقا . فلا شىء علميًا أو حقيقيًا إلا أن يُدرك بالحواس أو يُرد إلى أسباب فيزيائية . غير أن تبدل النظرة على هذا النحو الجذرى لم يبدأ بالمادية الفلسفية ، لأن الطريق كان ممهداً له قبل ذلك بزمن طويل . وقد حدث ذلك عندما وقعت الكارثة الروحية المتمثلة بـ «الإصلاح الدينى» الذى وضع حداً للعصر القوطى وما فيه من تطلع

متحمس إلى الأعالى ، ومن أبعاد جغرافية محدودة ونظرة إلى العالم محدودة أيضًا ، وهى النظرة العمودية التى كان ينظر بها العقل الأوروبى للأشياء ، والتى تقاطعت معها النظرة الأفقية التى تميزت بها الأزمنة الحديثة . منذ ذلك الحين لم يعد الوعى ينمو باتجاه الأعلى ، بل أخذ ينمو فى نظرته للأشياء نموًا عرضانيًا على مثال نمو معرفته للكرة الأرضية. حدث هذا فى حقبة الرحلات الكبرى والاكتشافات التجريبية التى وسعت من أفكار الإنسان عن العالم . ومنذ ذلك الحين أخذ الإيمان بأن للروح وجودًا مستقلاً يتراجع أمام القناعة المقحمة بأن الوجود هو للأشياء المادية وحدها . وما هى إلا أربعة قرون حتى صار كبار قادة الفكر والبحث فى أوروبا ينظرون إلى العقل على أنه تابع للمادة وللسببية المادية تبعية مطلقة.

ليس من حقنا القول إن أيًا من الفلسفة أو العلم الطبيعى قد أحدث هذا الانقلاب الكامل ؛ لقد كان هناك عدد لا بأس به من كبار الفلاسفة والعلماء كان لديهم من النظر النافذ والفكر العميق ما يكفى لئلا يقبلوا بهذا الانقلاب من غير احتجاج ، بل إن قلة منهم قاومته ، لكنهم لم يكن لديهم اتباع يؤمنون إيمانهم فاضطروا إلى الوقوف عاجزين لا حول لهم ولا قوة حيال الموقف الشعبى الذى تمثل بالاستسلام غير المعقول ، ولا نقول العاطفى ، للعالم الفيزيائى الذى طغت أهميته على كل أهمية أخرى . ولا يحسبنّ أحد أن مثل هذا الانقلاب الجذرى فى نظرة الإنسان

قمين بأن يحــدث نتيجة للتــفكر أو التدبر أو إعمال العــقل ، لأنه ما من تسلسل في التفكـير يمكنه أن يثبت أو ينفي وجـود العقل أو المادة . فكلا هذين المفهـومين - كمـا يمكن لكل إنسان حـصيف أن يتحـقق من ذلك بنفسـه - ما هما إلا رمزان إلى شـيء مجهول أو دفين ؛ وإنما نقـر بهذا الشيء أو ننكـره تبـعًا لمزاج كل منا وتكوينه أو مــيله ، أو تبعًا لروح العصـر الذى يفرضـه عليه . إذ لا شيء يمنـع العقل المتـفكر من اعتـبار النفس ظاهرة كيماوية - حيوية تسـرح فى قاعها الكهارب ، من ناحية ، أو من اعتبـار المسلك الذى تسلكه الكهارب ولا يتأتّى لنا التنبـؤ به علامة على حياة عقلية فى داخلها بالذات ، من ناحية ثانية .

ونحن نخادع أنفسنا حين ننظـر إلى مسألة حلول ميتافـيزيقا المادة فى القرن التاسع عشر محل ميتـافيزيقا العقل واقتلاع هذه من جذورها - على أنه مسألة من مسائل العقل ؛ ومع ذلك فقد كانت من منطلق سيكولوجى انقلابًا فى نظرة الإنسان إلى العالم ليس له مثيل . لقد تحول عالم الغيب إلى عالم شهادة ووضـعت حدود تجريبية لكل مشكلة يبحـثها الإنسان ، كمـا وضعت حدود للأهداف التى ينبـغى له أن يتخيـرها ، بل وضعت حدود لما يسـميه «المعنى» . ينبـغى للحوادث غيـر المحسوسـة ، الحوادث الداخلية ، أن تفسح المجال لأشياء العالم الخارجى المحسوسة ؛ والشيء لا قيمـة له إن لم يكن مؤسسًا على ما يسـمى الواقع . على الأقل ، هذا ما يبدو للعقل الساذج .

والحق إنه لا جدوى من محاولة فهم هذا التغير غير المعقول الذى طرأ على نظرة الإنسان إلى العالم على أنه مسألة من مسائل الفلسفة ، بل حرىّ بنا ألا نفعل ذلك ؛ لأننا لو قلنا بأن الظاهرات العقلية تنشأ عن نشاط الغدد ، لكنّا على ثقة بأننا نحظى بآيات الشكر والتبجيل من معاصرينا ، على حين لو أننا لو فسرنا انشطار الذرة فى الشمس على أنه صدور عن «عقل العالم» المبدع ، لنظروا إلينا شزراً وعدّواً ذلك نزوة من نزوات العقل . من منطلق ابيستمولوجى يستوى لدينا إنْ سلّمنا بنشوء الحيوان من النوع البشرى أو بنشوء الإنسان من النوع الحيوانى . لكننا نعرف كم لا قى البروفسور «داكيه» من عَنَت فى حياته الأكاديمية بسبب خطيئته بحق روح العصر التى لا تسمح لأحد أن يعبث بها . إنها ديانة، لا بل هى أكثر من ذلك ، إنها عقيدة لا صلة لها بالعقل إطلاقًا ، وأهميتها تكمن فى حقيقة لا تبعث على السرور وهى أنها باتت تعتبر المقياس المطلق لكل الحقيقة وبات مفروضًا أن يقف بادىء الرأى[1] فى صفها .

سياقات العقل البشرى لا يمكنها أن تحيط بروح العصر ؛ إنها ميل أو اتجاه عاطفى يؤثر فى ضعاف العقول ، عن طريق الخافية (= اللاشعور)، بقوة الإيحاء الطاغية التى تجرفهم فى تيارها . أن تفكر خلافًا

(١) المقابل العربى للاصطلاح common sense كما ارتأى ذلك المرحوم «أحمد زكى» - المترجم - .

لما يفكر معاصروك أمر غير مشروع وباعث على الضيق ؛ بل هو أمر غير لائق ، أو هو مرض أو تحديف ؛ ولذلك هو خطر علىَ الفرد من الناحية الاجتمــاعية . وكمــا كان الاعتقــاد سابقًا بأن كل ما هو موجــود فوجوده مســتمد من الإرادة الإلــهية المبــدعة اعتــقاداً لا مراء فــيه ، كــذلك أصبح اكتشاف القرن التاسع عشر للحقـيقة القائلة بأن كل ما هو موجود فوجوده مستمدّ من الأسبــاب الطبيعية اعتقاداً لا مراء فيـه . اليوم ، لم نعد نعتقد أن النفس تبني لنفسها جســداً تسكن فيه ، وإنما المادة تنتج النفس بالفعل الكيماوى . وقد كان خليقًا بهذا الانقلاب فى النظرة إلى العالم أن يكون محل سخرية لو لم يكن ملمحًا من أبرز ملامح روح العصر . إنه الطريقة الشــعبــية في التــفكير ، ولذلك هى طريقــة محــترمــة وعقليــة وعلمــية وصحيحة؛ على العقل أن يؤمن بأنه نتاج ثانوى نتج عــن المادة . ولعلنا نصل إلى نفس النتيجــة لو قلنا «النفس» بدلاً من «العقل» ، وتكلمنا عن الدماغ والهرمــونات والغرائز والسوائق بدلاً من «المادة» . أن تُمنح الروح أو النفس وجــوداً مــستقــلاً أمر مُنافٍ لروح العــصر ، ومن يفــعل ذلك يتذندق .

لقد اتضح لدينا الآن أن أجــدادنا لـم يكونا من الناحية العــقلية على حق فى اعتقادهم بأن للإنسان روحًا ، وأن للروح وجوداً مستقلاً ، وأنها من طبيعة إلهية وبالتالى خالدة ، وأن فيها قوة كامنة أو ملازمة لها تتولى بناء الجسد وتمدّه بالحياة وتشفى أسقــامه وتتيح للروح أن تعيش فى معزل

عن الجسد ، وأن ثمة أرواحًا غير جسمانية تتوحد[1] بهذه الروح ، وأن وراء عالمنا التجريبي عالمًا روحانيًا تتلقى منه الروح معرفتها بالأشياء الروحية التي لا يمكن كشف النقاب عن أصولها في هذا العالم المرئي .. لكن الناس الذين ليسوا فوق مستوى الوعي العام لم يكتشفوا بعد أن ما يماثل الاعتقاد القديم من حيث كونه اعتقادًا افتراضيًا وتخيليًا أن نعتقد بأن المادة هي التي تنتج الروح ، وأن القردة أصل الكائنات البشرية ، وأن كتاب «نقد العقل المحض» الذي ألفه كانط إنما ظلع من تفاعل متناغم فيما بين سوائق الجوع والحب والسلطة ، وأن خلايا الدماغ هي التي تصنع الأفكار ، وأن هذا كله ما كان من الممكن أن يكون بخلاف ما هو كائن .

لكن ما هي ، أو من هي ، هذه «المادة» الكلية القدرة في الحقيقة ؟ إنها مرة أخرى صورة رسمها البشر للإله الخالق ، إلا أنها - هذه المرة - منزوعة من ملامحها التأنيسية[2] بعد أن اتخذت صيغة مفهوم عالمي يحسب كل منا أنه يفهم معناه . وعينا اليوم نما نموًا هائلاً في الطول والعرض ، أي في أبعاد المكان فقط لسوء الحظ . أما بعده الزماني فلم يشهد مثل هذا النمو ، وهو لو حصل إذن لكان عندنا حسٌ بالتاريخ النابض بالحياة . غير أنه محظور علينا الخوض في مثل هذه الأفكار بسبب روح العصر التي تعتبر التاريخ مجرد مصنع للحجج الملائمة تتيح لنا القول

(١) تتوحد - تصير شيئًا واحدًا - المترجم - .

(٢) ذات صفات إنسانية - المترجم - .

في المناسبـات : «لماذا ، حتى أرسطو عـرف ذلك» . أما الحـالة هذه ، فيجب أن نسأل أنفسنا كيف بلغت روح العصر هذا المبلغ من القدرة الخفية . إنها بلا شك ظاهرة نفسية بالغة الأهمية - وهى فى جميع الأحوال سابق حكم أو هوى متأصل فى العمق بحيث إن لم نعطه حقه من الاعتبار المناسب ، لم نستطع أبداً أن نقترب من مشكلة النفس .

مثلما قلت فيما تقدم ، لقد كان الميل الذى لا يُقاوم إلي تفسير كل شيء انطلاقًا من أسس فيزيائية متفقًا مع نمو الوعى نموًا أفقيًا على مدى القرون الأربعة الأخيرة ، وما النظرة الأفقية إلا رجع (= رد فعل) على النظرة العمودية الوحيدة التي كانت سمة العصر القوطى . إن هذا الميل مظهر من عقل الجماعة ، وبما هو كذلك لا يصح أن نقف منه موقفنا من واعية الأفراد . إننا ، بادئ ذى بدء ، لا نشعر بأفعالنا أبداً ، ولا نكتشف إلا بعد لأى لماذا كان تصرفنا على هذا النحو أو ذاك ، وفى هذا نحن نشبه البدائيين تمامًا . وفى غضون ذلك ، نعلّل أنفسنا بجميع أنواع التفسيرات التى تضفى صفة عقلانية على مسلكنا ، وتظل مع ذلك التفسيرات غير مكافئة .

لو نشعر بروح العصر ، لعرفنا لماذا نميل إلى تفسير كل شيء انطلاقًا من أسس فيزيائية ، ولعرفنا أن سبب ذلك كان حتى الآن إفراطنا فى تفسير كل شيء انطلاقًا من أسس روحية . ولو أننا أدركنا ذلك لكان انتقادنا شديدًا لميولنا الأحادية ، ولقلنا : أغلب الظن أننا نقترف الآن خطأ

فادحًا فى الجانب الآخر . نحن نخادع أنفسنا عندما نظن أننا نعرف عن المادة أكثر بكثير مما نعرف عن «عقل ميتافيزيقى» ما، فنبالغ فى تقدير قيمة السببية الطبيعية ونعتقد بأنها وحدها هى التى تمدّنا بالتفسير الصحيح للحياة. لكن المادة مجهولة تمامًا ، كالعقل وفى نهاية المطاف لا نستطيع أن نعرف شيئًا ، ونحن لا نعود إلى حالة التوازن إلا أن نسلّم بذلك .
إن هذا لا يعنى أبدًا نكران الصلة الوثيقة بين الحوادث النفسية والبنية الفيزيولوجية للدماغ ، أو بينها وبين الغدد والجسم عمومًا . نحن نجزم بأن محتويات الواعية إنما تعيّنها إدراكات الحواس إلى حد كبير ، جزمًا لا رجوع فيه . ولا يسعنا إلا أن نعترف بأن الخصائص الثابتة ، ذات الطبيعة الفيزيائية والطبيعة النفسية سواء بسواء ، مغروسة فينا بصورة خفية (= لا شعورية) عن طريق الوراثة ، ونحن نعجب أشد الإعجاب بما للغرائز من قوة تعوق قدراتنا العقلية أو تشدّ أزرها أو تعدّل فيها . والحق إنه ، فيما يتعلق بالسبب والغاية والمعنى ، يجب أن نسلّم بأن النفس الإنسانية - كائنًا ما كان فهمنا لها - هى ، أولاً وقبل كل شىء ، انعكاس مباشر لكل ما ندعوه جسمانيًا وتجريبيًا ودنيويًا . ثم لابد لنا ، تجاه هذه التسليمات جميعًا ، من التساؤل عما إذا كانت النفس ليست ظاهرة ثانوية وليست تابعة تبعيّة مطلقة للجسد . كما لابد لنا ، ونحن العمليون ، من الإجابة بالإيجاب ، فى ضوء العقل ، وفى ضوء التزاماتنا بعالم فعلى؛ وإذا كنا نفحص هذا الحكم العملى على النفس الإنسانية ناقدين ، فما ذلك إلا لشكوكنا فى قدرة المادة الكلية .

كان الاعتراض على هذا المفهوم أنه يرد الحوادث النفسية إلى نوع من نشاط الغدد ، بحيث تكون الأفكار عبارة عن إفرازات أفرزها الدماغ ، وبذلك نصل إلى «علم نفس بلا نفس» . من هذا المنطلق - يجب أن نعترف - لا وجود للنفس بصورة مستقلة ، فهي لا شيء بحد ذاتها ، بل تعبير عن سياقات فيزيائية . وأن يكون لهذه السياقات صفات الواعية حقيقة لا سبيل إلى ردها ، فلو كان الأمر غير ذلك - هكذا تمضي الحجج- لم نستطيع أن نتكلم عن النفس أصلاً ، ولما كان ثمة واعية ، وبذلك لا يكون لدينا ما نقوله عن أي شيء . ولذلك كانت النفس الواعية الشرط اللازم للحياة النفسية - أي كالنفس نفسها . وهكذا كانت جميع مدارس «علم النفس بلا نفس» الحديثة دروسًا في الواعية تتجاهل وجود الحياة النفسية الخافية (اللا شعورية) .

ومع ذلك لا توجد مدرسة سيكولوجية «واحدة» ، بل مدارس عديدة. وفي هذا ما يبعث على الاستغراب الشديد ، لا سيما عندما نعلم أنه لا يوجد إلا علم واحد في الرياضيات ، وعلم واحد في الجيولوجيا ، وعلم واحد في الحيوان ، وعلم واحد في النبات ، وهكذا دواليك ، بينما بلغت «علوم النفس» من الكثرة حدًا جعل إحدى الجامعات الأمريكية تنشر مجلدًا ضخمًا بعنوان «سيكولوجيات ١٩٣٠» . أظن أنه يوجد من «علوم النفس» أو السيكولوجيات بمقدار ما يوجد من الفلسفات ، لأنه لا توجد فلسفة واحدة بل فلسفات . أقول هذا لأن بين الفلسفة وعلم النفس

روابط لا انفكاك لها لم تزل قائمة بسبب ما بين موضوعاتهما من تداخل. علم النفس موضوعه النفس ، والفلسفة - إجمالاً - موضوعها العالم . إلى زمن قريب كان علم النفس فرعًا خاصًا من الفلسفة ، أما الآن فقد أصبح لدينا شيء كان قد تنبأ به نيتشه - ظهور علم النفس بصورة مستقلة، حتى لقد بات يهدد بابتلاع الفلسفة . يقوم التشابه الداخلى بين الفلسفة وعلم النفس على أن كليهما «نظام رأى يبحث فى موضوع لا يمكن اختباره تمامًا ، وبالتالى لا يمكن فهمه وفق منهج تجريبى بحت . وهكذا فإن كلا الميدانين من الدروس يحفز على التفكير ، مما ينتج عنه تشكل آراء بنحو من التنوع والكثرة تتطلب مجلدات ضخمة لاستيعابها جميعًا ، وتبيان ما إذا كانت تنتمى إلى هذا الميدان أو ذاك ، ولا يمكن لأحدهما الاستغناء عن الآخر ، لأن كلا منهما يمد الآخر بمسلماته الأولية الضمنية التى غالبًا ما تكون خافية (لا شعورية) .

لقد آل اعتماد الأسس الفيزيائية فى التفسير إلى «علم نفس بلا نفس» ، كما بينا ذلك آنفًا ، أى إلى النظرة القائمة على أن النفس ما هى إلا نتاج سياقات كيماوية - حيوية . أما فيما يتعلق بسيكولوجيا علمية حديثة تبدأ من العقل بما هو كذلك ، فلا وجود لشيء من هذا القبيل . لا أحد يجازف اليوم بإقامة سيكولوجيا علمية على أساس من استقلال النفس عن الجسد وعدم تبعيتها له . إن فكرة الروح بذاتها ولذاتها ، وأن يكون للروح نظام عالمى قائم بنفسه ، لهى الأساس الوحيد

المكافىء للإيمان بأرواح فردية مستقلة ، لكن هذه الفكرة لم تعد تلقى رواجًا شعبيًا عندنا ، هذا إن لم نقل أكثر . لكن للإنصاف أذكر أننى حضرت فى عالم ١٩١٤ . فى كلية بفلور بلندن ، جلسة مشتركة ضمت «جمعية أرسطو» و «جمعية العقل» ، و «الجمعية السيكولوجية البريطانية» فى ندوة انعقدت لبحث مسألة ما إذا كانت عقول الأفراد قائمة فى الله أم لا ؟ لو أن أحدًا فى انجلترا نازع فى القيمة العلمية لهذه الجمعيات ، لما لقى أذنًا صاغية من أحد ، لأنها كانت تضم فى عضويتها كبار العقول فى البلاد . ولعلى كنت الوحيد الذى كان يستمع دهشًا إلى حجج تقرع فيها رنة القرن الثالث عشر . ولعل هذا المثال يفيدنا فى تبيان أن فكرة الروح المستقلة وكون وجودها أمرًا مسلمًا به لم تنقرض من أوروبا . ولم تصبح مجرد مستحاثة من مخلفات القرون الوسطى .

إذ ثبتنا هذا فى ذهننا ، فلعلنا نستطيع أن نستجمع شجاعتنا وننظر فى إمكانية إنشاء «علم نفس بنفس» أى فى ميدان من الدروس يقوم على فرضية وجود نفس مستقلة . لا حاجة بنا إلى الذعر من ضآلة شعبية هذا المشروع ، لأن فرضية العقل ليست أكثر خيالية من فرضية المادة . فما دمنا لا نملك فكرة عن الطريقة التى يصدر فيها ما هو نفسى عن العناصر المادية ، وفى الوقت نفسه لا يمكننا نكران حقيقة الحوادث النفسية ، فنحن أحرار فى صياغة فرضياتنا بالطريقة الأخرى لو مرة واحدة ، وأحرار فى الاعتقاد بأن النفس تصدر عن مبدأ روحى لا يطاله فهمنا كما لا يطال

المادة . تقول النظرة القديمة إن الروح حياة الجسد ، أو نفحة الحياة ، أو هى نوع من قوة الحياة اتخذت لها شكلاً مكانيًا يتحيزها الجسد عند الولادة أو بعد الحمل ، ثم غادرت الجسد الميت بعد النفس الأخير . وكان ينظر إلى الروح بحد ذاتها على أنها كائن لا يتحيز فى مكان ، وبما أنها كانت موجودة قبل اتخاذها شكلاً جسمانيًا وبعده أيضًا ، كانت تعتبر كائنًا غير زمانى ، ومن هنا خلودها . بطبيعة الحال، يعتبر هذا المفهوم من وجهة نظر السيكولوجيا العلمية الحديثة ضلالاً ليس إلا . ولكن ، بما أنه ليس فى نيتنا الخوض فى الأمور «الميتافزيقية» ، حتى ولو كانت من النوع الحديث ، يحسن بنا أن نتناول هذا المفهوم بالتمحيص ، بعيداً عن الأهواء وسوابق الأحكام ، مرة واحدة ، ونبحث عن مسوغاته التجريبية .

الأسماء التى يعطيها الناس لخبراتهم ذات دلالات مبينة ، فى الغالب. ما أصل كلمة Seele الألمانية ؟ إنها ، كالإنجليزية Soul ، آتية من القوطية Saiwala والألمانية القديمة Saiwalo ، وهاتان الكلمتان يمكن عقد الصلة بينهما وبين الكلمة الإغريقية alios ومعناها المتحرك أو الملون أو التلون ، والكلمة الإغريقية Psyche معناها أيضًا : الفراشة . والألمانية القديمة تتصل من ناحية أخرى بالكلمة السلافونية القديمة Sila ، ومعناها : القوة . ومن هذه الصلات نلقى الضوء على المعنى الأصلى لكلمة Seele : فهى القوة المحركة ، أى قوة الحياة .

الكلمتان اللاتينيتان animus ، النـفس ، و anima الروح ، هما نفس الكلمة الإغريقية anemos الريح والكلمة الإغريقـية الأخرى للريح هى pneuma وتعنى أيضًا : الروح . فى الـقوطيـة نجـد نفس الكلمـة us-anan ومعناها : نفخ ، وفى اللاتينية an-helare ومعناها : لهث . فى الألمانية القديمة العليـا ، ترجمت «الروح القدس إلى atun ومعناها : النفس . وفى العربية نجد الريح والروح ، والنفس والنفس . كذلك ثمة صلة وثيقة بين الإغريقية psyche و psycho ومـعناها : تنفس ، وبين psychos و psychros بارد ، و phusa منفاخ . هذه الـصلات تبين لنا بجلاء كـيف أن الأسماء المعطاة للروح اللاتينيـة والإغريقية والعـربية ذات صلة بمفهوم الهـواء المتحرك ، «نفس الروح البارد» ، وهو مـا يفسر لنا أيضًا لماذا كـانت وجهة النظر البـدائية تمنح الروح جـسمًا هوائيًا غـير مرئى .

من الواضح جدًا أن يـكون النفس هو الحياة بما هو عـلامة عليـها ، مثلمـا هى الحركة والقـوة المحركة . وفى نظرة بدائيـة أخرى ، يُنظر إلي الروح على أنهـا نار أو لهب ، لأن الدفء عـلامة عـلى الحيـاة أيضًا . وهنالك مفـهوم بدائى غريب جـدًا ، لكنه غيـر نادر ، يوحد بين الروح والاسم . فاسم الفـرد هو روحه ، ومن هنا كـانت تسميـة الخلف باسم السلف بغيـة تقمص روح السلف فى المولود الجديد . نسـتطيع أن نستنتج من ذلك أنه كان يُنظر إلى «الأنيـة الواعية» على أنها تعـبير عن الروح .

كذلك ليس من الأمور النادرة أن تـتوحد الروح والظل ، ومن أجل ذلك كانت إهانة قـاتلة أن تدوس على ظل شخص . ولنفس السبب ، تعـتبر الظهـيرة فى خطوط العـرض الجنوبية ، وهى سـاعة الشـبح أو الروح ، ساعة الخطر ، لأن الظل يتـقلص فيها فتكون الحياة مـعرضة للخطر . إن مفهوم الظل هذا ينطوى على فكرة دل عليها الإغريق بكلمة Synopados ومعناها : «الذى يلحق بك» ، يعبرون بهذه الطريقة عن الشعور بحضور حى غير محسوس - وهو نفس الشعور الذى أدى إلى الاعتقاد بأن أرواح الموتى عبارة عن ظلال .

لعل هذه الدلالات ذات فـائدة لنا فى اطلاعنا على كـيفـية اخـتبـار الإنسان البدائى للنفس . وعنده أن النفس مصدر للحياة ، والمحرك الأول ، والحضـور الشبحى الذى له حقـيقة مـوضوعية . ولذلك كـان البدائى يعرف كيف يتناجى مع الروح ، إنها تصـبح صوتًا فى داخله لأنها ليست نفسه وواعيته . وعنده أن النفس ليست ، كما هى عندنا ، جماع كل ما هو ذاتى وتابع للإرادة ، إنما هى شىء موضوعى قائم بذاته ، ويحيا حياته الخاصة .

لهذه الطريقـة من النظر ما يسوّغهـا تجريبيًا ، لأن للحوادث النفـسية جانبًا موضـوعيًا ليس على المستوى البدائى وحسب ، وإنما علـى مستوى الإنسان المتـمدن أيضًا ، لأنها تُفلت من سيـطرتنا الواعية عليهـا إلى حد كبـير . فعلى سبـيل المثال ، نحن غيـر قادرين على التحكم بكثـير من

عواطـفنا ، لا نستطيع أن نسـتبـدل مزاجًا صـحيـحًا بمزاج معـتلّ ، ولا نستطيع أن نتحكم بأحلامنا فى مجيئها وذهوبها . وربما تغلبت على أذكى الناس أفكار لا قـبل له بطردها عنه بأعظم الجـهـد الإرادى . ما تقـوم به الذاكرة أحيانًا من خدع جنونية تتركنا فى حالة من الذهول اليائس . وربّ تخيلات جرت فى عقولنا لم نكن نتوقـعها . وإنما نحن نعتقد بأننا أسياد فى بيتنا من فرط حبنا الإطراء لأنفسنا . لأننا بالفعل خاضعون إلى درجة مذهلة إلى ما تقوم به النفس الخافية من وظائف ، وينبغى لنا الوثوق بأنها لا تخدعنا . ولو درسنا السياقات النفـسة لدى المعصوبين لكان من الأمور المضحكة تمامًا أن يستطيع عالم النفس الإدعاء بأن النفس معادلة للواعية . لقد بات من الأمور المعروفـة جيداً أن السياقات النفسـية عن المعصومين لا تختلف عن السياقـات النفسية عند من نسميـهم أصحاء أو أسوياء - وأى إنسان فى هذا العصر واثق تمامًا من أنه غير معصوب ؟

أما الأمر كذلك ؛ فإننا نـحسن صنعًا لو نسلم بأن هناك ما يسوغ لنا الأخذ بالنظـرة القديمة عن الروح واعتـبارها حـقيقـة موضوعـية - شـيئًا مستقلاً، وبالتالى اعتباطيًا ومصدراً للخطر . وكلما نظرنا إلى الروح على أنها كـذلك ، وهى البالغـة الخفاء والإخـافة ، وفى نفس الوقت مـصدر للحيـاة ، كانت أدنى إلى الفـهم على ضوء علم النفس أيضًا . تـظهرنا الخبرة على أن «الأنا» - الأنيّة الواعـية إنما نشأت عن الحياة الخـافية (اللا شعورية) . فالطفل الصغير يحيا حياة نفسية ليس فيها ما يدل على وجود

أنية واعية ، ولهذا قلّما تترك السنوات الأولى من حياته أثرًا فى ذاكرته . من أين تأتى جميع ومضاتنا الذكية المسعفة ؟ ما مصدر حماستنا وإلهامنا وشعورنا بقيمة الحياة ؟ البدائى يتحسس ينابيع الحياة فى أعماق روحه ، يتأثر عميقًا بفاعلية تصريف الحياة الآتية من قبل روحه ، ولذلك يؤمن بكل شىء يؤثر فيها - بممارسات السحر من كل نوع . وهذا ما يفسر عنده أن الروح هى الحياة نفسها ، لا يتصور أنه يدير دفتها ، وإنما يشعر أنه تابع لها فى كل شىء .

مهما بدت لنا فكرة خلود الروح منافية للعقل ، فهى عند البدائى ليست خارقة للعادة ، ولكنها مع ذلك شىء يخرج عن الشائع . فبينما كل موجود سواها يتخذ له قدرًا معينًا من الفراغ ، فإن الروح لا يمكنها أن تتحيز فراغًا . نحن نحسب ، بطبيعة الحال ، أن أفكارنا تقوم فى رؤوسنا، ولكن عندما يتعلق الأمر بمشاعرنا نبدأ بالتردد ، يبدو أنها تقيم فى منطقة القلب . أما إحساساتنا فموزعة على الجسم كله . تقوم نظريتنا على أن الرأس مركز الواعية ، لكن هنود البوابلو يقولون أن الأمريكيين قوم مجانين لأنهم يعتقدون بأن أفكارهم محلها رؤوسهم ، على حين أن الإنسان العاقل يعلم أنه إنما يفكر بقلبه . بعض القبائل من الزنوج يقولون إن البطن مكان قيام النفس بوظائفها ، لا الرأس ولا القلب .

هناك صعوبة أخرى تضاف إلى هذا الاختلاف حول مكان قيام النفس بوظائفها ، وهى أن المحتويات النفسية عمومًا لا تتحيز مكانًا ، لا

يستثنى من ذلك إلا المكان الخاص بالإحساس . ما الحجم الذى نستطيع أن ننسبه إلى أفكارنا ؟ هل هى صغيرة ، عريضة ، طويلة ، رقيقة ، ثقيلة ، سائلة ، مستقيمة ، دائرية ، أم ماذا ؟ لو أردنا رسم صورة حية لكائن غير مكانى ذى بعد رابع ، لما فعلنا خيراً من اتخاذ «الفكر» نموذجًا لهذا الكائن .

لو أننا أنكرنا وجود الروح أصلاً ، لهان علينا الأمر ، لكننا هنا بإزاء اختبارات مباشرة لشيء ما «كائن» - شيء متأصل فى واقعنا الذى يقاس بالمقاييس ، واقعنا الذى نتفكر فيه ، واقع الأبعاد الثلاثة . إن هذا الشيء يختلف اختلافًا يبعث على الحيرة عن هذا الواقع فى كل جانب من جوانبه «وفى كل جزء من أجزائه ومع ذلك يعكسه ويتأمل فيه . يمكننا أن ننظر إلى النفس على أنها نقطة رياضية وفى نفس الوقت عالم ذو نجوم ثوابت وعندئذ يزول عجبنا إذا كان مثل هذا الكائن المتناقض متاخمًا للحدود الإلهية فى نظر العقل الفطرى . إن كانت النفس لا تتحيز مكانًا، فهى بلا جسم . والأجسام تموت ، لكن هل يموت شيء غير مرئى وغير جسمانى ؟ زد على ذلك أن الحياة والنفس موجودتان بالنسبة إلىّ قبل أن أستطيع النطق بكلمة «أنا» وعندما تختفى هذه «الأنا» كما هو الحال فى النوم أو الغيبوبة ، تظل الحياة والنفس قائمتين ، كما تعلمنا الملاحظة لغيرنا ولأحلامنا . إذن ، لماذا يعمد العقل البسيط ، وهو أمام مثل هذه الاختبارات ، إلى نكران «الروح» فى حياتنا خارج الجسد ؟

ينبغي لي أن أسلم بانني لا أرى لغواً في هذه الخرافة المزعومة إلا بمقدار ما أرى من لغو فيما تكشّف عنه البحث في الوراثة أو الغرائز الأساسية .

لو أننا تذكرنا كيف كان إنسان ثقافات الأزمنة البدائية يرجع دائمًا إلى أحلامه ورؤاه ليستقي منها معلوماته ، لاستطعنا أن نفهم في يسر لماذا كانت تنسب المعرفة السامية ، بل الإلهية ، في الماضي إلى النفس . والقول بأن الخافية (اللا شعور) تحوى إدراكات بالغة اللطف ، لا يوصف مجالها بأقل من الإدهاش ، إنما هو قول حقيقي . والمجتمعات البدائية إنما اعتبر الأحلام والرؤى مصادر هامة للمعلومات ، لأنها كانت تعترف بهذه الحقيقة . حضارات عظمى . كحضارتي الهندوس والصين ، شيّدت على هذا الأساس إذ جعلت منه منهجًا للمعرفة الذاتية بلغ ذروة عالية من الصفاء على صعيد الفلسفة والممارسة سواء بسواء .

ونحن حين نعلي من شأن الخافية ونجعل منها مصدراً للمعرفة ، لا نتخبط في ديجور كما يحلو لعقلانيتنا الغربية أن تظن . فنحن نميل إلى الاعتقاد بأن المعرفة كلها إنما تأتينا من الخارج في نهاية المطاف . ومع ذلك أصبحنا اليوم نوقن بأن الخافية تنطوى على محتويات تمدّنا بمعرفة لا حدود لها حين تصير في الواعية . فالأبحاث الحديثة في غريزة الحيوان ، كالأبحاث في غرائز الحشرات مثلاً . قد جمعت لنا مخزونًا وافرًا من المعلومات التجريبية تُظهرنا على أن الإنسان لو سلك مسلك حشرات

معينة لكان له من الذكاء أعلى مما له فى الوقت الحاضر . بطبيعة الحال ، لا يمكن إثبات أن الحشرات تمتلك معرفة واعية ، لكننا لا يمكننا الارتياب فى وجود أنماط من السلوك غير الواعى هى من قبيل الوظائف النفسية . وكذلك خافية الإنسان فهى تحوى جميع أنماط الحياة والسلوك الموروثة عن أسلافه ، حتى إن كل طفل بشرى ، وهو فى مرحلة ما قبل الوعى ، مجهز بنظام كامن (موجود القوة) من الوظائف النفسية المتكيفة . فالخافية تدرك وتقصد وتحدس وتشعر وتفكر تمامًا مثلما يدرك العقل الواعى ويقصد ويحدس ويشعر ويفكر . الدليل الكافى على ذلك نجده فى علم الأمراض النفسية (سيكو باثولوجى) وفى أبحاث سياقات الأحلام . وليس بين الواعية والخافية إلا فرق أساسى واحد . فالواعية مكثفة ومركزة لكنها زائلة ، وهى تتوجه نحو الحاضر المباشر والميادين المباشرة للانتباه ، زد على ذلك أنها لا تصل إلا إلى ما هو مادى ، وهى تمثل خبرة فردية واحدة تمتد على بضعة عقود من السنين . ثم إنها اكتسبت صُنعيًا ساحةً أوسع من «الذاكرة» تكون معظمها من الورق المطبوع . لكن الأمر يختلف مع الخافية ، فهى ليست مركزة ولا مكثفة ، بل يطويها الظلام ، وهى واسعة جدًا وتستطيع أن تجمع مخزونًا هائلاً من عوامل الوراثة المتراكمة التى خلفها الجيل إلى الجيل الذى يليه ، تلك العوامل التى يعتبر مجرد وجودها خطوة نحو تمايز النوع البشرى ، هذا فضلاً عن عدد غير محدود من الإدراكات اللطيفة . وإذا كان لنا أن نشخص الخافية ، أمكننا القول إنها كائن بشرى كلىّ يضم خصائص كلا الجنسين . فوق الشباب

والشيـخوخة ، وفوق الولادة والموت ، وتحت إمـرته خبرة بشرية عـمرها مليون أو مليونان من السنين ، ولذلك هو كائن شـبه خالد . لو قدّر لمثل هذا الكائن أن يوجد ، لـكان أقوى من أن تناله صروف الزمـان ، وكان الحاضـر عنده لا يعني له أكثر ولا أقل من أى سنـة من سنى القرن المائة قبل المسيح ، ولكان إنســان أحلام قديمة ونبـيئـاً لا يشق له غبـار بسبب خبرته المديدة ، ولكان عاش مرات لا حصـر لها زيادة على حياة الفرد أو العائلة أو القبـيلة أو الأمة ، ولكان لديه حس نابض بالحيـاة بإيقاع النمو الازدهار والاضمحلال .

لكن لسـوء الحظ - أو لعله لحسنه - هذا الكائن يعـيش فى غيـبوبة الحلم ، هذه هى على الأقل الحـياة التى تبدو لنا فـيها الخـافية العـامة أو الكلية فى الأحلام وكأنها ليس لها واعـية خاصة بمحتوياتها ، رغم أننا - بطبيعـة الحال - غير واثقين من انتفاء واعـيتها بأكثر من ثقـتنا من انتفاء الواعية عند الحشرات . يضاف إلى ذلك أن الواعية لا تبدو لنا شخصًا ، وإنما هى أشبه شىء بجدول دافق ، أو محـيط حافل بصور واشكال تطفو على سطح الواعية فى أحلام أو فى حالات اختلال العقل .

وإنه لأمر يثيـر السخرية حقًا أن نسمى هذه الجملة الهـائلة من خبرة النفس الخـافيـة وهمًا وجسـدنًا المرئى نفسـه مـا هو إلا مثل هذه الجـملة (النظام) . فهو لـم يزل يحمل فى داخله آثارًا بارزة ترجع إلى عهود النشأة الأولى ، وهو جملة كلية تمل أجزاؤها معًا وفقًا لهدف مقصود ، ولو كان

الأمر على خلاف ذلك ، لم نستطع أن نعيش . ليس يخطر ببال أحد منا أبدًا أن ينظر إلى التشريح المقارن أو إلى الفيزيولوجيا المقارنة على أنهما لغو ليس وراءه طائل . كذلك لا نستطيع أن نضرب صفحًا عن الخافية الكلية ونعتبرها وهمًا من الأوهام ، أو نأبى أن نقر بوجودها وأن ندرسها على أنها مصدر ثمين للمعرفة .

نحن لو نظرنا إلى النفس من الخارج لبدت لنا انعكاسًا أو مرآة للحوادث الخارجية بصفة أساسية ، لا باعتبارها حاصلة بمناسبة هذه الحوادث أو متوافقة معها ، وإنما باعتبار أن أصلها كامن فيها . كذلك يبدو لنا أن الخافية لا يمكن أن نفهمها إلا من الخارج ومن جهة الواعية . وقد بات من الأمور المعروفة جيدًا أن «فرويد» قد حاول أن يفسرها من الجانب ، لكن هذه المحاولة لا تفلح إلا أن تكون الخافية موجودة دومًا باعتبارها جملة (نظامًا) موجودة بالقوة (كامنة) بصورة بَدرية (قبلية)(١) جملةً للأداء النفسى تحدرت إلينا من أجيال البشر . الواعية إنما جاءت من النفس الخافية ، مولودًا متأخرًا عنها . ومن بالغ الحمق أن نعمد إلى تفسير حياة السلف بالاستناد إلى أحوال حياة الخلف ، كذلك من فادح الخطأ أن ننظر إلى الخافية على أنها ناشئة عن الواعية ، إنما نكون أدنى إلى الصواب لو قلنا بالعكس تمامًا .

---

(١) اصطلحنا على ترجمة a priori بكلمة بَدَرِيّ فى مقابل ترجمتنا لاصطلاح a posteriori بـ كلمة دبرىّ - المترجم - .

لقد كـان هذا هو منطلق العصور الغـابرة التى كانت تؤمن دائمًا بأن روح الفرد تتبع نظامًا روحيًا عالميًا . ولم تكن غير موفقة فى هذا ، لأنها كانت تعلم دائمًا أن كنز الخـبرة الذى لا يوصف يكمن خبيئًا تحت عـتبة الواعية الفردية الزائلة . ثم إنها لم تتوقف عند حدود صياغة فرضية حول نظام عالم الروح ، بل اعتقدت اعتقادًا لا يقبل الجدل بأن هذا النظام كائن ذو إرادة ووعى ، بل شـخص ، وأطلقت عليه اسـمًا هو الله ، حقـيقـة الحقائق . لقـد كان هذا الكائن فى نظرها أكثر الكائـنات حقيقيـة ، فهو العلة الأولى ، ومن خلاله وحده يمكننا أن نفهم الـروح . لهذه الفرضية ما يسوغها سيكولوجيًا ، لأنه لا شىء ألـيق بصفة الألوهية من كائن شبه خالد تكاد أن تكون خبرته أبدية ، قياسًا على خبرة الإنسان .

بيّنت فيما تقدم أين تكمن المشاكل لعلم نفس لا يفسر كل شىء تبعًا للأسس الفيزيائيـة ، بل يلجأ إلى عالم روح يقوم على مبـدأ فاعل ما هو بالمادة ، ولا هو بالطاقة ، وإنما هو الله . وربما أغرتنا الفلسفة الحديثة عند هذا التقـاطع بتسميـة الطاقة إلهًا ، وبذلك نواحد بين الروح والطبـيعة . لكن مادامت هذه المهمة قاصرة على الأعـالى الضبابية التى تكتنف الفلسفة التأملية ، فلا ضرر يخـشى وقوعه . أما إذا طبقنا هذه الفكرة على النطاق الأدنى من علم النفس التطبيـقى ، حيث تؤثر طريقتنا فى تفسيـر الأشياء فى السلوك اليومى ، فـإننا نقع عندئذٍ فى مصـاعب لا يرجى لنا الخروج منها . نحن لا نعتنق علم نـفس يرضى عنه الذوق الأكاديمى ، أو نفتش

عن تفسيرات لا علاقة لهـا بالحياة . إن ما نريده هو علم نفس تطبيقى يوصلنا إلى نتائج نرضى عنهـا ، علم نفس يساعدنا على تفسيـر الأشياء بطريقـة تبررها النتيجـة الحاصلة لصـالح المريض . فى العلاج النفـسى التطبيـقى نعمل جاهدين لكى نجـعل الناس يتلاءمون مع الحـياة ، ولسنا أحراراً فى صـياغة نظـريات لا تعنى مرضانا أو تكون ضـارة بهم . هنا نأتى إلى مسألة كثيراً ما أفـضت إلى أخطار قاتلة - مسألة ما إذا كنا نقيم تفسيرنا على أساس المادة أم على أساس الروح . وينبغى لنا ألا ننسى أبداً أن كل شيء روحي هو وهم من وجـهة النظر الطبـيعـية ، وأن الروح - لكى تضمن لنفسها الوجود - ينبغى لها أن تعمد فى أكثر الأحيان إلى أن تتنكر للحقيقة الفيزيائية المتطفلة وأن تتغلب عليها . فأنا إن لم أعترف إلا بالقيم الطبيـعية ، وفسرت كل شيء بالمصطلح الفيـزيائى ، فقد أقلل من شأن التطور الروحى لدى مرضاى أو أعمد إلى إعـاقته أو حتى تدميره . وإن تمسكت بالتـفسـير الروحـى حصـراً فقـد أخطىء فى فهم الإنسـان الطبيعي، وأعتـدى على حقه فى الوجود بوصفه كائناً طبيـعيًا . أكثر من بضعة انتحارات حدثت فى سياق العـلاج النفسى كان سببها ارتكاب مثل هذه الأخطاء . أن تكون الطاقة هى الله ، أو يكون الله هو الـطاقة ، أمر لا يعنينى فـى قليل أو كـثيـر ، لأنه من أين لى أن أعـرف مـثل هذه الأشيـاء؟ إما أن أعطى تفسـيراً سيكولوجيًا مناسـبًا ، فهذا مـا ينبغى أن أكون قادراً علي فعله .

العالم النفسى الحديث لا يحتمل هذا الموقع ولا ذاك ، وإنما يجد نفسه بينهما ، ملتزمًا إلتزامًا خطيراً بـ «هذا كما بذاك» - وهذا وضع يفسح المجال واسعًا أمام انتهازية ضحلة . إن هذا الخطر لهو خطر «التقاء الأضداد» - التحرر العقلى من الأضداد . كيف يمكن أن ينتج شيء عن إعطاء قيمة واحدة لمسلّمات متناقضة إلا أن يكون ترددًا لا شكل له ولا غاية ؟ وفى مقابل هذا ، نحن على استعداد لأن نؤثر مبدأ للتفسير ليس فيه التباس ؛ لأنه يتيح لنا منطلقًا نفيد منه باعتباره نقطة ارتكاز . ولا ريب فى أننا نواجه هنا مشكلة صعبة جدًا . ينبغى أن تكون لنا القدرة على الاحتكام إلى مبدأ تفسيرى يستند إلى الواقع ، ومع ذلك لم يعد ممكنًا لعالم النفس الحديث أن يؤمن حصراً بالجانب الفيزيائى من الواقع إذا كان يعطى الجانب الروحى منه ما يستحقه . كلا ولن يكون بوسعه أن يرمى بثقله على الجانب الروحى وحده ، لأنه لا يسعه أن يتجاهل صحة التفسير الفيزيائى النسبية .

طريقتى فى حل هذه المشكلة يظهرها لنا تقاطر الأفكار الذى أبيّنه فيما يلى :

الصراع بين الطبيعة والعقل هو نفسه انعكاس للتناقض القائم فى الكوين النفسى للإنسان . وهو يكشف لنا عن جانب مادى وروحى يتبدّى تناقضًا كلما أخفقنا فى فهم طبيعة الحياة النفسية . فى حدود فهمنا البشرى ، كلما أردنا أن نحكم عل شيء لم نفهمه أو لم نستطيع فهمه ،

يتعين علينا - إن كنا مخلصين - أن نناقض أنفسنا ، وأن ندخل هذا الشيء في جوانبه المتناقضة ، إن كنا نريد أن نتعامل معه أصلاً . والصراع بين جوانب الحياة المادية والروحية يكشف لنا عن أن الجانب النفسي شيء غير مفهوم في نهاية المطاف . لا ريب في أن الحوادث النفسية تشكل خبرتنا الوحيدة المباشرة ؛ كل ما أختبره فهو شأن نفسي ؛ حتى الألم الفيزيائي نفسه ما هو إلا حادث نفسي يرتد إلى خبرتي ؛ حتى الانطباعات الحسية - بكل ما تفرضه عليّ من عالم الأشياء الكتيمة التي تتحيز المكان - ما هي إلا صور نفسية ، وهي وحدها خبرتي المباشرة، لأنها وحدها هي المواضيع المباشرة في واعيتي . ثم إن نفسي تغير شكل الواقع وتزيّفه ، وإنها لتفعل ذلك إلى حد أضطر معه إلى الإستعانة بوسائل صُنعية لكي أحدد ما هي عليه الأشياء في معزل عن نفسي . وعندئذٍ اكتشف أن اللحن ذبذبة هوائية بدرجة كذا أو كذا من التردد ، وأن اللون موجة ضوئية بدرجة كذا وكذا من الطول . نحن مطوّقون بالصور النفسية إلى حد لا نستطيع معه أن ننفذ إلى قلب الأشياء الخارجة عن نفوسنا ؛ كل معارفنا مشروطة أو مقيدة بالنفس التي هي الشيء الواقعي على أعلى مستوى ، لأن النفس هي الشيء الوحيد الذي يتصف بالمباشرة . نحن هنا بإزاء واقع نفسي بوسع عالم النفس إن يحتكم إليه - وأعني به الواقع النفسي .

لو تعمقنا فى هذا المفهوم ، لاتضح لنا أن هناك محتويات نفسية أو صوراً معينة مستمدّة من البيئة المادية التى تنتسب أجسامنا إليها ، على حين أن هناك محتويات أو صوراً أخرى ، لا تقل واقعية عنها ، تبدو آتية من قبل مصدر عقلى يختلف اختلافًا كبيراً عن البيئة الفيزيائية . وسواء تصورت السيارة التى أريد شراءها أم حاولت تصور ما هى عليه روح أبى الميت - ما إذا كانت حقيقة خارجية أم فكرة كامنة فى داخلى - فإن كلا الحادثين واقع نفسى . والفرق الوحيد بينهما أن أحدهما يرجع إلى العالم الفيزيائى ، والآخر إلى عالم العقل . فإذا غيرت مفهومى للواقع تغييراً يحملنى على القول بأن جميع الحوادث النفسية حوادث واقعية - وكل مفهوم سوى هذا فغير صحيح - فإن من شأن هذا المفهوم أن يضع حدًا لصراع المادة والعقل واعتبارهما مبدأين متناقضين من التفسير ، ويصبح كل منهما عبارة عن تعيين المصدر الخاص للمحتويات النفسية التى تزدحم فى ساحة واعيتى . فلو أن ناراً أحرقتى لم أبحث فى حقيقة النار، بينما لو استبد بى خوف من شبح سوف يظهر لى لا حتميت بالقول: هذا وهم ليس أكثر . ولكن كما أن النار صورة نفسية لسياق فيزيائى ذى طبيعة غير معروفة ، كذلك إن خوفى من الشبح صورة نفسية من مصدر عقلى : إنه واقعى بمثل ما هى النار واقعية ، لأن خوفى واقعى بمثل ما هو الألم الناجم عن النار ألم واقعى . أما فيما يتعلق بالسياق العقلى الذى ينهض عليه خوفى من الشبح ، فلا أعرف عنه شيئًا بمثل ما

لا أعرف شيئًا عن الطبيعة النهـائية للمادة . وكما أنه لا يخطر ببالى أبدًا أن أفسر طبيـعة النار إلا من خلال المفاهيم التى تقدمهـا العلوم الفيزيائية والكيمياوية ، كذلك لا أفكر أبدًا فى محـاولة تفسير خوفى من الشبح إلا من خلال السياقات العقلية .

أن تكون كل خبرة مباشرة نفسية ، وكل واقع مباشر لا يمكنه إلا أن يكون نفسيًا ، إن هذا يفـسر لنا لماذا يضع الإنسان البدائى ظهـور الأشباح وتأثير السحر على صعيد واحـد مع الحوادث الفيزيائية . إنه لم يمزق بعد خبرته السـاذجة إلى أجزائها المتناقضـة . وفى عالمه لم يزل العقل والمادة متداخلين فيما بينهما ، ولـم تزل آلهته تجوب الغابة والحقل . إنه كالطفل لم يولد منه إلا نصفه ، ولم يزل تحيط به حالة حلمية داخل نفسه الخاصة والعالـم كما هو كائن فعلاً ؛ عالم لـم تفسده صعوبات الفهم التى تكتنف العقل البازغ . ولما تحلل العالـم البدائى إلى روح وطـبيعة ، سارع الغرب فاستأثر لنفسه بالطبيعة ، لقد كان ميّالاً إلى الإيمان بالطبيعة ، وكان يزداد تخبطًا فيها كلمـا حاول جهده لأن يصير روحيًا . أما الشـرق فقد استأثر لنفسه بالعقل ، وهو إذ اعتـبر المادة وهمًا (مايا) ليس إلا ، ما برح يحلم بالقذارة الآسـيوية والبؤس . لكن لما كان لا يوجـد إلا أرض واحدة وإلا بشرية واحـدة ، لم يستطع الـشرق والغرب أن يقـسمـا البشريـة نصفين مختلفين . فالواقع النفسى مـوجود فى وحدته الأصلية ، وهو ينتظر تقدم

ولعلنا نشير إلى فكرة الواقع النفسى على أنها أعظم إنجاز حققه علم النفس الحديث ، رغم أننا قلما نعترف به كذلك . ويبدو أن المسألة ما هى إلا مسألة وقت حتى تصبح هذه الفكرة مقبولة بصورة عامة . وينبغى لها أن تصبح مقبولة ، لأنها وحدها تتيح لنا أن ننصف المظاهر النفسية فى كل ما تتصف به من تنوّع وتفرّد . بدون هذه الفكرة يكون لا مفر لنا من تفسير خبراتنا النفسية تفسيرًا يلحق الإجحاف بنصفها على الأقل ، على حين أننا بهذه الفكرة نستطيع أن نعطى ذلك الجانب من الخبرة النفسية ما يستحقه ، وأعنى به الجانب الذى يعبر عن نفسه بواسطة الخرافة والأسطورة والدين والفلسفة . وهذا الجانب من الحياة النفسية ليس لنا أن نقلل من شأنه . إن الحقيقة التى تحتكم إلى شهادة الحواس قد ترضى عقولنا ، لكنها لا تقدم لنا شيئًا يحرك مشاعرنا ويعبر عنها بما تعطيه من معنى للحياة الإنسانية . ومع ذلك يكون الشعور هو العامل الحاسم فى مسائل الخير والشر فى أكثر الأحيان ؛ وإذا لم يهب الشعور إلى نجدة العقل ، ظل هذا الأخير لا حول له ولا قوة . هل أنقذنا العقل والنيّة الطيبة من الحرب العالمية ، أم هل أنقذنا قط من أى لغو مفجع آخر؟ هل قامت ثورة روحية أو اجتماعية بالاعتماد على العقل - ولنضرب مثالاً على ذلك انتقال العالم الإغريقى - الرومانى إلى عصر الإقطاع ، أو الانتشار الانفجارى للثقافة الإسلامية ؟

لست معنياً مباشرة ، وأنا الطبيب ، بهذه المسائل العالمية ؛ لأن واجباتي منصرفة إلى المرضى من الناس . ظل الطب ، حتى وقت قريب، قائمًا على أساس أن المرض يُعالَج ويُشفى من تلقاء نفسه ؛ لكننا صرنا الآن نسمع أصواتًا تخطّىء هذه النظرة ، وتنادى بمعالجة الشخص المريض ، لا بمعالجة المرض . وهذه المناداة مفروضة علينا في معالجة الآلام النفسية ؛ إذ بدأ انتباهنا يتجه شيئًا فشيئًا من المرض المرْئىّ إلى الإنسان بوصفه كلاً لا يتجزأ ، وبتنا ندرك أن المعاناة النفسية ليست ظاهرة محددة الموقع أو ظاهرة محدودة بصورة قاطعة ، وإنما هي عَرَض نشأ عن موقف خاطىء اتخذته الشخصية في كلّيتها . ولذلك ليس بإمكاننا أن نأمل بشفاء شامل ينتج عن معالجة تقتصر على الاضطراب نفسه ، بل عن معالجة الشخصية بكاملها .

تحضرنى الآن حالة ذات دلالة قوية على ما نحن بصدده ؛ وهى تتعلق بشاب على درجة عالية من الذكاء كان قد قام بنفسه بتحليل مفصل لعُصاب كان يعانى منه ، وقد قام بهذا التحليل بعد أن عكف على دراسة الأدب الطبى دراسة جادة . جاءنى بمعلوماته وقد وضعها فى صيغة موجزة جيدة الكتابة وتصلح مقالاً يُنشر ، وطلب منى أن أقرأ المخطوط وأبين له لماذا لم يُشف من عُصابه . كان يجب أن يُشفى طبقًا للحكم العلمى كما فهمه . لكنى بعد أن قرأت مقاله كنت مضطرًا لأن أسلم بأنه كان يجب

أن يُشفى لو كـانت المسألة مسـألة رؤية نافذة فى العلاقـات السببـية التى تؤدى إلى العُصاب . وبما أنه لم يُشف من عُصابه ، ذهبت إلى أن ذلك لابد راجع إلى أن مـوقفه مـن الحياة كـان ، من بعض الأوجه ، خـاطئًا بصورة أساسية - رغم أنه كان عليّ أن أعترف بأن أعراضه لم تغشّه . لما اطلعت على سيـرة حياته اتضح لى أنه كـان كثيـرًا ما يقضى الشـتاء فى سـانت موريتـزا وفى نيس . ولما سـألتـه عمن كـان ينفق عليـه فى هذه الإجازات ، أجابنى إنها معلمة فقيرة كانت تحبه وتحرم نفسها أشد الحرمان لكى تتـيح له أن ينغمس فـى منتجـعات اللذة . لقـد كان افـتقـاره إلى الوجدان السبب فى عُصابه . وليس من العسير أن نفهم لماذا أخفق الفهم العلمى فى شفائه . إن خطأه الأساسى كـامن فى موقفه الأخلاقى . لكنه ألفى طريقـتى فى النظر إلى المسـألة مناسبـة للعلم ومـصادمـة له ، لأن الأخلاق - فى رأيه - لا شـأن لها بالعلم . فظن أنه إن لجـأ إلى الفكر العلمى اسـتطاع أن يبدد عنه قلة أخـلاقيتـه التى لم يستطع هو نفـسه أن يتحـملها . ولم يكن ليسلم بأن نزاعًا كـان قائمًا فى نفســه ، لأن خليلته كانت تعطيه المال بمطلق إرادتها .

بوسعنا اتخـاذ الموقف العلمى الذى نتخيّره ، لكن يبقـى أن الأكثرية العظمى من المتـمـدنين لا يسـتطيعـون تحـمل مـثل هذا الموقف . الموقف الأخلاقى عامل حقيقى فى الحياة ، على عالم النفس أن يأخذه فى اعتباره

إذا كان لا يريد أن يقع فى أخطاء فادحة . ويجب على عالم النفس أيضًا أن يتذكر أن عـقائد دينية معينة غـير قائمة على العقل هى ضـرورة حياة بالنسبة إلى أنـاس كثيرين . كثـيرًا ما سمعت المرضى يقـولون : «ليتنى كنت أعلم أن لحياتى معنى وغاية ، إذن لما كانت هذه القصة البلهاء حول أعصابى !» .

وسواء أكان الشخص المعنىّ فقيرًا أم غنيًا ، ذا أسرة ومركز اجتماعى أم لا ، فلا يغـير من الأمر شيـئًا ، لأن الظروف الخارجيـة أبعد من أن تعطى حياته معنى ، فكيف إذا كانت المسألة مسـألة حاجة معقولة إلى ما نسميه حياة روحية ، لا يمكن تحـصيلها فى الجامعات ولا فى المكتبات ولا حتى فى الكنائس . إنـه يستطيع أن يقبل مـا تقدمه له هذه المؤسـسات ، لأن الذى تقدمه له لا يمس إلا الرأس ، لكنـه لا يحرك القلب . فى مثل هذه الحـالات ، يكون اعتـراف الطبـيب بالعوامل الـروحيـة فى ضوئهـا الصحيح أمرًا ذا أهمية حيـوية ، وإن خافية المريض تمده بما يحتاج إليه ، إذ تنتج له أحلامًا ذات مـحتويات دينية لا سـبيل إلى إنكارها . وإذا لم يعترف بالمصـدر الروحى لهذه المحتويات ، أخطأ فى المعـالجة وانتهى إلى الفشل .

إن المفاهيم العامة عن الطبيعة الروحيـة عناصر مكوّنة للحياة النفسية لا غنى عنها . ونستطيع أن نتبيّنها عند جميع الناس الذين لديهم مستوى

من الوعى يجعلها واضحة بدرجة أو بأخرى . ولذلك يعدّ غيابها النسبى أو نكرانها من قبل أناس متمدنين علامة على الانحلال . وفى حين ظل علم النفس منذ نشوئه حتى الوقت الحاضر يتعامل بصفة رئيسية مع السياقات النفسية فى ضوء السببية الطبيعية ، فإن مهمة علم النفس فى المستقبل هى البحث عن معيّناتها الروحية . لكن التاريخ الطبيعى للعقل لم يشهد اليوم قدراً من التقدم أكثر مما شهده العلم الطبيعى فى القرن التاسع عشر . إننا بالكاد بدأنا تدوين مذكراتنا عن خبراتنا الروحية .

إذا كان لعلم النفس الحديث أن يفخر بأنه كشف الغطاء الذى كان مسدلاً على صورة النفس الإنسانية ، فإن الغطاء الوحيد الذى كشفه هو ما كان يخفى عن الباحث الجانب البيولوجى منها. ولعلنا نستطيع أن نقارن الوضع الحالى بما كان عليه الطب فى القرن التاسع عشر عندما بدأ الناس بدراسة التشريح ولم تكن لديهم فكرة ولو ضئيلة عن الفيزيولوجيا . أما الجانب الروحى من النفس فلا نعرف عنه فى الوقت الحاضر إلا من نُثارة هنا ونُثارة هناك لقد تعلمنا أن ثمة سياقات مشروطة روحيًا من أجل التحولات التى تحدث داخل النفس ، وهذه السياقات تكمن وراء طقوس الارتياد المعروفة جيدًا عند الأقوام البدائية والحالات التى تستثيرها رياضة اليوغا عن الهندوس . لكننا إلى الآن لم نوفق إلى تعيين اطراداتها أو قوانينها الخاصة . كل ما نعرفه هو أن جانبًا عظيمًا من أمراض العصاب تنشأ عن اضطراب هذه السياقات . والبحث النفسى حتى الآن لم يكشف

النقـاب عن النفس الإنسانيـة ؛ إذ مازالت بـعيـدة المنال بما يكتنفهـا من غموض وخفاء شأنها فى هذا كشأن جميع أسرار الحياة . لا يسعنا الكلام إلا على ما حاولنا أن نفـعله ، ونأمل أن نفعله فى المستقـبل ، فى سبيل محاولتنا لحل الأحجية الكبرى .

الفصل العاشر

المشكلة الروحية عند الإنسان الحديث

مشكلة الإنسان الحديث الروحية هي إحدى المسائل التي تتصل اتصالاً وثيقًا بالحاضر الذي نعيشه مما يجعلنا لا نستطيع أن نقطع فيها بحكم صحيح . فالإنسان الحديث تكوين جديد للكائن البشري ؛ والمشكلة الحديثة هي مسألة نشأت لتوّاها والجواب عليها يكمن في المستقبل. لذلك عندما نتكلم على مشكلة الإنسان الحديث الروحية ، يكون أقصى ما نستطيع أن نفعله هو الإبانة عن المسألة - ولعلنا أن نصوغ هذه الإبانة بصيغ مختلفة إن كان لدينا فكرة ولو ضئيلة عن الجواب . زد على ذلك أن في المسألة نوعًا من الغموض ، وهي من العمومية بحيث تتجاوز فهم الفرد الإنساني الواحد . ولذلك إن لنا العذر إذا نحن تناولنا هذه المشكلة في كثير من الحذر والاعتدال . وإني لمقتنع جدًا بهذه الحقيقة؛ ويؤدي أن أشدد عليها كثيراً لأن من طبيعة هذه المشكلة أن تغيرنا باستعمال الكلمات الطنّانة - ولأني سوف أضطر إلى قول بعض كلمات قد تخرج عن حد الحذر والاعتدال .

لأبادر فى الحال إلى تقديم مثال على قلة الحذر هذه بالقول إن الإنسان الذى نصفه بالإنسان الحديث هو إنسان عارف بالحاضر المباشر ، وليس هو أبدًا ذلك الإنسان المتوسط . إنما هو الإنسان الذى يقف فوق ذروة العالم ، أو على حافته ؛ أمام هوة المستقبل ؛ السموات فوقه ؛ والبشرية كلها ، بتاريخها الذى يغيب فى ضباب البدء ، تحته . الإنسان الحديث - أو إنسان الحاضر المباشر - قلما نلتقى به . قلة هم الذين يعيشون فى مستوى التسمية ، لأنه يتعين عليهم أن يكونوا على درجة عالية من الوعى . ولما كان الوجود فى الحاضر وجودًا تامًا معناه أن يكون الوعى تامًا بالوجود الإنسانى ، كان لابد للواعية من أن تكون على أعلى درجة من الكثافة والامتداد ، والخافية (= اللا شعور) فى أدنى حدودها . وينبغى أن نفهم بجلاء أن مجرد العيش فى الحاضر لا يجعل الإنسان إنسانًا حديثًا ، لأنه فى هذه الحالة يصبح كل إنسان يعيش فى الوقت الحاضر إنسانًا حدثيًا ؛ إنما الإنسان الحديث من يعى الحاضر وعيًا تامًا .

الإنسان الذى نستطيع أن نسميه «حديثًا» عن جدارة واستحقاق هو إنسان مُفرد - وإنه لكذلك عن ضرورة ، وفى جميع الأزمنة ، لأن كل خطوة يخطوها نحو مزيد من وعى الحاضر تجعله ينفصل بنفس المقدار عن «مشاركته الصوفية» الأصلية مع سواد الناس - عن انغماسه فى الخافية العامة . كل خطوة يخطوها إلى الأمام تعنى تحرره من الخافية الأصلية ، الكلية - الإحاطة ، التى تستبد بالغالبية العظمى من البشر استبدادًا يكاد

أن يكون مطلقًا . حتى فى عصور التمدّن نجد الناس الذين يشكلون الطبقة الدنيا من الناحية السيكولوجية يعيشون فى حالة من قلة الوعى أشبه ما تكون بحالة الأقوام البدائية . أما الطبقة التى تليها فتبين عن مستوى من الوعى يتفق مع بدايات الثقافة البشرية ، على حين أن الطبقة العليا لديها من الوعى ما يمكنها من مواكبة الحياة فى القرون القليلة الماضية . وليس إلا الإنسان الحديث ، بالمعنى الذى اصطلحنا عليه ، من يعيش فى الحاضر ؛ فهو وحده يعيش الحاضر المباشر ، وهو وحده الذى يرى طرائق الحياة التى تتفق مع المستويات الماضية تكلفه من أمره رهقًا . فالعوالم القديمة وما انطوت عليه من قيم وهموم لا تعنيه إلا من الناحية التاريخية . وبذلك أصبح «لا تاريخيًا» ، بأعمق ما فى الكلمة من معنى، وانفصل عن سواد الناس الذين يعيشون كليّة راسفين فى أغلال التقليد . والحق إنه لا يكون حديثًا إلا عندما يقف على حافة العالم ، مخلفًا وراءه كل ما طُرح ونُبذ وعلاه الهرم ، عارفًا أنه يقف بإزاء فراغ قابل لأن ينشأ عنه كل شىء .

هذه الكلمات لعلّ بعضهم يعتبرها قعقعة فارغة ، ويردّها بعضهم الآخر إلى الإسفاف لا أكثر . لا شىء أيسر من تكلف وعى الحاضر . وفى الحقيقة هناك نفر كبير من الناس لا قيمة لهم ولا وزن يصطنعون مظهر الحداثة عن طريق القفز من فوق مختلف مراحل النمو ومهام الحياة التى يمثلونها ، فيظهرون فجأة فى جانب الإنسان الحديث على أنهم

كـائنات بشرية لا جـذور لهم ، وأشـباح تمتص الدمـاء ، يلتـبس علينا فراغهـم فنحسبه توحّد الإنسـان الحديث الذى لا يُحسد عليـه ويلقى عليه ظلال الشك والإرتياب فهو وأضرابه ، على قلّتـهم ، خفيّون عن العيون المميزة ، وهى عيـون السواد الأعظم التى تحجبها غـيوم الأشباح ، وأعنى بهم الحديثين المزيفين أو أشباه الحـديثين . ما من فائدة ترجى ؛ «الإنسان الحديث» موضوع تساؤل وارتياب ، وهو دائمًا هكذا ، حتى فى الماضى .

الاعتناق المخلص للحداثة معناه الإفلاس عن طـواعية واختيار ، ونَذر الفقر والعفة بمعنى جديد و - ما هو أشد إيلامًا - التخلىّ عن الهالة التى يمنحها التاريخ علامة على موافقته . أن تكون «لا تاريخيًا» هو أن ترتكب خطيئة بروميثيوس ، وبهذا المعنى يعـيش الإنسان الحديث فى الخطيـئة . لكن ، كمـا قلت ، ليس يسع أحدًا أن يحـقق الوعى التام بالحـاضر إلا الإنسان الذى تجاوز مراحل الوعى التى تـرجع إلى الماضى وقام بالواجبات التى كلّفه بها عالمـه . ولكى يفعل هذا يجب أن يكون سليم الحجى بارعًا بكل معنى الكلمـة - إنسانًا قام بمثل مـا يقوم به غيره أو أكـثر . إن هذه الصفات هى التى تمكنه من الإرتقاء إلى المستوى الذى يليه من الوعى .

أعرف أن فكرة البراعة أو الحذق يمقتـها أشباه الحديثين أشد المقت ، لأنها تذكرهم بأساليب المكر والخداع التى يتـبعونها تذكيرًا لا يبعث على السـرور . غيـر أن هذا لا يمنعنا من اتخـاذ هذه الفكرة مـعيـارًا للإنسان الحـديث ، بل نحن مضطرون إلى اتـخاذها لأن الإنسـان الذى يتصـدى

للحداثة إن هو إلاّ مقامر لا يبالى بشىء ، وينبغى له أن يكون على أعلى درجة من البراعــة ، لأنه إن لم يستطع أن يكفر عن خطيئة خرقــه التقليد بقدرته على الإبداع كان مجرد مناوىء للماضى . وإنها لشعوذة صرفة أن تعتبر التنكر للماضى شيئًا واحداً هــــو وعى الحاضر . «اليوم» يقف بين «الأمس» و «الغد» ، مشكلاً حلقة واصلة بين الماضى والمستقبل؛ وليس له أى معنى آخر . إن الحاضر يمثل سياقًا انتقاليًا . والإنسان يمكنه أن يعتبر نفسه حديثًا إن كان واعيًا على الحاضر بهذا المعنى .

كثيرون يزعمون أنهم حديثون ، ولا سيما أشباه الحديثين . ولذلك كثيرًا ما نجد الإنسان الحـديث حقًا فى جملة من يـدّعون أنهم من الطراز القديم ؛ وعنده من الأسـباب الكافيـة ما يحمله عـلى اتخاذ هذا الموقف . فمن ناحـية ، هو يشدد على أهمـية الماضى لكى يمسك بكفـة الميزان فى مقابل خرقـه للتقليد وفى مقابل أثر الخطيـئة التى تكلمت عنها ؛ ثم من ناحية أخرى ، هو يرغب فى تحاشى الالتباس بأشباه الحديثين .

لكل صفة حسنة جانب سىء ، ولا خير يدخل العالم إلا وينتج عنه مباشرة شـر يناسبه . هذه حقيـقة مؤلمة . وهنا يكمن الخطر فى أن يؤدى وعى الحاضر إلى غرور مبعثه الوهم : الوهم بأننا المحصلة الأخيرة لتاريخ البشرية ، ختام العصور الغابرة وثمرتها النهائية . لو سلمنا بذلك لعلمنا أنه ما هو إلا اعتراف بفقرنا المدقع ، بأننا خـيبنا آمال العصور الغابرة وما عقـدته علينا من رجاء . لـو فكرنا فى حوالى ألفى سنة من المثل العـليا

المسيحية يعقبها ، بدلاً من عودة المسيح وقيام ملكوت السماء ، الحرب العالمية بأسلاكها الشائكة وغازاتها الخانقة[1] ، لأدركنا فداحة هذه الكارثة في السماء وعلى الأرض .

تجاه هذه الصور لعلنا نصبح أكثر تواضعًا . صحيح أن الإنسان الحديث هو المحصلة الأخيرة لتاريخ البشرية ، إلا أن الغد سوف يتجاوزه، صحيح أنه الخاتمة النهائية لما سبقه من تطور ، إلا أنه فى نفس الوقت خيّب آمال البشرية أسوأ خيبة . والإنسان الحديث يعرف هذا . فقد رأى الخير الذى يمكن أن يجنيه من العلم والتقانية والتنظيم ، لكنه رأى حكومات خيّرة المقاصد تمهد السبيل للسلام القائم على مبدأ «فى زمن السلم ينبغى الاستعداد للحرب» ، وكيف أصبحت أوروبا على شفا حفرة من الدمار . أما فيما يتعلق بالمثل العليا - وأعنى بها الكنيسة المسيحية والأخوة البشرية والديمقراطية الاجتماعية، و «تضامن» المصالح الاقتصادية - فقد أخفقت جميعها فى تحمل معمودية النار واختبار الواقع . اليوم ، وبعد خمسة عشر عامًا من انتهاء الحرب ، نلاحظ مرة أخرى نفس التفاؤل ، ونفس التنظيم ، ونفس الآمال والتطلعات السياسية ، ونفس العبارات والشعارات . كيف لا نخشى أن تؤدى هذه كلها إلى كوارث أخرى ؟ الاتفاقيات التى تعقد لمنع الحروب غير المشروعة تجعلنا نرتاب فى أنها خليقة بأن تحقق أغراضها ، حتى حين نتمنّى لها كل النجاح . إذ

(١) واضح أنه يريد الحرب العالمية الأولى - المترجم - .

يوجد فى القاع ، وخلف كل تدبير مسكّن من هذه التدابير ، شك يبعث على الضيق . على وجه الإجمال ، أظن أننى غير مبالغ إذا قلت إن الإنسان الحديث يعانى من صدمة تكاد أن تكون قاتلة ، من الناحية النفسية ، مما ترتب عليه أن يقع فى هاوية عميقة من الشك والقلق .

أعتقد أن هذه الإبانات تكشف بجلاء أن صفتى ، وأنا الطبيب ، إنما تلوّن وجهات نظرى . لأن من دأب الطبيب أن يتجسس العلل ، وليس يسعنى إلا أن أكون طبيبًا . لكن الشيء الأساسى فى صناعة الطب الا تكتشف العلل حيث لا علة ؛ ولذلك لن أؤكد على أن العرق الأبيض عمومًا ، والأمم الغربية خصوصًا ، مصابة بالعلل وأن العالم الغربى واقف على حافة السقوط ؛ إذ ليس من صلاحيتى إصدار مثل هذا الحكم.

ما عرفته عن مشكلة الإنسان الحديث الروحية إنما عرفته من اختباراتى الشخصية كغيرى من الناس ولنفسى بالذات . لقد أتيح لى أن أعرف شيئًا عن الحياة النفسية الداخلية للمئات من ذوى الثقافة العالية ، من مرضى وأصحاء ، أتوا إلىّ من كل صقع من أصقاع العالم المتمدن الأبيض ؛ وقد شيّدت هذه الإبانات على هذا الأساس . ولا شك أننى لا أستطيع إلا رسم صورة وحيدة الجانب ، لأن الأشياء التى لاحظتها إن هى إلا حوادث من حياة نفسية ، كامنة فينا - فى جانبنا الداخلى دائمًا وفى كل مكان . ينبغى لنا أيضًا أن نبحث عن النفس فى الخارج عند

أجناس بكاملها أو فى حقب من التاريخ لا تأخذ بحسبانها الحياة النفسية بهذه الصفة . ومن أمثلة ذلك لعلّنا نتخيّر أى ثقافة من الثقافات القديمة ، ولا سيما الثقافة المصرية وما اتصفت به من موضوعية جليلة واعتراف بآثام لم تقترف . لم نعد نشعر بالأهرامات ولا بقبور «صقارة» بأنها تعبر عن مشكلات أو عواطف شخصية ، بأكثر مما نشعر بذلك فى موسيقى باخ .

كلما اعتمدنا صيغة خارجية ، طقسية أو روحية ، نستطيع التعبير بواسطتها تعبيراً مكافئًا عن جميع تطلعات الروح وآمالها - على نحو ما نجده فى بعض الديانات الحيّة - أمكننا القول إن النفس موجودة فى الخارج ، ولا وجود لمشكلة روحية ، بالمعنى الدقيق للكلمة . بالتساوق مع هذه الحقيقة ، حصل التطور فى علم النفس فى العقود الأخيرة من السنين ، هذا برغم أن الإنسان كان ، قبل هذا التطور بزمن بعيد ، قد بلغ من التأمل فى حياته الروحية ، كما بلغ من الذكاء ، مبلغًا أتاح له التعرف على الحقائق التى تشكل مادة علم النفس . والشىء نفسه ينطبق على معرفته التقانية (= التكنولوجية) . فقد كان الرومان على علم بجميع المبادىء الآلية والحقائق الفيزيائية التى كان يمكنهم على أساسها أن يشيدوا الآلة البخارية ، لكن ما نتج عن هذه المعرفة لم يكن أكثر من لعبة صنعها «بطل الإسكندرية» ؛ لأنه لم تكن ثمة ضرورة ملحة للذهاب إلى أبعد من ذلك ، لكن لما جاء القرن التاسع عشر وحصل التخصص وتقسيم العمل

نشأت الحاجة إلى تطبيق المعرفة المتوافرة . وكذلك كان «اكتشاف» علم النفس تلبية لحاجة روحية باتت ملحة في زماننا هذا . طبعًا ، لم يكن هناك زمن لم تكشف فيه النفس عن نفسها ، لكن ذلك لم يكن يسترعي انتباه أحد ولا ملاحظته . فقد كان الناس يفلحون في تدبير شؤوننا ما لم نعر طرائق النفس عظيم انتباهنا .

لقد كان رجال الطب هم أول من لاحظوا ذلك ، لا الكهان ؛ ذلك أن هؤلاء لا يُعنَونَ إلا بشيء واحد هو قيام النفس بوظائفها من دونما اضطراب وأن يكون قيامها بذلك في نطاق نظام من الإيمان معترف به . فما دام هذا النظام يتيح للحياة أن تعبر عن نفسها تعبيرًا صادقًا ، فليس لعلم النفس أن يكون غير معوان فني على العيش السليم ، وبالتالي لا يمكن اعتبار النفس مشكلة بحد ذاتها . وما دام الإنسان يعيش كائنًا في قطيع ، فليس له «أشياء روحية» خاصة به ؛ إذ ليس له حاجة إليها أصلاً ، اللهم إلا الإيمان العادي بخلود الروح . لكنه ما إن يتجاوز في نموه أي صيغة موضعية من الديانة التي نشأ عليها - ما إن تعود هذه الديانة غير قادرة على الإحاطة بكل ما في حياته من امتلاء - حتى تصبح النفس شيئًا له حقوقه الخاصة لا يسع تدابير الكنيسة وحدها أن تهبّ لإسعافه . ولذلك كان لنا اليوم علم نفس يقوم على الخبرة ، لا على بنود إيمان ، ولا على مسلمات تابعة لأي نظام فلسفي . ثم إن مجرد أن يكون لنا علم نفس كهذا العلم إنما يشكل في نظري دليلاً على ما تعانيه

حياتنا الروحية من اضطراب شديد . إن التمزق الذى يصيب الحياة الروحية فى عصر من العصور يبين لنا أنه يتبع نفس النمط الذى يتبعه التغيير الجذرى الذى يصيب حياة الفرد . ومادام كل شىء يسير على ما يرام ، والطاقة النفسية تجد تطبيقاتها فى طرائق مكافئة ومنتظمة ، فلا شىء يزعجنا من الداخل ، ولا شك يقلقنا ، ولا انقسام ينزل بأنفسنا ، أما إذا انسد مجرى قناة أو أكثر من قنوات النشاط النفسى ، فإن هذا يذكرنا بما يحدث للنهر الذى ينسد مجراه ؛ ينكفىء تياره إلى الخلف إلى حيث منبعه ؛ عندئذٍ يريد الإنسان الداخلى ما لا يريده الإنسان الخارجى المنظور فتقوم الحرب بيننا وبين أنفسنا ؛ وعندئذٍ فقط ، وفى غمرة الألم الشديد ، نكتشف النفس . أو بعبارة أدق وأحدّ ، يصادفنا شىء يفسد علينا أفعالنا الإرادية ، شىء غريب عنا لا بل مُعادٍ لنا ، أو مناقض لوجهة نظرنا الواعية . وتُظهرنا على هذا السياق إظهاراً جليًا أعمال «فرويد» فى التحليل النفسى ؛ كان أول شىء كشف النقاب عنه تلك التخيلات الإجرامية المنحرفة جنسيًا التى تتناقض فى ظاهرها كليًا مع نظرة الإنسان المتمدن الواعية . ومن يخضع لتأثير هذه التخيلات ، فليس أقل من متمرد أو مجرم أو مجنون .

لا يمكننا حسبان هذا الجانب من النفس الخافية (= اللاشعور) ، أو الجانب الداخلى من العقل البشرى ، شيئًا جديداً كل الجدّة ؛ ولعله كان موجوداً دائمًا فى كل ثقافة قد ولّدت نقيضها المدمّر ، لكن ما من ثقافة أو

مدنيـة قبل ثقافتنا أو مـدنيتنا اضطرت ، كمـا اضطررنا نحن ، إلى أخذ هذه «التيارات الباطنة» بمثل هذه الجديّة الزائدة . كانت الحيـاة النفسية فيما مضى تجـد تعبيرها دائمًا فى نظام مـيتـافيـزيقى من نوع ما . أمـا اليوم فالإنسان الحديث لم يعد بوسعه إلا الاعتراف بقدرة القوى النفسية ، برغم ما يبذله من جهود شـاقة عنيدة لكيلا يعترف بها . وهذا ما يميـز عصرنا من جميع العصور الأخرى ؛ لم يعد بـوسعنا نكران وجود قوى نفسية لا يمكنهـا ، فى الوقت الحاضر علـى الأقل ، أن تلاقى لها محـلاً فى نظام عالمنا العقلى . بل نحن قد توسـعنا فى درس هذه القوى التى جعلنا منها علمًا مستقلاً قائمًا بنفـسه - وهذا برهان آخر على ما نوليه إياها من أهميّة جادّة . وبينما كان بوسع أهل القرون الماضية أن يطرحوها جانبًا دون أن يكلفوا أنفسهم عناء ملاحظتها ، أضحت لنا قميص «نيسوس» لا نستطيع أن نخلعه عنا أبدًا .

الثورة التى حـدثت فى نظرتنا الواعية ، وكان من نتـائجها المفـجعة الحـرب العالميـة ، تتبـدّى فى حـياتنا الداخليـة فى تحطم إيماننا بأنفـسنا وقيمتنا . كنا ننظر إلى الأجانب - الطرف الآخر - على أنهم هو الملومون سيـاسيًا وأخلاقـيًا ؛ أما الإنسان الحـديث فمضطر إلى الاعـتراف بأنه ، سياسيًا وأخلاقيًا ، مثله كمثل أى إنسان آخر . وفى حين كنت أؤمن فى الماضى بأن من واجبى دعوة الأشخـاص الآخرين إلى التزام جانب النظام أيضًا ؛ أسلّم بهذا من تلقاء نفـسى لأننى أعلم حقّ العلم أنى فاقد الإيمان

بإمكان تنظيم العالم على العقل ، وأن الحلم القديم بالألفية ، حين يسود العالمَ السلامُ والإنسجامُ ، قد أصبح حلمًا باهتًا . كان للريبيّة التى أصابت جميع هذه الأمور أثرٌ عظيم فى تبريد حماسة الإنسان الحديث للسياسة وإصلاح العالم ؛ أكثر من هذا ، إن من شأن هذه الريبيّة الأ تدعم أى تطبيق هادىء للطاقات النفسية على العالم الخارجي . والإنسان الحديث ، وهو فى هذه الريبيّة ، ما يلبث أن ينكص على عقبيه ، فتتكفىء طاقات راجعة إلى منبعها وتطفو على السطح تلك المحتويات النفسية التى كانت موجودة فى جميع الأزمنة ، خبيئةً فى طبقات رسوبات الوحل ما ظل النهر يجرى هادئًا فى سيره الطبيعى . كم يبدو عالمنا مختلفًا لإنسان العصر الوسيط ! الأرض عنده ثابتة أبدًا ومستريحة فى مركز العالم ، يحيط بها دوران الشمس حولها وتهبها الدفء فى توق شديد . كان الناس جميعهم أبناء الله ينعمون برعاية «العلى» ومحبته ، الذى أعدهم للسعادة الأبدية ؛ وكان الجميع يعلمون حق العلم ما ينبغى عليهم فعله وكيف ينبغى لهم أن يسلكوا لكى يرتفعوا من عالم فاسد إلى وجود يمنحهم البهجة والغبطة ولا يتطرق إليه فساد . أما نحن فلم تعد تبدو لنا مثل هذه الحياة واقعية ، حتى ولو فى الأحلام . فالعلم الطبيعى كان قد مزّق هذا القناع الجميل مِزَقًا منذ زمن بعد . لقد ولّى ذلك العصر بعيدًا بعد الطفولة عنا ، عندما كان والد أحدنا أحسن الخلق وأشدهم بأسًا .

لقد فقد الإنسان الحديث كل إيمان ميتافيزيقى كان يؤمن به أخوه فى العصر الوسيط ، وشيّد عوضًا عنه مثلاً أعلى من الضمان المادى والرفاه العام والإنسانية . ولكى تبدو هذه المثل العليا ثابتة لا تتزعزع ، لابد لها من جرعة كبيرة من التفاؤل . لكن ما حدث هو أنه حتى الضمان المادى قد ذهب أدراج الرياح ، لأن الإنسان الحديث صار يرى كل خطوة يخطوها فى التقدم المادى إنّما تضيف قوة بقدرتها تمامًا إلى الخطر الذى يتهدده بالكارثة العظمى . إن مجرد الصورة تثير فى مخيلته الرعب . تُرى كيف نتصور ما يحدث عندما تقوم اليوم مدن بأسرها بإحكام تدابير الوقاية من الغازات السامة ثم تجرى عليها التدريب بارتداء الأقنعة ؟ لا يسعنا إلا الإفتراض بأن هذه الغارات قد رسمت لها الخطط وأعدت لها العدة - ثانيةً على مبدأ «فى زمن السلم ينبغى الاستعداد للحرب» . فليجمع الإنسان ما لديه من أدوات دمار لكى يجد الشيطان الذى بداخله عاجزًا عن مقاومة وضعها فى موضع استعمالها المحتوم ولقد أضحى من الأمور المعروفة أن الأسلحة النارية تنطلق من تلقاء نفسها إذا تجمع منها كمية معيّنة بعضها إلى بعض .

القانون الذى يحكم الممكن الأعمى ، وهو القانون الذى دعاه هيراقليط بالانقلاب الضدى ، هو الآن آخذ فى الإعلان عن نفسه للإنسان الحديث متسللاً إليه من خلال الدروب الجانبية من عقله ، فيجعله يقشعر من الخوف ويقضى على إيمانه بديمومة آثار التدابير الاجتماعية

والسياسية في وجه هذه القوى المهولة . وهو لو أشاح بطرفه عن الإمكانيات الرهيبة لعالم أعمى تتناوب عليه عمليتا بناء وتدمير ، وحدّق داخليًا فى فجوات عقله ، لرأى ثمة عماء وظلمة كان يؤثر لو أنه ما رآهما. لقد دمر العلم كل شيء حتى ملاذ الحياة الداخلية . وما كان فى يوم من الأيام شاطىء أمان أضحى اليوم مكانًا للرعب .

ومع ذلك قد يكون عونًا لنا اكتشاف ما فى أعماق نفوسنا من شر مستطير ، الأمر الذى يجعلنا نؤمن على الأقل بأننا قد وضعنا أيدينا على أصل الشر عند الإنسان . فى مبدأ الأمر قد تصدمنا الحقيقة وتنزاح الغشاوة عن أعيننا ، لكننا نشعر مع ذلك - بما أن هذه الأشياء مظاهر تكشف الستار عن عقولنا - بأننا نمسك بهذه المظاهر بأيدينا على درجات متفاوتة ، ونستطيع بالتالى تصحيحها ، أو على الأقل إخضاعها لرقابتنا بصورة مجدية . بودنا الافتراض أننا لو أفلحنا فى هذا ، لاستأصلنا جانبًا من الشر فى العالم ، بودنا الاعتقاد ، على أساس المعرفة الواسعة الانتشار بالخافية وطرائقها ، أنه ما من أحد يمكن أن يخدعه سياسى يجهل ما فى نفسه من نوازع شريرة ، لأنه عندئذٍ حتى الصحافة تنبهه قائلة له : «تفضل وحلل نفسك ». فأنت تعانى من عقدة أبوية مكبوتة» .

لقد تعمدت اختيار هذا المثال الغريب لعلنى أبيّن مبلغ السخافات التى يقودنا إليها توهمنا لأن الشيء لمجرد كونه شأنًا من شؤون النفس إنما

يخضع لسيطرتنا . غير أنه إن صح أن كـثيراً من الشر فى العالم ناشىء عن أن الإنسان عـمومًا كائن غيـر واع إلى حد لا رجاء فيـه ، فإنه يصح القول أيضًا إنه كلما ازداد وعـينا أصبح فى مقدورنا مكافـحة هذا الشر فى مصـدره الكامن فى نفوسنا . وكـما أن العلم يتيـح لنا معالجـة الأمراض النازلة بنا من الخارج ، كذلك هو يعيننا على مـعالجة الأمراض التى تطلع لنا من الداخل .

ما شهده علـم النفس فى العقدين الأخيرين من اهتمـام يتسم بالنمو السريع والامتداد على نطاق العالم يظهرنا بما لا يدع مجالاً للخطأ على أن الإنسان الحديث قـد بدأ يصرف اهتمامه قليلاً عن الأشـياء المادية ويلتفت إلى سياقاته الذاتية . هل لنا أن نسمّى هذا مـجرد فضول ؟ مهما يكن من أمر ، فإن للفن طريقتـه فى استباق التغيرات المستـقبلية فى نظرة الإنسان الأساسية ، والفن التعبيرى قد أدرك هذا الالتفات نحو الذات قبل حدوث التغير بزمن بعيد .

إن هذا الاهتـمام بعلـم النفس فى الوقت الحاضـر يظهـرنا على أن الإنسان يأمل فى الحصول على شىء من الحياة النفسية لم يحصل عليه من العالم الخارجى : شىء لا شك أن دياناتنا يجب أن تشتمل عليه ، لكنها لـم تعد تشـتمل عليـه - على الأقل بالنسبة للإنـسان الحديث . فـالصيغ والأشكال الدينية لم تعد تبدو للإنسان الحـديث آتية من الداخل - تعبيراً عن حـياته النفـسيـة ، بالنسبـة إليـه يجب تصنيفـها مع أشـياء العـالم

الخارجى. ولما كان غير متاح له أن يستلهم روحًا ليست من هذا العالم ، راح يجرب عـدداً من الديانات والعقـائد كما يرتدى مـلابس الأحد ، ثم يعود فينبذها جانبًا كما ينبذ ملابسه المهترئة .

لكنه مع ذلك يذهله ، على نحو من الأنحاء ، ما ينتجه عقله الخافى من مظاهر أشبـه بالمظاهر المرضية . ينبغى لنا أن نسلم بالواقع ، مهـما كان صعبًا علينا رؤية شىء نبذته الأجيال المـاضية يستولى على اهتمامنا . أن يوجد اهتمام عام بهذه الأمور حقيقة لا يمكن نكرانها ، مهما كانت مرّة المذاق . لا أريد فقط الإشـارة إلى الاهتمام بالـسيكولوجيـا من حيث هى علم ، ولا الاهتمام الأضيق بمدرسة «فرويد» فى التحليـل النفسى ، وإنما الاهتمـام الذى أضحى واسـع الانتشار بجـميع أنواع الظـاهرات النفسـية المتمثلة فى نمو العلوم الروحية والتنجيم والحكمة الإلهـية (الثيوسوفية) وما أشبه ، وهو اهتمام لم يشهد العالم مـثيلاً له منذ القرن السابع عشر ، لا يشـبهه إلا ازدهار الـفكر الغنوصى فى القرنين الأول والثـانى للمـيلاد . والحق إن التيارات الروحية فى الوقت الحاضر ذات صلة وثيقة بالغنوصية، حتى إنه يوجد اليوم كنيسة غنوصية فى فرنسا ، ومدرستان ألمانيتان تعلنان صراحة عن انتمائهما للغنوصية . لكن ما يلفت النظر من الناحية العددية فى الحركة الحـديثة هو بلا شك الحكمة الإلهيـة (الثيوسوفـية) إلى جانب شقيقتها الحكمة البشـرية (الأنثروبوسوفية) ، وهاتان المدرستان ما هما إلا الغنوصية فى رداء هندوكى . فـبالمقارنة مع هذه الحركات لا يعـد الاهتمام بالسيكولوجـيا شيئًا مذكـوراً . ما يلفت النظر فى الأنظمة الغنوصـية انها

تقوم حصراً على مظاهر الخافية (اللا شعور) ، وأن تعاليمها الأخلاقية لا تعوق الجانب المتمم من الحياة . فالكواندالينى - اليوغا الهندوكية - تظهر هذا بجلاء حتى فى انبعاثها الأوروبى . ولما كان كل شخص عارف بالموضوعات الغيبية يشهد هذا ، كانت الإبانة صحيحة أيضًا فى هذا الميدان .

لا شك أن الاهتمام الشديد بهذه الحركات ناشىء عن أن الطاقة النفسية لم يعد بوسعها أن تلبس أشكالاً عفى عليها الزمن . ولذلك اتخذت هذه الحركات صبغة دينية حقيقة حتى حين تزعم أنها ذات صفة علمية . ولا يغير من الأمر شيئًا أن يدعو رودلف شتاينر حكمته البشرية «علماً روحيًا» ، أو تكتشف السيدة أدى «علمًا مسيحيًا» إن محاولات التغطية هذه لتظهرنا على أن الدين قد غدا شيئًا يبعث على الارتياب بمثل ما تبعث عليه السياسة والدعوات إلى إصلاح العالم .

لا أظنني مبالغًا إذا قلت أن الإنسان الحديث خلافًا لأخيه ابن القرن التاسع عشر ، إنما يوجه اهتمامه إلى النفس ، وهو محمّل بعظيم الآمال ، وهو يفعل ذلك من غير أن يرجع إلى عقيدة من العقائد التقليدية ، وإنما بالمعنى الغنوصى للخبرة الدينية . ولابد لنا من ارتكاب خطأ فادح إذا نحن لن نَرَ فى هذه الحركات التى ذكرتها تواً ، وهى تحاول أن تسبغ على نفسها صفة العلم ، إلا رسومًا كاريكاتورية أو حفلات تنكرية ، إنها إذ تفعل هذا فإنما تدل على أنها تتبع «العلم» فعلاً أو تتخذ المعرفة بدلاً من

«الإيمان» الذى تقوم عليه الأديان الغربية . إن الإنسان الحديث يمقت المسلمات الدغماطيقية إيمانًا له كما يمقت الأديان التى تأسست عليها ، فهو لا يأخذ بها إلا بمقدار ما تتفق مضامينها مع خبرته لأعماق حياته النفسية، يريد أن يعرف ، أى أن يختبر بنفسه . وقد لفت العميد انج ، كاتدرائية القديس بولس ، لفت الانتباه إلى حركة فى قلب الكنيسة الأنجليجانية ذات أهداف مماثلة .

فى يومنا هذا ، وصل عصر الاكتشاف إلى نهايته ولم يبق فى الأرض جزء إلا وقد كشفناه ، وقد كانت بداية النهاية حين لم يعد الناس «يؤمنون» بأن أهل القطب الشمالى يسكنون بلادًا لا تغيب عنها الشمس، وباتوا يريدون أن يعرفوا بأنفسهم ويروا بأم أعينهم ما وراء تخوم العالم المعروف . ومن الواضح أن عصرنا يميل إلى الكشف عما وراء تخوم الواعية ، والسؤال المطروح الآن فى الدوائر الروحانية هو : ماذا يحدث لو فقد الوسيط واعيته ؟ وكل من يتبع مذهب «الحكمة الإلهية» (الثيوسوفية) يسأل : ما هى الخبرة التى اختبرها فى المستويات العليا من الواعية ؟ والسؤال الذى يطرحه كل عالم بالنجوم هو : ما هى القوى الفاعلة والعوامل التى تقرر مصيرى خارج مجال نيّاتى الواعية ؟ وكل محلل نفسى يريد أن يعرف : ما هى السوائق الخافية (اللا شعورية) وراء العُصاب ؟

إن عصرنا يرغب فى أن يعرف الخبرات الفعلة فى الحياة النفسية ، يريد أن يختبر بنفسه ، لا أن يقيم افتراضات على أساس خبرة العصور

الغابرة . ومع ذلك إن هذا لا يمنعه من أن يجرب شيئًا بطريقة افتراضية - مثلاً الأديان المعترف بها اليوم والعلوم الأصيلة . إن أوروبى الأمس يحس قشعريرة تسرى فى عموده الفقرى عندما يحدّق مليًا فى هذه الحفر ، فهو لا يعتبر موضوع البحث بالغ الظلمة والغرابة وحسب ، وإنما يعتبر المناهج المستعمة تعسفًا شديداً إذ تسخّر أدق المكاسب العقلية التى أحرزها الإنسان فى خدمة هذه المواضيع . ماذا ننتظر من عالم بالفلك أن يقول عندما تعلمه أن ألف جدول أبراج علـى الأقل بات اليوم يوضع فى مقابل واحد كان يوضع لـثلاثمـائة سنة خلت ؟ مـاذا يقـول المعلم المدافع عن التنوير الفلسفى عندما يعلم أن العالم لم يتحرر ولا من خرافة واحدة منذ عصر الإغريق القدامى ؟ فرويد نفسه ، مؤسس مدرسة التحليل النفسى ، ألقى ضوءًا ساطعًا عـلى ما يغمر النفس الداخليـة من قذر وظلام وشر ، وقدّم لنا هذه الأشـياء على أنهـا نفاية وسقط متاع ، وكلّف نفسه عناء شديداً فى ثنى الناس عن البحث عن شىء فيما وراءها . لكنه لم يفلح ، وكانت النتيجة أن أحدثت تحـذيراته نفس ما كان يريد منع حدوثه ، لقد أيقظت فى كثيـر من الناس افتتانًا بجميع هذه الأقـذار ، لنا أن نسمى هذا انحرافًا محـضًا ، ولنا أن نفسره على أساس أنه ليس حـب القذارة هو ما يجتـذب الناس ، وإنما هو الإفتتان بعـالم النفس . ولا شك أن الإنسان منذ بداية القرن التاسع عـشر - منذ سنى الثورة الفرنسيـة وما تلاها - قد بدأ يحل النفس مكانة بارزة أخذت أهميتها تزداد علـى مرّ الأيام ، وكان اهتمامه المتزايـد بها معياراً لا تجذابه المتزايد إليهـا . ويبدو أنه كان اعتلاء

«إلهة العقل» على عرش كاتدرائية نوتردام بادرة رمزية كان لها مغزى كبير بالنسبة إلى العالم الغربى ، كان أشبه بقيام المبشرين النصارى بتحطيم بلّوطة «ووطان» لأنه لم تنزل فى ذلك الحين ، كما لم تنزل عند قيام الثورة ، صاعقة من السماء فتنتقم من المجدفين وتقضى عليهم قضاء مبرمًا.

وليس من قبيل المصادفة أن يقوم فى ذلك الوقت بالذات فرنسى اسمه «انكتيل دى بيرون» ، كان يعيش فى الهند فى مطلع المئات الثمانى عشرة ، بجلب ترجمة «أوبنك هات» – وهى مجموعة مؤلفة من خمسين أو بانيشادة – أعطت العالم الغربى أولى نظرته العميقة فى العقل الشرقى المحيّر . المؤرخ يعتبر هذا الأمر ليس أكثر من مصادفة لا صلة لها بعوامل السببيّة والمسببيّة . أما من زاوية خبرتى الطبية فلا أستطيع اعتبار الأمر مصادفة لا أكثر ، بل حرىّ به أن يكون فعلاً من أفعال قانون نفسى يحدث آثاره فى الحياة الشخصية لا أقل بصورة لا استثناء فيها : كل جزء من الحياة الواعية يفقد أهميته وقيمته – هكذا يمضى القانون – ينشأ عنه تعويض فى الحياة الخافية (اللا شعورية) . ولعلنا نرى فى هذا القانون مشابهة بقانون حفظ الطاقة فى العالم الفيزيائى ، ذلك أن سياقاتنا النفسية لها جانبها الكمى أيضًا . ما من قيمة نفسية تختفى إلا وتحل محلها أخرى تساويها فى الشدة . هذه قاعدة لها تأييدها البرجماتى فى الممارسة اليومية عند أساة النفس ، قاعدة ثابتة تكرارًا ولا تخطئ أبدًا .

هنا يأتى الطبيب ، الذى فى داخلى ، لكى يرفـض رفضًا قاطعًا أن تكون حيـاة الناس المجتمـعين شيئًا لا يتـماشى مع القـوانين النفسيـة . فالناس مجتمعين ، فى نظر الطبيب ، يقدمون عن الحـياة النفسية صورة أعقد من الصـورة التى يقدمـها الفـرد ، بعض الشىء . يضـاف إلى ذلك أننا إذا نظرنا إلى الموضوع من الجـانب الآخر . أفلم نسمع أحد الشـعراء يتكلم عن «الأمم» فى روحه ؟ وهذا صحيح تمامًا ، كما يبدو لى ، ذلك أن أحد جوانب النفس ليس فـرديًا أو ليس فردًا . بل هو مستـمد من الأمة ، أو من الجماعة ، أو حتى من البشرية جمعاء . فعلى نحو أو آخر نحن جزء من حياة نفـسية محيطة ، جزء من «الإنســان الأعظم» الواحد ، على حد تعبير سويدنبرغ .

وعلى هذا يمكننا أن نعـقد هـذه المقارنة : كـما أن الظلمـة التى فى داخِلى ، وأنا الكائن البشـرى الواحد ، تستدعى النور المسـعف ، كذلك هى تستدعيه فى حياة الجماعـة النفسية ، لقد كان فى الجموع التى تدفقت إلى نوتردام ، الجموع التى تنزع إلى التخريب ، لقد كان فيها قوى مظلمة مجهولة الاسم تتفاعل تفاعـلاً جذريًا يقتلع الفرد من جذوره ، لقد كانت هذه القوى تتـفاعل أيضًا فى نفس «انكتـيل دى بيرون» وتسـتثيـر جوابًا ينحدر من أعماق الطبيعة . لقد جاء بالعقل الشرقى إلى الغرب أما تأثيره علينا فليس بوسعنا أن نعرفـه الآن . لكن لنكن على حذر من التقليل من شأنه ! والحق إنه ليس يوجـد حتى الآن إلا قليل من هذا التأثيـر نستطيع

أن نتبيّنه على السطح الفكرى من أوروبا : بضعة مستشرقين ، واحد أو اثنان من متهمين بالبوذية ، بضعة من ذوى الشهرة المعتمة مثل السيدة بلاواتسكى وآنى بيزانت . هذه المظاهر تجعلنا نفكر فى الجزر الصغرة المبعثرة هنا وهناك ، أشبه ما تكون بذرى سلاسل الجبال الهائلة غائصة تحت الماء . كان الجهلة حتى وقت قريب يظنون أننا قد تخلصنا من علم التنجيم منذ زمن بعيد ، وأنه أصبح شيئًا يمكننا أن نهزأ به ونحن فى مأمن من الشطط . أما اليوم ، بعد أن خرجنا من الأعماق الاجتماعية ، فقد راح علم التنجيم يقرع أبواب الجامعات من حيث طرد منها قبل ثلاثمائة عام . نفس الشىء ينطبق على الفكر الآتى من الشرق ، إن هذا الفكر تمتد جذوره فى المستويات الاجتماعية السفلى ثم ها هو ذا يتصاعد هونًا إلى السطح . من أين جاءت خمسة الملايين أو ستة الملايين من الفرنكات السويسرية التى أنفقت على تشييد معبد «الحكمة البشرية» فى درناخ ؟ قطعًا لم يدفعها فرد واحد . لسوء الحظ ، لا يتوفر احصائيات تنبئنا بالرقم الصحيح لأتباع «الحكمة الإلهية» الملتزمين اليوم ، ناهيك عن غير الملتزمين . لكننا واثقون بأنهم يبلغون بضعة ملايين ينبغى أن نضيف إليهم بضعة ملايين آخرين من الروحانيين من ذوى النزعات المسيحية أو الثيوسوفية .

الابتكارات العظمى لا تأتى أبدًا من فوق ، بل من تحت ، تمامًا كالأشجار لا تنبت أبدًا من السماء إلى الأرض ، بل من الأرض إلى

السماء ، مهما كان صحيحًا القول بأن بزورها قد هبطت إلينا من فوق .
إن الفوران الذى يشهده العالم والفوران فى الواعية هما فوران واحد . كل شيء يصبح نسبيًا وبالتالى موضع ارتياب . والإنسان بينما هو يتردد ويتساءل ، ويفكر فى عالم تتجاذبه معاهدات السلام ومواثيق الصداقة ، وتتوزعه الديمقراطية والدكتاتورية ، والرأسمالية والبلشفية ، تتوق روحه إلى جواب يبدد عنه الشك والقلق ، والناس الذين هم فى أدنى مستويات المجتمع هم الذين يخضعون لقوى النفس الخافية ، وهم أولاد البلد الصامتون الذين كثيراً ما نسخر منهم - الذين هم أقل تعرضًا لوباء الأهواء الأكاديمية من المشاهير الأعلام الذين أدمنوها . جميع هؤلاء الناس، إذا نظرنا إليهم من عل ، إنما يمثلون فى معظمهم كوميديا حزينة أو مضحكة ، وهم إلى ذلك بسطاء للغاية كبساطة أهل الجليل الذين باركهم المسيح مرة . أليس من المؤثر أن نرى نفاية نفس الإنسان وقد تجمعت فى مختصرات سمكها بطول قدم ؟ وإننا لنعثر فى «الأنثروبوفيتيا» على أكثر الكلام لغواً ، وأكثر الأفعال سخفًا ، وأكثر التخيلات وحشية، كتبت بعناية فائقة ، بينما انصرف أناس من مثل هافلوك إيليس وفرويد يعالجون أمثال هذه الشؤون ويفردون لها أبحاثًا جادة نالت كل التقدير العلمى ، ولهم جمهور من القراء موزعون فى جميع أنحاء العالم المتمدن الأبيض . كيف لنا أن نفسر هذه الحماسة ، هذه العبادة المتعصبة للأشياء المقتبسة ؟ إن تفسيرنا لها يأتى على هذا النحو : الأشياء المقيتة هى من

عالم النفس ومن قوامـها ، وبالتالى هى ثمينة بمقدار ما هى ثمـينة نتافات من مخطوطة استنفـذناها من طلل قديم . حتى الأشيـاء السرية والكريهة الموجودة فى الحـياة الداخلية هى أشيـاء ذات قيمة للإنسان الحـديث لأنها تخدم غرضه . لكن أى غرض ؟

استهل فرويد كتابه «تفـسير الأحلام» بالقول المأثور التالى : «إن لم أستطع إخضاع الآلهة، فلا أقل من أن أجعلها تزمجر» .

إن الآلهة التـى «نحن» مدعوون إلى إنـزالها عن العرش هـى القيم الوثنية المنصوبة فى عالمنا الواعى . ولقـد بات من الأمور المعروفة جداً أن فضائح الحب التى تعرضت لها الآلهـة القديمة هى التى أسهمت أكثر من أى شىء آخر فى سلـب الثقة عن هذه الآلهـة ، وها هو ذا التاريخ يعـيد نفسـه الآن . فقـد أخذ الناس يعـرّون الأسس المريبة التـى قامت عليـها فضائلنا الـتى نقدسها ، ومثلنا العـليا التى لا نظير لها ، ويصـيحون بنا صيحة الظفر : «تلكم هى آلهـتكم التى صنعتموها بأيديكم ، إن هى إلا شرك وأضاليل ملوثة بحقارة البشـر - أضرحة مكلّسة ملأى بعظام الموتى وكل أنواع القذر ، فنميز فى هذا الكلام نبرة مألوفة ، كلمات من الإنجيل لم نستطع أبداً أن نجعلها كلماتنا ، تعود الآن ثانية إلى الحياة .

وإنى لعمـيق الاقتناع بأن هذه مـا هى بالمشابهـات الغامضـة : ففى الناس أكثر مما نظن ممن يُحلّون سيكولوجية فرويد من نفوسهم منزلة أعلى من الإنجيل ، ويعنى لهـم «الإرهاب الروسى» أكثر مما تعنى لهم فـضائل

الحيـاة المدنية . ومع ذلك هـؤلاء جميـعًا إخوتنا ، وفى كل مـنا صوت «واحد» علـى الأقل يؤيدهم ، لأنه فى نهاية المطاف توجـد حيـاة نفسـية واحدة تحيط بنا جميعًا .

والنتيجة التى ما توقعناها من هذا التغير الروحى هى أننا خلعنا على العالم وجهًا أقـبح من ذى قبل ، ولقد بلغ من قبحـه حدًا لم يعد بوسع أحد أن يحبـه بعد الآن - حتى إنه لم يعد بوسعنـا أن نحسب أنفسنا ، وفى نهـاية المطاف ليس فى العالـم الخارجى مـا يحملنا على أن نضـرب صفـحًا عن حقـيقـة الحيـاة الداخلية . ولا شك أننا نكتـشف هنا المعنى الحقيقى لهذا التغير الروحى . ثم ماذا تريد «الحكمة الإلهية» وما اشتملت عليه من تعـاليم «الكرما» و «التقمص» مـاذا تريد أن تعلمنا سوى أن هذا العالم المرئى ما هو إلا مصح مؤقت للذين لم يكتملوا أخلاقيًا ؟ إنها تحطّ من قيـمة عالمنا الراهن بما لا يقل جذريـة عما تفعله النظرة الحـديثة ، إنما تستعير تقانيّة مختلفة . فهى لا تحط من قدر هذا العالـم ، بل تمنحه معنى نسبـيًا من حيث إنهـا تعدنا بعـوالم أخرى أرفع شأنا من هـذا العالم . النتيجة واحدة فى كلتا الحالتين .

أعترف بأن جميع هذه الأفكار بعيدة جدًا عن الروح الأكاديمية ، وأن ما فيها من حق إنما يمس الإنسان من الجانب الذى يكون فيه وعيه فى حده الأدنى . ثم هل من قـبيل المصـادفة أيضًا أن يصطلح الفكر الحـديث مع نسبية اينشتاين والأفكار المتعلقة ببنيـة الجوهر الفرد التى تبعدنا عن الحتمية

والتمثيل الرؤيوى ؟ حتى العلوم الفزيائية طيّرت عـالمنا المادى . فلا عجب إذن أن ينكفىء الإنسان الحديث على واقع الحياة النفـسية يلتمس منها اليقين الذى ينكره العالم عليه .

لكن العالم الغـربى هو الآن فى وضع محـفوف بالمخاطر من الناحـية الروحية - ويتعاظم الخطر كلما عمينا عن الحقيقة القاسية موهمين أنفسنا بما فى روحنا من جمال ؛ الإنســان الغربى يحرق البخـور أمام نفسه فتـختفى ملامحه وراء الدخان . لكن كيف يبدو للناس الذين هم من لون غير لوننا؟ ما ظن الصين والهند بنا ؟ ما الشعور الذى نسـتثيره فى الرجل الأسود ؟ ما رأى جميع الذين حرمناهم من أراضيهم وقضينا عليهم بـ «الرّم» والأمراض التناسيلة ؟

لى صديق من الهنود الحـمر يحكم إحدى قبائل البـوابلو . عندما كنا مـرة نتجـاذب أطراف الحديث حـول الرجل الأبيض ، إذا به يقـول لى : «نحن لا نفهم البيض . . إنهم دائمًا يريدون شيئًا . . دائمًا قلقون . . دائمًا يبـحثـون عن شىء . . ما هو ؟ لا ندرى . . لا نـستطيع أن نفـهمـهم . . أنوفـهم الدقيـقـة . . شافـهم الرقـيقـة القاسـيـة . . وهذه الخطوط على وجوههم . . إننا نعتقـد أنهم جميعًا مجانين» . كان صـديقى قد اكتشف - دون أن يسمى ذلك بالاسم - سبع الطير الآرى وشهوته التى لا ترتوى إلى بسط سيادته على كل أرض - حـتى تلك الأراضى التى تعنيه أبدًا . كذلك لاحظ مبلغ ما فينا من جنون عظمة يفضى بنا إلى الاعتقاد ، من بين أشياء

أخرى ، بـأن المسيحـية هى الحـقيـقة الوحـيدة ، وأن المسـيح الأبيض هو المخلص الوحــيـد . بعـد أن أوقـعنا الشـرق كله فى حـالة من الفـوضى والاضطراب بواسطة العلم والتقـانية (= التكنولوجيا) وجـبّينا منه الجزية ، عمدنا إلـى إيفاد مبشريـن عنا حتى إلى الصين . كان القضـاء علـى تعدد الزوجات من جانب «البعثات الأفريقـية) سببًا فى انتشار الدعارة على نطاق واسع حتى لقـد تطلب الأمر فى أوغندا وحـدها إنفاق عشـرين ألف جنيه اسـترلينى سنويًا علـى الوقاية من الأمـراض التناسليـة ، ناهيك عن الآثار الأخلاقـية الى كـانت أمرّ وأدهى . والأوروبى الطيب يدفع إلى مـبعـوثيه نفقاتهم من أجل القيام بهـذه المهام التنويرية ! لا حاجة بنا إلى إيراد حكاية الآلام فى «بولينيزيا» ولا إلى «بركات» تجارة الأفيون .

هكذا يبدو الأوروبى عندما يسقط عنه حجاب بخوره الأخلاقى . ولا عجب بعد هذا أن نبدأ بفتح المجـارى لتصريف مستنقع آسن من أجل نبش التراب عن شظايا الحياة النفسية الدفينة . إن مثل هذا العمل غير النظيف ما كان لأحد أن يخصص له كل حياته إلا مـثالى عظيم مثل فرويد . أما نحن فلا يمكننا أن نبدأ بمعـرفة وقائع الحياة النفسيـة إلا عند هذه النهاية، بكل ما نثيره فينا من اشمئزاز وما لا نرغب فى رؤيته .

لكن إن كانت النفس لا تشكل بالنسبة إلينا إلا الأشياء الشريرة التى لا قـيـمـة لهـا ، فليس على وجـه الأرض قـدرة تسـتطيع أن تحـمل إنسانًا

سليم الحجى علـى الإدعاء بأنها ذات جـاذبية . وهذا ما يفـسر لنا لماذا لا يجـد الناس فى «الحكمة الإلـهيـة» إلا سطحيـة عـقلية مـؤسفـة ، وفى س‍يكولوجية فرويد إلا حسية تنبىء بنهـاية قريبة مخزية لهذه الحركات ؛ لأنها تغض النظـر عن أن قوتها مـستمـدة من جاذبية الحـياة النفسـية أو سحرها . ولا شك أن الاهتـمام الشديد الذى تستـثيره فينا قـد يعبر عنه بأشكال أخـرى ، لكن لابد له من أن يـظل يظهـر فى الأشكال إلى أن يحل محلهـا أشكال خيـر منها . الخرافـة والشذوذ شيء واحد ؛ إنهـما مراحل انتقالية فى حالة جنينية ينشأ عنها أشكال أجدّ وأنضج .

تقدم لنا التيارات الباطنة من الحياة النفسية فى «الغرب» صورة مقرفة، سواء من الناحية العقلية أم من الناحية الأخـلاقية أو الجمالية . لقد شيّدنا من عالمنا نصبًا تذكاريًا قوامه الأشـياء التى تحيط بنا ، وتعبدنا له بطاقة لا مثيل لـها . لكنه نصب بالغ الجلال والمهابة ، ومـا ذلك إلا لأننا أنفقنا على الخارج كل ما هو جليل ومهيب فى طبائعنا أما ما نجده حين ننظر فى الداخل فلابد وأن يكون مهترئًا وناقصًا .

إنى لأعلم أننى بقوله هذا إنما أسـتبق قليلاً نمو الواعيـة الفعلى ؛ إذ حتى الآن لا توجد رؤية عامة لهذه الوقائع من الحـياة النفسية . فالغربيون لم يزالوا فى بداية الطريق نحو الاعتراف بهذه الوقائع ، ولأسباب مفهومة جدًا يناصبونها أشد العداء . لقد كان لتشاؤمية شبنغلر بعض التأثير لكنه ظل محصورًا فى الدوائر الأكاديمية . أما فيما يتعلق بالرؤية السيكولوجية،

فى تشكل دائمًا عـدوانًا على الحيـاة الشخـصية ، ولذلـك تلقى مقـاومة ونكرانًا على المسـتوى الشخـصى . وأنا أبعد ما أكـون عن حسـبان هذه المقاومة أمرًا لا مـعنى له ، وإنما أجد فيها رجعًا (= رد فـعل) صحيًا ينذر بالخراب . ذلك أننا كلما اعتبرنا النسبية مبدأ أساسيًا ونهائيًا كان لها أثر تخريبى . ولذلك عندما ألفت الانتباه إلى التيـارات الباطنة المخيفة العاملة فى النفس ، فليس ذلك لأنى أريد أن أعزف نغمـة تشاؤمية ، وإنما لكى أؤكد على أن الخـافية (= اللا شـعور) تتمتع بجـاذبية شديدة لا بالنسـبة للمرضى وحسب ، وإنما لأصحاب العـقول السليمة البناءة أيضًا - إن هذا بالرغم من مظهرها المرعب . فالأعـماق النفسية هى الطبيعـة ، والطبيعة هى حياة خلاّقة . صـحيح أن الطبيعة تدمّر ما تشيده بنفـسها ، لكنها ما تلبث أن تعود فـتشيّده ثانيـة . مهمـا كانت القيـم التى تدمرها النسبـية الحـديثة فى العـالم المرئى ، تنتج النفس قـيمًا مـعادلة لهـا . وفى بداية الأمر، لا نسـتطيع أن نرى ما وراء الطريـق الذى ينحدر بنا إلى الأشـياء المظلمة المقـيتة - لكن مـا من نور أو جمال قـمين بأن يأتى من إنسان لا يسـتطيع أن يحـمل هذه الـرؤية . لأن النور يولد دائـمًا من الظلام ، والشمس لم تتوقف قط فى السماء بعد لكى تلبى ما يصبو إليه الإنسان أو لكى تديم مخاوفه. ألا يبين لنا مثـال «انكتيل دى بيرون» كيف أن الحياة النفـسية تظل حـيّة حتى بعـد كسـوفها ؟ إن الـصين لا تعتقـد أن العلم والتقانيـة الأوروبية يعدّان العدة من أجل تدميـرها. فلماذا يتعين علينا أن نعـتقد بأن الـتأثير الـروحـى الخفى الآتى إلينا من الشـرق لابد له وأن يدمرنا ؟

لكنني نسيت أننا لـم ندرك بعد أننا في الوقت الذى نقلب فيه العالم المادى للشرق رأسًا على عقب بمهارتنا التقانية ، يقوم الشرق فى هذا الوقت بالذات بما يملك من مهارة روحيـة برجّ عالمنا الروحى فى الفوضىٰ . إننا لم نتوصل بعد إلى إدراك أننا فى الوقت الذى نتفوق فيه على الشرق فى القوة من الخـارج ، ربما يكون هو فى هذا الوقت بالذات آخـذًا بإحكام قبـضته علينا من الداخل . قد تبدو هـذه الفكرة غير صحيحـة ، لأن لنا عيونًا لا تنظر إلا إلى العـلاقات المادية الكثـيفـة ، ولا ترى أنه ينبـغى لنا أن ننحى باللائمة على الفوضى الفكرية التى تعانى منها طبقتنا المتوسطة على أبواب ماكس مولر واولدنبـرغ ونيومان ودويسن ويلهلم وسواهم . مـاذا يعلمنا درس الإمبراطورية الرومانية ؟ بعد غزو آسيا الصغرى أصبحت روما آسيوية ؛ حتى أوروبا أصابتـها العدوى الاسيوية ، ومـا برحت كذلك حتى يومنا هذا . فمـن كيليكيـا ظهرت عبادة مـيثـرا - ديانة الجيش الرومـانى - ثم انتشرت مـن مصر حتى بلغت بريطانيـا المغلّفة بالضباب . هل أحـتاج إلى التذكير بالأصل الآسيوى للمسيـحية ؟

إلى الآن لم نفهم بجلاء أن «الحكمة الإلهية» الغربية ما هى إلا محاكاة للشرق يتولاها هواة من عندنا . ها نحن أولاء نعود إلى تبنى علم التنجيم ثانية ، وهو عنـد الشرقى خبـزه اليومى . دراستنا عن الحـياة الجنسـية ، التى نشأت فى «فـيانّا» وانجلتـرا ، تباريهـا أو تسبقـها تعـاليم الهندوكيـة حول الموضوع . النصوص الشرقـية التى عمرها عشرة قرون تقـدونا إلى النسبية

الفلسفية ، بينما فكرة اللاحتمية التى دخلت حديثًا إلى الغرب ، هى القاعدة الأساسية التى ينهض عليها العلم الصينى . حتى إن ريتشارد ويلهلم أطلعنى أن بعض السياقات المعقدة التى كشف عنها «علم النفس التحليلى» قد جاء وصفها فى النصوص الصينية القديمة بصورة لا تخطىء . و «التحليل النفسى» نفسه وما يرسمه من خطوط فكرية - ولا شك أنه تطوير غربى بصورة بارزة - ما هو إلا محاولة مبتدىء بالمقارنة مع ما هو موغل فى القدم فى الشرق . وفى هذا الصدد لابد لنا من ذكر الموازنة التى قام بها أوسكار ا. هـ. شميتز بين «التحليل النفسى» واليوجا .

أصحاب «الحكمة الإلهية» (= الثيوسوفيون) يؤمنون بفكرة طريفة هى أن بعضًا من «المهاتما» الذين يقيمون فى مكان ما من جبال هيملايا أو التيبت ، يوحون إلى كل عقل فى العالم ويوجهونه . وقد بلغ تأثير الإيمان الشرقى بالسحر على الأوروبيين من ذوى العقول السليمة مبلغًا من القوة جعل بعض هؤلاء يؤكد لى أن «المهاتما» هم الذين يوحون إلى ، على غير علم منى ، بكل خير أنطق به ، وإن الوحى الخاص بى لا قيمة له . انتشرت هذه الأسطورة ، اسطورة «المهاتما» انتشاراً واسعًا فى الغرب وآمن بها الناس إيمانًا راسخًا ، وهى ككل أسطورة ، أبعد ما تكون عن لغو فارغ ، لأنها حقيقة سيكولوجية كبيرة . إذ يبدو لنا أن الشرق هو فى أساس التغير الروحى الذى نمر به اليوم ؛ إلا أن هذا الشرق ليس ديراً فى التيبت حافلاً بـ «المهاتما» ، وإنما هو كامن فينا بمعنى ما . إن أشكالاً

روحيـة جديدة سوف تنبعث من أعـماق حيـاتنا النفسيـة التى تعيننا على إخضاع شهوتنا غيـر المحدودة إلى السيطرة والافتراس . لعلنا عندئذ نصل إلى معرفة شىء عن الاستقرار الذى يكتسبه الوجود البشرى عندما تصبح مطالب الروح إلزامية كإلزامية ضرورات الحياة الاجتماعية . ومع ذلك فى عصر «التأمرك» الذى نعيش فيه ،. لم نزل بعيدين عن كل شىء من هذا القبيل ، ويبدو لى أننا لم نزل عند عتبة العصر الروحى الجديد ، إلا إذا أريد ادعـاء النبوءة ، ولا أسـتطيع تحديد مـعـالم المشكلة الروحيـة لدى الإنسان الحديث إلا إذا شددت على أهميـة التوق إلى الراحة الذى ينبعث فى التعب ، والأمـان الذى يتربى فى الخطر فالأشكال الجديدة مـن الحياة إنما تنبعث من الحاجـة والعوز ، لا من الرغبات الصرفـة أو من متطلبات مثلنا العليا .

وعندى أن صلب المشكـلة الروحيـة التى نعـانى منهـا اليوم يجب البحـث عنه فيمـا تحدثه الحـياة من افـتتـان لدى الإنسان الحـديث . فإن تشاءمنا قلنا إنها علامة إنحطاط ، وإن تفاءلنا قلنا إنها تبشر بتغير روحى بعيد المدى سوف يشهده العالم الغربى . على أى حال ، إنها مظهر بالغ الأهمية . وإنهـا الأجدر بالملاحظة لأنها تكشف عن نفسـها لدى قطاعات واسعة من كل شعب ، وهى الأهم لأنها مسألـة من مسائل القوى النفسية التى لا يسبر غورها ، فـهى تحول الحياة الإنسانية تحـويلاً غير ملحوظ ولا تمكن ملاحظتـه ، كما يبين لنا التـاريخ . هذه القوى - ومازال كثـير من الناس اليـوم لا يرونها - التى هى فـى أساس الاهتـمام «السـيكولوجى»

الراهن . عندما تكون قوة جاذبية الحياة النفسية من الشدة بحيث لا يشمئز الإنسان ولا يخاف مما هو مستيقن من وجوده ، عندئذٍ لا يكون ثمة مرض أو انحراف بشأنها .

على امتداد الطرق الكبيرة من العالم يظهر كل شيء كئيبًا ومهترئًا ، فيترك الإنسان الطريق المطروق بصورة غريزية ليكشف عن الطرقات الفرعية والحارات ، تمامًا مثلما نبذ إنسان عالم الإغريق والرومان آلهة الأولمب الميتة ويمم وجهه شطر ديانات الأسرار الآسيوية . بالقوة في داخلنا التي تحفزنا على البحث ، وهي متجهة إلى الخارج ، تدمج ما بين «الحكمة الإلهية» الشرقية والسحر ؛ لكنها تلتفت أيضًا إلى الداخل وتقودنا إلى إيلاء انتباهنا الشديد إلى النفس الخافية (= اللا شعورية) ، فتنفث في روعنا ريبية وعزيمة لا تلين ، وهما نفس الريبية والعزيمة اللتين بهما قضى بوذا على مليونين من الآلهة لعله يصل إلى الخبرة الأصلية التي هي وحدها المقنعة .

ثم لابد من سؤال أخير : هل ما قلته عن الإنسان صحيح حقًا ، أم لعله ناشيء عن خداع بصري ؟ لا شك في أن الوقائع التي توليت سردها هي في نظر ملايين كثيرة في الغرب ممكنات لا صلة لها بالموضوع ، وهي في نظر عدد كبير من المثقفين أخطاء مؤسفة لكن لعلني أتساءل : ترى ماذا كان الروماني المثقف يفكر عندما كان يرى المسيحية تنتشر في صفوف الطبقات السفلى من الشعب ؟ إن إله «الكتاب المقدس» لم يزل حيًا في

العالم الغربى - بمقدار ما إن «الله» حىّ فيما وراء البحر المتوسط . والمؤمن ينبز المؤمن الآخر بالزندقة السافلة . وإنه جدير بالشفقة والتسامح إذا تعذرت هدايته . ما هو أكثر ، الأوروبى الذكى مقتنع بأن الدين ومثل هذه الأشياء إنما تصلح لسواد الناس وللنساء ، لكنها ذات وزن خفيف بالقياس إلى شؤون الاقتصاد والسياسة .

وهكذا أجدنى مكذبًا على طول الخط ، أشبه ما أكون بمن يتنبأ بهبوب العاصفة حين لا يوجد فى السماء سحابة واحدة . إذ ربما كان الذى أستشفه عاصفة كامنة وراء الأفق - ولعلها لا تصل إلينا لكن ما هو ذو أهمية فى الحياة النفسية هو دائمًا وراء أفق الواعية ، وعندما نتكلم على المشكلة الروحية عند الإنسان الحديث فإنما نتعامل مع أشياء لا نكاد نراها، مع أخفى الأشياء وأكثرها هشاشة ، وأزهار لا تتفتح إلا ليلاً . أما فى النهار فكل شىء جلىّ ومحسوس ؛ لكن الليل يدوم كما يدوم النهار . ونحن نعيش فى الليل أيضًا . فثمة أشخاص يرون أحلامًا مزعجة حتى إنها تفسد عليهم نهاراتهم . والحياة فى النهار هى ، بالنسبة إلى كثير من الناس ، نوع من الحلم المزعج يجعلهم يصبون إلى الليل حين تستيقظ الروح . بل إننى أعتقد أنه يوجد فى أيامنا هذه عدد كبير من هؤلاء ، وهذا ما يفسر لماذا أذهب إلى أن المشكلة الروحية عند الإنسان الحديث لهى بنفس الحجم الذى قدمته . والحق إننى مضطر إلى اتهام نفسى بالأحادية ، إذا لم أذكر روح الإلتزام الحديث بعالم عملى لكل منا ما

يقوله فيه لأنه يمتد أمامنا ملءَ العين والبصر . إننا نجده فى المثل الأعلى العالمى أو فوق الأممى الذى يتمثل فى «عصبة الأمم» وما أشبه ؛ كما أننا نجده فى الرياضة ، وبصورة صارخة جداً ، فى السينما وموسيقى الجاز .

هذه علامات بارزة على زماننا تظهر بما لا يدع مجالاً للخطأ كيف صيغ المثل الأعلى الإنسانى بحيث يشمل الجسد أيضًا . فالرياضة تمثل تقويمًا استثنائيًا للجسد البشرى ، كما يفعل ذلك الرقص الحديث أيضًا . والسينما من ناحية ثانية ، شأنها كشأن القصة البوليسية ، تتيح لنا اختبار جميع الانفعالات والعواطف والرغبات التي كان ينبغى لها أن تظل مكبوتة في ظل تنظيم إنسانى من الحياة ليس فيه تعرض للأخطار . ليس من الصعب أن نرى كيف تتصل هذه الأعراض بالحالة النفسية فقوة جاذبية النفس تحدث تقديرًا ذاتيًا جديدًا ، وإعادة تقدير للحقائق الأساسية في الطبيعة البشرية . ولعنا لا ندهش إذا أفضى بنا هذا إلى إعادة اكتشاف الجسد بعد أن قللنا من شأنه طويلاً باسم الروح ؛ بل لعل هذا يغرينا بالقول بأن الجسد يثأر لنفسه من الروح . عندما بين كسيرلنغ ساخرًا أن سائق السيارة هو بطل الثقافة فى عصرنا ، كان قريبًا من إصابة الهدف كما هو شأنه دائمًا . فالجسد يطالبنا باعتراف يساوى اعترافنا بالروح . فهو ، كالنفس ، له فتنته وجاذبيته . فإن كنا لم نزل واقعين تحت سيطرة الفكرة القديمة عن التناقض بين العقل والمادة ، كان معنى ذلك أن الوضع الراهن قد أصبح فى تناقض لا يطاق ؛ بل إنه قد يجعلنا ننقسم على

أنفسنا . أما إن كنا قادرين على الإصطلاح مع الحقيقة الخفيه ، وهى أن الروح هى الجسد الحى منظورا إليه من الداخل وأن المادة هى المظهر الخارجى من الروح الحسة - باعتبار الإثنين واحدا - فعندئذ نستطيع أن نفهم لماذا نسعى على محاولة تجاوز المستوى الراهن من الواعية أن تعطى الجسد حقه . كذلك نستطيع أن نرى الإيمان بالجسد لا يمكنه أن يغفر لنظرة تتنكر للجسد باسم الروح . لقد أضحت هذه المطالبات بالحياة الفيزيائية والنفسية ملحة جداً بالقياس إلى مطالبات مماثلة لها فى الماضى ، حتى إنها لتغرينا بأن نرى فيها علامة على الإنحطاط . ومع ذلك قد تعنى أيضاً تجديداً للشباب ، لأنه كما يقول هولدرلن « الخطر نفسه . يحمل فى طياته طوق النجاة » .

إن ما نشاهده فعلاً هو أن العالم الغربى بات يعزف على إيقاع بالغ السرعة ، هو الإيقاع الأمريكى ، وهو النقيض الصارخ للسكونية والإنعزالية المنكفئة ؛ مما ينشأ عنه توتر شديد بين القطبين المتناظرين من الحياة الخارجية والداخلية ، بين الواقع الموضوعى والذاتى . ولربما كان جهداً يائساً أو جهداً مفيدا من جانب الإنسان الواعى يبتغى منه خداع قوانين الطبيعة عن قدرتها الخفية لكى ننتزع من نوم الأمم نصرا مؤزراً. هذه مسألة يتولى التاريخ الإجابة عنها .

حتى نختتم الموضوع بعد هذه التوكيدات الكثيرة والجزئية ، يطيب لى أن أعود إلى الوعد الذى قطعته فى البدء ، وهو أن أكون مدركا للحاجة إلى الحذر والاعتدال . والحق أننى لا أنسى أن صوتى ما هو إلا صوت واحد ، وخبرتى ما هى إلا نقطة فى بحر ، ومعرفتى ليست أوسع من مجال الرؤية فى مجهر ، وعينى ما هى إلا مرآة تعكس زاوية صغيرة من العالم ، وأفكارى ما هى إلا إعتراف ذاتى .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع : ١١٢٥١ /٢٠٠٣

I.S.BN. 977 - 01 - 8582 - 5



وبعد أكثر من عشرة أعوام من عمر مكتبة الأسرة نستطيع أن نؤكد أن جيلاً كاملاً من شباب مصر نشأ على إصدارات هذه المكتبة التى قدمت خلال الأعوام الماضية ذخائر الإبداع والمعرفة المصرية والعربية والإنسانية النادرة وتقدم فى عامها الحادى عشر المزيد من الموسوعات الهامة إلى جانب روافد والفكر زاداً معرفياً للأسرة المصرية وعلامة فا مسيرتها الحضارية.

سوزان مبا

التنفيذ
الهيئة المصرية العامة للكتاب

السعر
٣ جنيه